د. منير لطفي

نور على نور

(إضاءات للعقْل والقلب والروح)

حقوق الطبع محفوظة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾

[النور:35]

الإهداء

إلى إخوةٍ هم للعين نُور، وللحياة سنَدٌ كفَقار الظُّهور..

"ياسر، وليد، أحمد، زينب، سمحة"

وقاكم الله كلّ سوء، وبلَّغكم خير ما تحبّون.

المقدّمة

الحمدُ لله ربّ البرايا والأنام، تَفضَّل علينا بجميل المِنَن، ووهبَنا وافرَ النِّعَم؛ نعمةَ الإيجاد التي عبرت بنا من شرنقة العدَم إلىٰ طوْر الوجود فأَبْصرْنا شمسَ الحياة، ونعمةَ الإسلام التي سكبَت في روحنا الهدايةَ واسْتلَّت منها الضلالة، ونعمةَ الإيمان الذي هو نورٌ يملأ الصدور وفرحٌ يُقرّ العيون وعطرٌ يُطيِّب الجسوم، فضلا عن نعمةَ الإحسان التي هي إكليلُ غار يُطوِّق الأعناق وتاجُ عزٍّ يَزِين أعلىٰ الهام ووسامُ شرفٍ طوبىٰ لمَن به فاز.. وغير ذلك مِن نِعم لا عدَّ لها ولا حدّ، سخَّرها اللهُ لعباده ليَستعينوا بها في الاستدلال علىٰ الواهِب، ويَهتدوا بها في الوصول إلىٰ المُنعِم: وصولا دنيويا بِيقظة القلبِ وخضوعه لربِّ البريّة، ووصولا أُخْرويا بدخول دار الكرامة وسُكنىٰ جنّةٍ عرضها الأرض والسماء.

والمسلمُ في سعيه إلىٰ الله سبحانه، تتقلَّب نفسُه بين أحوال ثلاث؛ فتارة تتوضّأ بالرجاء، وتغتسل بالخشية، وتَتَيمَّم بالمَحبّة، فيَرضَىٰ اللهُ عنها وترضَىٰ؛ وتلك هي النفْس المطمئنّة. وتارة ترتكس في وحل الشهوات، وتغوص في دنس الأهواء، فتجترِئ علىٰ المعاصي وتلِج لها كلّ باب؛ وتلك هي النفس الأمَّارة بالسوء. وتارة تتأرجح بين هذه وتلك؛ فتندم بعد اقتراف المعصية، وتتحسّر علىٰ فوات الطاعات، وتُجاهد في سبيل التزكية؛ وتلك هي النّفس اللوّامة...وأكثرنا-وا أسفاه- ينتمي إلىٰ هذه النفس وذاك الحال. ومن المعلوم أنّ النفس في سيرها لا تشبه قضيب القطار، ولكن تسلك بنا طريقا وعرا فيه السهْل والحزَن والوادي والجبل؛ فقد تُصبح مطمئنّة، وتُضحي لوّامة، وتُمسي أمّارة بالسوء إلّا ما رحم الله.

والحقيقة أنّ النفسَ لا يُمكن أن تَرتقِي في معراجِها صوب سماء السّكينة وفَلَك الطمأنينة وأُفق الرضا والحياة الطيِّبة؛ إلّا بعقيدة إيمانية[1] تسكن سويداء القلب وأعماق النفس؛ فتتجرَّد بها النيّة، ويتحدّث باسمها

(1) عن أهمية الإيمان في كل مناحي الحياة، والعلاقة بينه وبين الجنديّة؛ قال الجنرال البريطاني (برنارد مونتغمري) والذي قاد قوات الحلفاء إلى النصر في الحرب العالمية الثانية: الجندي بحاجة إلى الإيمان أكثر مِن حاجته إلى السلاح، وبحاجة إلى الصلاة أكثر مِن حاجته إلى الترفيه.

اللسان، ويتحرّك بمقتضاها البدن، وتتحلّىٰ بها الأخلاق. ولأنّ هذه العقيدة الإيمانيّة عرْضة للزيادة والنقصان والمدّ والجزر؛ فإنَّ المُوَفَّق والمُسَدَّدَ هو مَن وقف علىٰ قول المُصطفىٰ ﷺ: **"إنَّ الإيمانَ يَخْلَق**(أي يَبْلَىٰ) **في القلوب كما يَخلَق الثوبُ فجدِّدوا إيمانكم"**؛ فتَعهّدَ نفسَه بغذاء التدبّر في مُنادِي الإيمان[1] الذي هو القرآن، ثمّ سقاها بالعبادات والقُربات، وشحَنَها بالتفكّر والاعتبار بما في الكون المنظور مِن آيات.. وفي هذا السياق ركض القلم في ميدان الورق وجاء الكتاب الذي بين أيدينا.

ومعه نَطوف عبر كلمات قاربت الخمسين ألفا وصفحات ناهزت الثلاثمائة وفصول ثلاثة لا رابع لها؛ فنتبيّن سُنن الكون، ونتأمّل إعجازَ الله في الحواسّ، ونَستعيد عافيةَ الأمل، ونَتسلَّح بزاد العِلم، ونُجدِّد ما تآكَل في ذواتِنا، ونَأنَس ببيوت ربِّنا، ونَتلمّس الجمالَ حولَنا. كما نُشمِّر عن ساق الجِدّ؛ فنُحقِّق عبوديّةَ القلب، ونُنقِّب عن غذاء الروح، ونَضبط ألسنتَنا علىٰ تردّد الشرْع، ونَقضِي دَيْن الأمومة، ونُوفِّي حقَّ المال، وننفض غبارَ الكسل، وننظر للموت نظرة مغايِرة، ونغتبط بالحياةَ الطيِّبة. مُستعِينين في

(1) في قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ ﴾ قال (محمد بن كعب القرظي): إنّ المنادِي هو القرآن.

ذلك بتراث ثريّ ارْتكَز علىٰ الوحْيَين الكريميْن، ومُستأنِسين كذلك بما خطَّه أعلامٌ مغاوير ملكوا ناصيةَ الرأي والفكر، فحملوا علىٰ عاتقهم همَّ إيقاظ الأمّة مِن سباتها، وتربية الأفراد علىٰ النهج القويم. ومُصطحِبين معنا، ما رشَح في الواقع الحيّ مِن أحداثٍ تخطّ خطوطا، وتدقّ ناقوسا، لمَن كان له قلبٌ أو ألقىٰ السمعَ وهو شهيد.. وبالجُملة؛ فإنَّ المؤمنَ باحثٌ عن الحقيقة، وناشدٌ للحكمة، وأَنَّىٰ وجدَها فهو أوْلىٰ النّاس بها وأسْبقهم إليها.

بما يَعني أنّ في هذا الكتاب-إن شاء الله- تنميةً للإيمان وتطبيبا للنفوس وتهذيبا للمشاعر وهندسة للأفكار؛ وذلك عبر ومضات تنير دربَ العقل، ونبضات تخفق في جنباتِ القلب، ونفحات تحلِّق في سماء الروح. وما هذه الومضات والنبضات والنفحات إلّا تحقيقا لأمر الصحابي الجليل (معاذ بن جبل) في قوله لصاحبِه: "اجلس بنا نؤمن ساعة"، واسترشادا بقول الإمام الشافعي:" كان الإجماع من الصحابة والتابعين مِن بعدهم ومَن أدركناهم يقولون: الإيمان قول وعمل ونية، ولا يُجزئ واحدٌ مِن الثلاث إلّا بالآخَر"، واستلهاما لحكمةَ القائل: "الإيمان قلعة الأمل، والأمل قلعة العمل، والعمل قلعة النجاح"[1].

(1) كتاب (طرق مختصرة إلى المجد) لمؤلِّفه (هادي المُدرّسي).

وما أراني هنا إلّا مُذكّرًا نفسي قبل غيْري بما نسيناه، ومنبّهًا إلىٰ الاحتراز مِن ثوبِ غفلةٍ ارتديناه، ومؤكّدًا علىٰ أنّ حصنَ الإيمان يبقىٰ دوما هو درع الوقاية وبَرّ الأمان وسفين النجاة. وعسىٰ القلوب علىٰ أثر ذلك تَلين والروح تُحلّق والنّفس تَزكو؛ فنُولَد ولادة ثانية، ونزداد نورا علىٰ نور، ونَسمو إلىٰ ما فوق رتبة الملائكة، ونَطمئنّ في مقعد صدق عند مَليك مقتدِر، ويَتناهَىٰ إلىٰ سمْعنا أعذب قولٍ وأشْرف نداء.. ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ ﴾[1].

ومِن نافلة القول؛ أنّ ثمارَ شجرة الإيمان المبارَكة لا تتوقّف عند حدود علاقة المؤمن بربّه، ولا عند علاقته بدنياه، بل يمتدّ عطاؤها الفيّاض إلىٰ تعاملاته مع الآخَرين؛ ليَنشأ مجتمعٌ راشد يتّصف بصفات الطليعة الأولىٰ مِن الجماعة المؤمنة، والتي رسم لها (عمر بن الخطاب) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ صورةً عن قُرب فقال: "قومٌ دينهم النصيحة وخُلُقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عرف كلٌّ منهم مالَه مِن حقٍّ فلم يطلب أكثر منه وما عليه مِن واجبٍ فلم يقصِّر في أدائه، وأَحبَّ كلٌّ منهم لأخيه ما يحبّ لنفسه، فإذا غاب أحدُهم تفقَّدوه وإذا مرض عادوه وإذا افتقر أعانوه وإذا احتاج ساعدوه وإذا أُصيب واسوه"..

(1) الفجر 27، 28.

هيّا بنا إذنْ نقلِّب صفحاتِ الكتاب، بنيَّة الخيْر والصلاح، وبروح العِلم والعمل، وبأكفٍّ ضارعةٍ يلهج معها القلبُ قبل اللسان؛ فنرجُو الهدايةَ والقبول، ونرقُب التوفيقَ والسداد... ويا سعدَ مَن كانت الهدايةُ رفيقَه والتوفيقُ حليفَه والفوزُ نصيبَه.

د. منير لطفي

كَتِب في سلطنة عمان/2018-2020م

الفصل الأول

ومَضاتٌ للعقْل

(1) حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم

قِيل إنّ اثنيْن لا يتغيَّران؛ الموْتىٰ والحمْقىٰ؛ والواقع أنّه لا حياة بدون تغيُّر وتغيير[1]، ولا استثناء في ذلك لأحمق أو ميت؛ فالزمن يتغيّر، والمكان يتغيّر، والعِلم يتغيّر، والكون كلّه بذراته الدقيقة ومجرَّاته العظيمة في حالة تغيُّر دائب[2]، واقرأ في ذلك ما ضمّنه المسعودي -الملّقَب بهيرودوت العرب- كتابَه (مروج الذهب)؛ مِن أنّ كلّ ما هو أرض يابسة الآن كانت في الماضي بحرا، وكلّ ما هو بحر كان يابسة! وأظنّنا لسنا في حاجة إلىٰ التأكيد علىٰ أنّ أعمارَنا تتغيّر، وخلايانا تتجدّد، وكذا مشاعرنا

(1) يفرِّق أرباب اللغة والمنطق بين التغيُّر والتغيير، بقولهم أنّ التغيُّر يكون فجائيًّا وقدَريًّا وشاملا، بينما التغيير تتضح فيه صفة العزم والقصد والإرادة والتخطيط ويَجيء تدريجيا ومحدودا.

(2) في هذا المعنى تقول الحكمة أنَّ الإنسان لا يَسبح في ذات النّهر مرّتيْن؛ بمعنى أنّ مياه النهر متجدِّدة، وأنَّ جزيئات الماء التي سبح فيها في المرّة الاولى ليست هي ذاتها التي يَسبح فيها للمرّة الثانية.

وأفكارنا وسلوكيّاتنا التي لا تشذّ عن ذلك النهج التغييري الديناميكي، والذي يُعَدّ حتميّة كوْنيّة وضرورة اجتماعيّة وبدهيّة عقليّة، وهو ما أكَّده الإمام محمّد متولّي الشعراوي بقوله:

"الحياة الدنيا عالَم أغيار لا يَثبت الإنسانُ فيها على حال؛ القويّ فيها يصبح ضعيفا، والغنيّ فيها يصبح فقيرا، وصاحب الجاه والسلطان يصبح لا حول ولا قوّة له. أمّا الحياة الآخِرة فلها صفة الثبات في كلِّ شيء؛ في نعيمها، وفي عذابها، وفي مُتَعها، وفي كلّ ما تُعطي".

والتّغيير هو القاطرة التي تكفّلت بنقل البشرية مِن طور البداوة إلىٰ طور المدنيّة والحضارة، ومِن سُكنىٰ الكهوف إلىٰ سُكنىٰ القصور. وهو الموكب الذي زفَّ إنسانَ الفضاء الأوّل إلىٰ سطح القمر، والمبدأ الذي لا ينضب بحرُه إلّا مع نفخة الصور، ولا ترسو سُفنُه إلّا عند انْفضاض سوق الحياة، وكان مَن لا يركب هذا السفين ويَمتطي أمواجَه، أميرا علىٰ مؤخّرة الرّكْب وحاديا في ذيل القافلة وحِمارا للرَّحىٰ، حتىٰ لَيَعلوه الصدأ ويَكسوه الكلس ويَركله الزمن، فيبدو كأشجارٍ يابسة يتأفّف منها الناظرون، وأحجارٍ مُهشَّمةٍ مُهمَّشَةٍ لا يُعْبَأ بها ولا يُأْبَه لها. والإنسان في ذلك النهج

التغييري؛ مُهيَّأٌ بما حباه اللهُ مِن سلامة الفطرة وحُسْن التقويم، وقادِرٌ بما وهبه الواهِب مِن عقلٍ امتاز به علىٰ الجماد والنبات والحيوان والملَك والجانّ ..وسبحان مَن يُغيِّر ولا يتغيَّر.

والحقيقة أنَّ التغيير كسْرٌ لروتين الرتابة الذي يُذهِب البهجةَ ويَجلب الكآبة، وعلاجٌ لطاعون الملل الذي تَمجّه طبائعُ البشَر صغيرهم وكبيرهم؛ وربّما لهذا تَنوّعَت العباداتُ بين عبادات بدنيّة كالصلاة والصوم، وأخرىٰ ماليّة كالزكاة، وثالثة بدنيّة ماليّة كالحجّ. وتَنوعَّت كذلك كيفيّة الصلاة بين ركوع، وسجود، ووقوف، وجلوس. كما دارت الطبيعةُ دورتها وخضعَت لفلك التغيّر؛ فكان الحرّ والقرّ، والليل والنهار، والأبيض والأسود، والطويل والقصير، والضيِّق والفسيح، وهكذا..إذْ لو ثَبَتت الحياةُ علىٰ حال واحد؛ لَصارت عبئا ثقيلا لا يُطاق، ولَضاقت الصدورُ عن الاحتمال. ولهذا كانت المناظر التي تتّسم بالتغيّر اللوني والحركي هي الأجْمل والأحَبّ؛ ومَثِّل لذلك ببحر يموج، وشجر يهتزّ، وطائر محلِّق مغرِّد، وهلمّ مثَلا ومثلا.

والتغيير المَعنيّ هنا: هو الانتقال مِن حالةٍ غيْر مَرْضيّ عنها إلىٰ حالة أخرىٰ خيْر منها؛ بغرض الحصول علىٰ مرضاة الله، ثمّ النّفس والنّاس، وعلىٰ أمل الفوز بسعادة الدّارَيْن وأمْن الحياتَيْن. وقد ظلّ الأنبياء والرُّسُل

حملةً لمشاعل التغيير وأئمّتة علىٰ مدىٰ تاريخ البشريّة جمعاء، ثمّ كان علىٰ رأس كلّ قرْن مَن يجدِّد اللهُ علىٰ يديْه الدِّين؛ فيَجلو الرّان ويُزيح الغبَش، دون المساس بالقطْعيّات المتمثِّلة في العقيدة والشريعة والعبادات والأركان الخُلُقيّة الثابتة، وهو ما بدأه (عمر بن عبد العزيز) مجدِّد المائة الأولىٰ، وتلاه (الشافعيّ) مجدِّد المائة الثانية، وتبعه جمْع غفير مِن العلماء الربَّانيين الذين كانوا مآذن مِن بشَر وقرآنا يَمشي علىٰ الأرض؛ حيث انتصروا لِلسُنّة، واقْتصّوا مِن البدعة، وكانوا عظماء بحقّ بعد امتداد نفْعهم وتأثيرهم خارج حدود الزمان والمكان، وهو ما اجتهَد في إحصائهم الشيخان الأزْهريّان عبد المتعال الصعيدي وأمين الخولي في كتابَيْهما عن المجدِّدِين في الإسلام.

ولأنَّ ضربةَ البداية هي حجر الزاوية في كلِّ نجاح و المُنطلَق لكلِّ تغيير رشيد، فقد دلَّنا الحكيمُ القدير علىٰ طرَف الخيْط ووضع أيدينا علىٰ منْبت الدّاء فقال –سبحانه– في سورة الأنفال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال:53] ، وزادنا ابن عطاء الله السكندري إيضاحا في حكمته الثانية والثلاثين حين قال: "تَشوُّفك إلىٰ ما بَطَن فيك مِن العيوب، خيْرٌ مِن تَشوُّفك إلىٰ ما حُجِب عنك مِن الغيوب"، ثمّ صاغ حكيم الهند (غاندي) عبارته اللطيفة القائلة: "كُن أنت التغيير

الذي تودّ أن تراه في العالَم"، بينما جَسّدت المعنىٰ قصةُ اختراع النعال في عهد ذلك الملِك الذي قام برحلة بريّة طويلة في مملكته الواسعة، ولمَّا عاد ووجد قدميْه قد تورَّمتا مِن طول المشْي، أمر بتغطية كلّ شوارع المملكة بالجلد، ولكنّ أحدَ مستشاريه الحكماء أشار بصناعة حذاء جلدي لقدَمي الملِك فقط، في دلالة علىٰ أن تغيير النفس يحتلّ الأولويّة الأُولىٰ، وأنَّ زمَن المعجزات قد ولّىٰ فلم يَعُد للسِّحر بلّورة ولا لعلاء الدين مصباح ولا للتغيير مطَر يَتحدّر مِن المُزْن الثِّقال، وهو ما عناه الشيخ محمد الغزالي في كتابه (جدِّد حياتك) حين قال: "لا تُعلِّق بناء حياتك علىٰ أُمْنيةٍ يَلدها الغيْب، لأنَّ هذا الإرجاء لن يعود عليك بخير؛ فالحاضر الماثل بين يديْك ونفسك التي بين جنبيْك والظروف التي تلتف حواليْك؛ هي وحدها دعائم مستقبلك".

وليكن معلوما أنَّ أولويّة البرْمجة الذاتية والهندسة النفسية بإصلاح النّفس قبل الغيْر، لا يَندرِج تحت نقيصة الأنانية ولا يُخالطه شبهة النرجسيّة؛ بل كان ذلك كذلك لأنَّ النفسَ[1] هي العنوان الأبْرز لهويّتنا

(1) يقول المفكر الطبيب مصطفى محمود في كتابه (القرآن كائن حي): "حقيقةُ الإنسان هي نفسه، فالذي يُولَد ويُبعَث ويُحاسَب هو نفسه، والذي يُمتحَن ويُبتلَى هو نفسه، وما يَجري عليه مِن الأحوالِ والأحزانِ والأشواقِ هي نفسه.

وشخصيّتنا، وهي أقْرب الأقْربِين وأَوْلىٰ النّاس بمعروف التغيير، وهي أثمن الأمانات التي وُكِّلنا بحفظها وبرِّها ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾[1]. وهي كذلك المخلوق عظيم القدْر الذي أقسم اللهُ به ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ ﴾[2] وحثَّ علىٰ تزكيته والعناية القصوىٰ به ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾[3]، والباب المُشرَع علىٰ الحَقّ والمِرآة التىٰ نرىٰ فيها الآيات ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾[4]، وهي أيضا مَن تُساءَل وتُحاسَب ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ ﴾[5]. أضِف إلىٰ ذلك أنّها العُمق الواجب علينا تغييره أوّلا قبل السطح الذي قد يتغيّر تلقائيا بتغيير العُمق، وأنّها في مضمار الحياة الفاعلُ واللاعبُ، أمّا العالَم مِن حولِنا فهو حياديّ في تكوينه؛ بمعنىٰ أنّه خاضع للتشكيل وقابل للتغيير وينتظر مِن الإنسان المُستخلَف أن يَفعل فيه ويُدبّر به ويُغيّر له...وما أجمل مقولة جلال الدين الرومي: "بالأمس كنتُ ذكيا فأردتُ أن أغيّر العالم، واليوم أنا حكيم؛ لذلك سأغيّر نفسي".

---

(1) البقرة 44.

(2) الشمس 7.

(3) المائدة 105.

(4) فصلت 53.

(5) المدثر 38.

زِد علىٰ ذلك أنّ النفسَ التي نحملها بين جنبيْنا، وتُعبِّر عن الكُلّ المُركَّب مِن الجينات والمَعارِف (النقلية منها والعقلية) والتجارب والبيئة؛ هي أهمّ أداة نملكها، وإن لم نستطع تغيير ما نملكه فنحن أعجز عن أن نغيِّر ما لا نملِكه. كما أنّها تُمثّل بؤرة اهتمامنا وتأثيرنا، ممّا يوفّر لها فرصا أفضل لنجاح عملية التغيير، بعكس سواها الذي قد يقع في دائرة الاهتمام ولكنّه خارج دائرة التأثير. علاوة علىٰ أنها البنيةُ التحتيّة لهذا العالَم، ونواتُه التي تَتمحْور حولها بقيّةُ المخلوقات، وبالتالي تُهيِّء لنا المَدخَل الذي ندلف منه إلىٰ تغيير الخارج والأخْذ بيد الآخَر؛ علىٰ اعتبار أنّ فاقد الشيء لا يعطيه، وأنَّ كلَّ إناء ينضح بما فيه، وأنَّ مَن أَصلح نفسه كان علىٰ إصلاح غيْره أقْدر...أضِف إلىٰ ذلك أنَّ هذا النهْج (أي إصلاح الداخل أوّلا) هو ما اتَّفق عليه العقلُ والنقْل، ووَصَّىٰ به السلَفُ قبل الخلَف، وتَمحْوَر حوله التنْمَوِيُّون والمُصلِحون، وقال فيه الشاعر:

ابْـدأ بنفـسِك فانْهـا عـن غَيِّهـا ... فـإذا انْتهـتْ عنـه فأنـتَ حكـيمُ

ولهذا كلّه -وأكثر- يَتحتَّم علينا ممارسة الاستبطان الذاتي؛ الذي يَهدف إلىٰ قراءة النفس ومعرفتها قبل الهمّ بتغييرها وتزكيتها، ويَروم سبْر أغوار ماهيَّتها (مَن أنا؟) وعَجْم عُود وظيفتها (لِمَ أنا؟)، وذلك قبل الإقدام علىٰ تجديد ما تَهدَّم بها وترميم ما بلِي منها ومحْو ما فسد فيها

سواء كان أقوالا أو أفعالا أو نيات، وسواء اختص بالمظهر الذي هو الجسد أو الجوهر الذي يُمثله الفكر والوجدان؛ إذْ إنَّ الله -علىٰ حدّ قول بعضهم- قد صنع لكلِّ إنسان قالبا خلَقه فيه ثمّ كسره، فكان في الناس مَن غاصتْ نفسُه في الوحل وصارت أمّارةً بالسوء ومَن اهتدَتْ وباتت مطمئنة ومَن تَأرجَحَت بين هذه وتلك وكانت لوّامة، وكان مِنها مَن لم تخلُ كنانتُها مِن نقاط ضعف وجَب تقويتها ومراكز قوّة يحسن استنفارها واستثمارها وملكات وقُدرات ينبغي تنميتها وأفكار ومشاعر سلبيّة حان وقت مزايلتها وطلاقها، وكان مِنها مَن اكتسَتْ واصطبغَتْ بأحد الأنماط الثلاثة التي تعارَف عليها خبراء التطوير الذاتي فكانت شخصيّة سمْعيّةً أو بصريّةً أو حِسيّةً، وهو ما يُؤخَذ كلُّه في الحسبان والتقدير عند رسم خطّة التغيير وخوض نزال المواجهة، وذلك إعمالا للقاعدة التي تقول: "الحُكْم علىٰ الشيء فرْع عن تصوّره".

ولهذا نجد أنَّ مشاريعَ التغيير التي لم يُحالفها التوفيق ولم يُكتَب لها النجاح، راجعٌ بالأساس إلىٰ أنَّ نهجَ التغيير فيها كان سطحيا دون العُمق، وشكليّا لا يمسّ الجوهر؛ فكانت تجميلا لا تغييرا، وطلاءً لحائطٍ لا بناءً لِجدار. أو أنّ الحلول التغييرية فيها كانت مستوردة ودخيلة؛ فلم تنبع مِن الداخل، ولم تلائم طموحاتها وآمالها التي تختلف من فرد إلىٰ فرد ومن

جماعة إلىٰ جماعة، فكانت أقرب إلىٰ شعر مستعار علىٰ رأس ورمال متحركة علىٰ شاطئ. أو أنّ التغيير كان قفْزا لا تدرّج فيه، وكان انقلابا لا حكمة له ولا ضَمانة لاستمراريته.

هذا ويتطلَّب ذلك التغيير وتلك المواجهة -ضمن مُتطلَّبات أخرىٰ عديدة- استحضار قانون الجذْب الذي يُبشِّر بأنّ التركيز علىٰ شيء ما كفيلٌ بنيْله والحصول عليه، واستيعاب قانون السذاجة الذي يحثّ علىٰ تغيير الوسائل بغْية تغيير النتائج، ونسْف ما يُسمِّيه بعضهم بقانون نيوتن النفسي (الجسم الساكن يبقىٰ ساكنا، والجسم المتحرِّك يبقىٰ متحركا، ما لم تؤثّر عليه قوة تغيّر مِن حالته) الذي يؤصِّل للقصور الذاتي ويَدعو للعطالة ويَركَن للآبائيّة "إنّا وجدْنا آباءَنا علىٰ أمة"، مع تطبيق تطبيق قاعدة التخْلية (التفريغ) والتحْلية (الشّحْن)، والفطام مِن نظرية المؤامرة والإسقاط وإلقاء اللوم علىٰ الآخَرين، وسلوك نهْج التدرّج الذي اتَّبعه الشرْع في تحريم الربا والخمر وتشريع الجهاد ووصّىٰ[1] به النبيُّ ﷺ داعيةَ اليمن الأوّل سيدّنا معاذ بن جبل، إضافة إلىٰ صبْغ الرؤية التغييريّة

(1) "إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أنّ الله افترض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم..."

بالوضوح وتَوفُّر الإرادة علىٰ إدارة واقْتران الرغبة بالقُدرة، مع امتلاك جذْوة الولَع وركوب صهْوة الشغَف وشحن بطارية الطاقة وملْأ خزان الوقود، والتّأسِّي بتجارب الآخَرين وحصْد ثمار السابقين، علىٰ اعتبار أنّ آليّات النجاح ملكيّة عامّة بينما ثمارها ونتائجها ملكيّة خاصة لا يُنازَع فيها صاحبُها ولا يُقاسَم...وقبل هذا وذاك، لا بدّ من التوكّل علىٰ الله وطلب عونه ومدده، فهو سبحانه وليّ كلّ توفيق ومُسدِّد كلّ تغيير.

ويا حبَّذا لو حلَّقت تلك الإرادةُ في سماء الخيال وعوالم الحُلم؛ ففي الوقت الذي تكتفي فيه الإرادةُ بالركْض فإنَّ الخيال يقفز، وفي الوقت الذي تحوم فيه الإرادةُ فوق الواقع فإنَّ الخيالَ يَستشرِف المستقبل، وفي الوقت الذي تُعتَبر فيه الإرادةُ فِعلا آنيًّا وموردا ناضبا وقرارا نهائيا فإنَّ الخيالَ وقودٌ دائم وموردٌ متجدِّد ونهرٌ جار...وبهذا كان الخيال لدىٰ الخبراء النفسيّين مِن أساسيات الإبداع، ودعائم التغيير، وركائز ردم الهوّة بيْن ما نستطيعه وما لا نستطيعه.

ولأنّنا في سباق محموم مع العوْلمة المتوحِّشة التي أخذَت بخناقنا وطوّقتْنا مِن كلّ حدب وصوب، حتىٰ لنحسّ حرَّ أنفاسها ونطالع بروز أنيابها؛ فإنَّ علينا الطرْق بمطرقة "الآن" والضغط علىٰ زرّ "هُنا"، فالأمْر جدّ لا هزْل فيه والخطر داهِم لا هوادة معه، ومَن لم يتغيَّر كما يُريد غُيِّر

علىٰ غيْر ما يُريد، ومَن لم يَحكّ جلدَه بأظفاره فيشفىٰ حُكَّ جلدُه بمخالب تَجرح وتُدمِي، ومَن لم يُحصِّن نفسَه بصادق الإيمان ونافع العِلم بات حقلَ تجارب يَعبث به كلُّ مغرِض ومنافِق وصار أغْفل مَن تدور عليه الدوائر...وقد أجاد مجدي الهلالي حين عبَّر في كتابه (كيف نغيّر ما بأنفسنا) عن مجالات التغيير وغاياته فقال: "التغيير المنشود لابد أن يشمل العقل والقلب والنفس، وأن يظهر أثره علىٰ السلوك، وتكون نتيجته ظهور المسلم الصالِح المصلِح الذي تتأسّس عليه الأسرة المسلمة فالمجتمع المسلم"، كما أعْذَرَ ربِّي -سبحانه- إذْ أنذَر فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد:11][1].

ومن المفارقات أن هنالك ثلاثة كتب صدرت تحت عنوان (حتىٰ يغيروا ما بأنفسهم)، إحداها للمفكّر السوري جودت سعيد، وآخر للداعية المصري عمرو خالد، وثالث للسعودي عواد الزايد، وبالطبع لم يغفل هؤلاء أنّ كتبا صدرت قبلهم تحت العنوان ذاته، ولم يكونوا من

(1) يقول (جودت سعيد) بأن القاعدة الموجودة في هذه الآية تشمل كلّ البشر أجناسا وأديانا، ويدلّل على ذلك بعدم تخصيص كلمة قوم وبورودها نكرة، كما يقول بأنّها قاعدة اجتماعية لا فردية، ودنيوية لا أُخْروية، وأنّ القاعدة أو السُنَّة لا تكون كذلك إلّا لو كانت عامّة، ويؤكّد على أن التغيير النهائي يكون بيد الله سبحانه لأنّه هو وحده خالق النتائج.

هواة التكرار الذي يعيد إنتاج ما فات ويفتقر إلىٰ مقوّمات التأليف الجاد، ولكنه إن دلّ علىٰ شيء فإنّما يدلّ علىٰ الأهمية القصوىٰ لموضوع تغيير الأنفس، ويؤشّر علىٰ مدىٰ حاجتنا الملحّة لهكذا موضوع حتىٰ ليبدو جديرا بالتناول في كلّ صقع وبكلّ قلم.

2- عِلمُ السُّنَن

للهِ في كوْنه سُنَنٌ لا تَتبدّل، وله -سبحانه- في خلْقه قوانين لا تُثلَم، فهِمها مَن فهِمها فجَنىٰ يانِعَ الثمار وسار في الحياة سيْر الراضي المُطمئِن، وجَهِلها مَن جَهِلها فعاش قلِقا مضطرِبا؛ يَحسب هذا الأمر صدفة فيَندُب حظَّه ويَضرب جبهتَه ويَنطَح صخرتَه ويَلكُم الهواءَ بقبضته، فيَظنّ تلك الحادثة خبْط عشواء ويواصل سيْرَه معوجّا لا يَلوِي علىٰ شيء؛ ويكأنَّ الحياةَ رمْيةً مِن غير رام، والإنسانَ مُنتَج رخيص بدون تعليمات تشغيل! وهو في ذلك أَتْيه مِن بني إسرائيل، وأَشقَىٰ مِن قاتل ناقة صالح، وأخْسر ممَّن ضلّ ويَحسب أنّه للحُسْن صانِع وللهُدَىٰ سالِك: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾[1].

(1) الكهف 103، 104.

والسُّنن جمع سُنّة، وهي الطريقة المُعبَّدة والسِّيرة المُتَّبَعة والمنهج المرسوم، وتَعني: "مجموعة القوانين التي سنّها اللهُ عزّ وجلّ لهذا الوجود، وأَخضع لها جميع مخلوقاتِه علىٰ اختلاف أنواعِها وتباين أجناسِها"، ومنها ما يتَعلَّق بالكون المادّي بدءا مِن أصغر ذرّة وصولا إلىٰ أكبر مجرّة؛ فيُلائم طبيعة الكون الصامتة الجامدة، ويُراعِي خصائصَه القهْرية التسخيريّة، ويَضمن له الانتظام في وظيفته والتناسق والتكامل فيما بين أجزائه. ومنها -أي السُّنن- ما اختصّ بالإنسان (وهي المَقصودة بالبحث هنا) فعنيَت بالطُّرُقُ المُتَّبَعة في معامَلة الله للبشر، بناء علىٰ سلوكهم وأفعالهم ومواقفهم مِن شرعِ الله وأنبيائِه، وما يترتَّب علىٰ ذلك مِن نتائج في الدنيا والآخرة.

ومِن رحمةِ الله بنا وحدَبه علينا، أنْ جَلَّىٰ لنا تلك السُّنن وأَظْهر لنا تلك القوانين، فجاءت علىٰ لسان الوحي في قرآنٍ يُتلَىٰ علىٰ مسامعِنا آناء الليل وأطراف النهار، وفي سُنّة قام علىٰ حفظها مُحدِّثون وقفوا لكلِّ دخيل بالمرصاد. ثمّ أَنطَق -سبحانه- لنا التاريخَ فحكاها مواقفَ وأحداث بيِّنات؛ حتىٰ تَراءتْ لأعيننا كالشمس في رائعة النهار، وبات البيانُ عيانا والخَبرُ مشاهدة، وذلك قبل أن يأتي العلماءُ والمفكِّرون؛ فيَستنبطوها واحدة تلو الأخرىٰ، ويَبسطوها في مؤلَّفات تُوضِّح ما غمض وتُظهِر ما دقّ

وتُفصِّل ما أُجمِل، حتىٰ لم يَبقَ لمُحاجِج حجّة ولا لسائل سؤالا ولا لِمُعتذِر عذْرا.

وهي مِن العدد بمكان؛ حتىٰ إنَّ الإمام محمد عبده دعا إلىٰ دراستها كعِلمٍ من العلوم وتدوينها كفنٍّ مِن الفنون، واقترح تسميتها بعِلم السُّنن أو عِلم السياسة الدينية، وقال إنَّها مِن أهمّ العلوم وأنفعها. وهي علىٰ كثرتها وتعقيدها؛ تبدو متآلفة متكامِلة! فلا تَعارُض بينها ولا تَناقُض ولا تَصادُم، وفي هذا دلالة علىٰ حِكمة القُدرة الإلهية وإبداع الصنْعة الربّانيّة.

وعلىٰ سبيل التمثيل لا الحصْر؛ الابتلاءَ سُنّة، والاختلافَ سنّة، والتدافُعَ سنّة، والاستدراجَ[1] سنّة، والاستبدالَ سنّة، وغير ذلك كثير، واقْرأ في ذلك ما سطّره الأفاضل عبد الكريم زيدان ومحمد سعيد رمضان البوطي ومحمد أحمد الغمراوي وحسن بن صالح الحميد، وغيرهم. وقبلهم، طالِع كتابَ الله الذي وصفه الشيخُ نبيل العوضي بأنّه أعظم كتاب يشرح السننَ الكونيّة ويُحلّل الأحداثَ الواقعيّة ويعطيك مؤشّرات يُمكِنكَ بها توقُّع ما يَحدث.

ولم يكن ذلك كذلك، إلّا لأنّه ما مِن سبيل سوىٰ تلك السُّنن والقوانين؛ لِتجيب علىٰ أسئلة الحيارَىٰ التائهين في دروب الحياة، وتخطّ

(1) سُئل ثابت البناني عن الاستدراج، فقال: "ذلك مكر الله بالعباد المُضيِّعِين".

طريق الفوز للطامحين في الفلاح، وترسم خريطة النصر لمَن قهرهم ظالمٌ تَجبَّر أو عدوّ طَغىٰ وبَغىٰ؛ يما يَعني أنّ الإلمامَ بها ضرورة ومعرفتَها جزء مِن الدِّين والتبصُّرَ بها أمان مِن الخطأ ووِجاء مِن العثار، وهو ما ذكره المفكِّر عبد الكريم بكّار في معرض حديثه عن بناء الأجيال فقال:

"معرفة سنن الله في الخلق؛ تُمكِّننا من إيجاد تنظيم شبه نهائي للمعرفة، وتُؤمِّن قاعدةً صلبة للفهم والتعامل مع مفردات الوجود، وتُساعدنا على تشكيل رؤى كُلِّية وبعيدة المدى، حتى إنَّ معرفةَ سُنّة واحدة تعدل آلاف المعلومات المتفرِّقة"...

ولِم لا، وفهْم الكُلِّيات واستيعابها مُقدَّم دوما علىٰ الإلمام بالجزئيّات، إذْ يُمكِّننا ذلك من بناء استراتيجيات النهضة والبناء، ويُجنِّبنا مزالق وعثرات أَوْدت بالأُمم والحضارات. ولنتذكّر أنّ ذا القرنيْن ما ملك المشرقيْن إلّا بما أفاء الله عليه من الفهم والاستيعاب لبعض تلك السنن، بل إنّ أينشتين ونيوتن وجاليليو وغيرهم من أساطين العلم لم يفعلوا أكثر من إزاحة الستار عن بعض سنن الله في كونه وقوانينه في مخلوقاته.

ومِن المؤسف حقّا، أنّ الغربَ –ويا لَلمفارَقة– أطول يدا وأسبق قَدما في التفاعل مع تلك السُّنن والأخْذ بها والعيْش في رحابها –وإن كان مِن منطلَق نفْعي لا مِن منطلَق إيماني–، وفي هذا سرّ تفوّقهم وتقدّمهم؛ علىٰ اعتبار اطّراد السُّنن كاطِّراد الشمس في مدارها والقمر في منازله. وهو ما رصدَه جُلُّ مَن ساقتْهم الأقدارُ للعيش في الغرب، فلمسوا بلسان الحال لا بلسان المقال تلك المقولة الشائعة: في الغربِ إسلامٌ بلا مسلمين. وذلك لِما ارْتأوه مِن روح الإسلام المتمثِّلة في العدل والإنصاف والحريّة والأمانة والصدق واحترام الحقوق وتقدير العِلم.

أضِف إلىٰ ذلك؛ أنّ استكشافَ سننِ الله في كونه وقوانينِه في خلْقه؛ دليل دامغ علىٰ وجود الله وطلاقة عِلمه وكمال قدرته، وحجّة علىٰ بطلان آلهة المَلاحِدة الثلاث: الطبيعة والصدفة والضرورة، وهو ما دحض به الإمام أبو حنيفة زعْمَ بعض ملاحدة جاؤوا يُجادلونه في وجود الله تعالىٰ، فقال لهم: دعوني أتفكّر فإني مشغول، قالوا بم؟ قال: قِيل لي: إنّ سفينة تمشي في البحر بغير قائد، ثمّ ترسو علىٰ الشاطئ بغير قائد، وتُحمِّل نفسها بالبضائع، وتُفرغ البضائع أيضا بنفسها، فقالوا له: هذا مستحيل!!فقال لهم: يا نوكىٰ–الأَنْوَك هو الأحمق–؛ إذا كنتم تنكرون هذا في سفينة بغير قائد، أيكون هذا في الكون علىٰ ما فيه من دقيق صنعٍ وإحكام خلْق.

ولأنَّ هذه السنن وتلك القوانين خاضعةٌ لإرادة الله العليا ومشيئته النافذة، فلا عجب أن يعطّلها سبحانه لحِكمة يعلمها؛ فخلْق سيدنا عيسىٰ عليه السلام جاء علىٰ غير سنّة الله في الخلْق حين وُلد مِن أنثىٰ دون ذكَر، وتَكلُّمه في المهْد كان علىٰ خلاف سنّة الله في نُطقٍ لا يَستوي عودُه قبل مضيّ شهور من الولادة، وقِس علىٰ ذلك معجزات كُثُر أيّد اللهُ بها أنبياءَه علىٰ مرّ الزمن. علىٰ أن لا يَعزُب عنّا أنّ هذا الاستثناء الضيّق المحدود؛ يُؤكّد قاعدةَ اطّراد السنن ولا ينفيها، ويُثْبت لها خاصيةَ الشمول دون أن يَنقضها. وفي هذا يقول فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي: "القوانين الإلهية ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، لأنّ الذي وضعها يعلم ما سيحدث في الكون كله حتىٰ قيام الساعة، فلا يفاجئه حدَث، ولا يواجه شيئا لم يكن في الحسبان، لأنَّ الله سبحانه عليمٌ محيط بكلّ شيء".

ورغم أنّ هؤلاء الأنبياء والرسل هم أكْرم خلق الله عليه، إذْ كانوا للدِّين مُبلِّغِين وللشرائع حامِلين؛ إلّا أنّهم كانوا أوّل مَن خضع لتلك السنن ومُستهلّ مَن جرىٰ عليهم قلمُها، فلم يَأتهم النصر مُمَدّدا تحت الظلّ ولا فورا عند أوّل دعاء ولا باردا عذبا كماء الفرات، بل أتىٰ بعد أن عظمت الأمور واذْلهمَّت الخطوب ونفد الجهد حتىٰ استيْأسوا وظَنّوا أنهم قد كُذِبوا، بما يعني أنَّها سنن ثابتة لا تتغير، ومُطَّردة لا تتخلَّف، وعامّة لا

تَستثْنِي، علاوة علىٰ أنها تتّسم بالحكمة والعدْل؛ فلا تُماثِل بين متفاوِتَيْن، ولا تُفاوِت بين متماثِلَيْن..

فلم يُنجِّ اللهُ خليلَه إبراهيم، إلَّا بعد جفاف حلقه -عليه السلام- في محاجاة قومه، وبعد إعمال ساعِدَه في دكّ أصنامهم، فكان أُمَّةً في الفِعل واحدا في الوجود. ولم يَملك نبيُّ الله يوسف مصر، ويُصبح آمرها وناهيها، إلّا بعد أن اصْطلَىٰ بمحنة الجُبّ واكْتوَىٰ بنِير الاسترقاق والفتْنة والسجن. كما لم تَقُمْ دولةُ الإسلام في المدينة؛ إلّا بعد أن أُدمِيت قدمُ الحبيبﷺ وكُسِرت أسنانُه وطُلِّقت بنتاه وحُوصِر في الشّعب وغُرِّب عن الأوطان، ثمّ تَحالَف عليه أهلُ الشِّرك والنفاق واليهود وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم ورموه بقوس واحد.

وهكذا أَطِل البحثَ وراء كلّ فوز أو نصر أو نجاح، بل وراء كل حركة في دولاب الحياة الإنسانية، فلن تجد أيًّا منها قد أتىٰ علىٰ طبق مِن فضة أو وعاء مِن ذهب، ولن تراه إلّا مُغضَّن الجبهة مَعروق الكفّ مَدْمِيّ النحْر.

والحقّ أنّ فلسفةَ السعي هي في جوهرها امتثالٌ لتلك السنن، وطاعةٌ لتلك القوانين، وتعظيم لصاحبهما جلّ وعلا. أمَّا النصر والفوز والنجاح المتحقَّق عقب السعي، فهو الجائزة التي تَعرِف طريقها إلينا ولا تُخطئ زمانَها ومكانَها، وهذا ممّا تقرّ به العيون وتَطمئن له الأفئدة وتَثْبُت به

الأقدام، فلا جزع ولا فزع، ولا حيرة ولا استعجال، ولا حوْجاء ولا لوْجاء، بل ثقة في الله وثبات.

وما يَجرِي هنا علىٰ الأفراد ينسحب هناك علىٰ الجماعات والأمم؛ فكما أنَّ الأسودَ ليست إلّا خرافا مهضومة والقصورَ ليست سوىٰ حجارة مصفوفة، فإنّ الجماعاتِ والأممَ[1] ليست سوىٰ أفراد تآلفَت وتكاتفَت في أرض وسماء وعيْش مشترَك. وبهذا إنْ فهمَت الأممُ وانسجمَت الجماعاتُ مع تلك السنن استقامَت ورشدَت، وإن أَعرضَت واستكبرَت كان العنَت والخُسران.

وبرغم ما يَبدو مِن قِدَم البحث في تلك السنن الكونية، حتىٰ لَيعتبر بعضُهم أنَّ الحديث فيها مع الألفية الثالثة هو اجترار للماضي ومضغ لمهضوم؛ فإنّ أوضاعَنا المحلّية والإقليميّة والدوليّة وما بها مِن نكوصٍ يَسُرُّ العدوّ وتَقهْقُرٍ يَسوء الحبيب وانتكاسةٍ لا تَخفَىٰ علىٰ كلِّ ذي لُبّ، والتي وصَفها أحدُهم بأنها ردّة حضارية ونكسة شموليّة وهزيمة نكراء؛ هو مِمَّا يَنسف هذا الظنّ، ويَجعل ذلك الحديث مِن قَبيل إتيان البيوت مِن

(1) تُعرَف الأمّةُ بأنَّها جماعة من الناس تجمعهم روابط تاريخية مشتركة؛ قد يكون فيها ما هو لُغوي أو ديني أو اقتصادي، ولهم أهداف مشتركة في العقيدة أو السياسة أو الاقتصاد، ، سواء كان ذلك الرابط الجامع تسخيرا أو اختيارا.

أبوابها، وإعادة الأمور إلىٰ نصابها، وافتكاكٍ مِن أزمة أوْجفت بخيْلِها ورَجِلِها.

وذلك علىٰ اعتبار أنَّ الإصلاحَ لا ينفكّ عن وجود المصلِحين ذوي الرأي الخمِير[1] السديد، وعن تَوفُّر الوسائلِ الكفيلة بالوصول، وأنَّ تلكَ السنن الإلهيّة هي الوسائل والجِسر الذي يَعبر فوقه المصلِحون إلىٰ المصلَحون، وهي ذاتها ما صَلح بها الأوّلون ولن يَصلح الآخِرون إلّا بها، وهي ما نجا بها السابقون ولن يَنجو إلّا بها اللاحِقون...

وصدق السميع العليم إذْ يقول:

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الأحزاب:62].

(1) الرأي؛ إمّا خمير صدر عن تأمّل وأناة فكان ناضجا سديدا، وإمّا فطير أُبدِي بلا رويّة ودون تمحيص فكان غير ناضج ولا سديد؛ وفيه قيل "خمير الرأي خير من فطيره"، وإمَّا دبير يأتي بعد أوانه ويجيء متأخرا بعد فوات الفرصة.

(3) فوق بعضٍ درجات

لِأنَّ تمامَ الفِطنة مُقدَّم علىٰ حُسْن الظنّ، ولأنّ الكَمالَ بعيدُ المَنال في حقِّ بني الإنسان، ولأنَّ مَن عرف شيئًا غابتْ عنه أشياء؛ فإنّني لا أصدِّق، وأدعوك ألّا تصدِّق مَن يَكيل لك المدح كيْلا ويَغرفه لك غرْفا؛ فيَصفك بأنّك نابغة عصرك أو أَوْحد زمانك أو فلْتة أيامك أو عظيم جيلك، أو ما هنالك مِن أوصافٍ ذات بريق يخلب اللبّ ويُضخِّم (الأنا)، وينضح بإطراء وملَق أَكَل علىٰ موائده الشعراء، ويفيض بثناء كاذب جُبِلت علىٰ حُبِّه النفوس وتَشنَّفتْ بسماعه الآذان..إذْ لا أَعرَف بالإنسانِ مِن نفسِه ولا أَخْبرَ به مِن ذاتِه، وما خَفِي كان أعْظم، وكان اللهُ بالسرِّ عليما.

فبينما نجد شخصا ما متفوِّقًا أو نابغةً أو جميلًا أو عظيمًا في جانب، فإنّه بالتأكيد يكون غير ذلك في جوانب أخرىٰ[1]، ونجد علىٰ الشاطئ

(1) في هذا المعنى يقول الرافعي: ما كلّ مَن يُحسن شيئًا يُحسن كلَّ شيء. كما ذكر الحافظ الذهبي في معرض حديثه عن علامة النحو واللغة سيبويه، أنه كان ينطلق في الكتابة كفرس الرهان ولكنه كان ذا حبسة في عباراته تعيقه عن الركض أو حتى المشي أثناء الكلام.

الآخَر مَن هو هو متفوّقٌ أو نابغةٌ أو جميلٌ أو عظيمٌ في تلك الجوانب الأخرىٰ، وتلك لَعَمْري قسمة إلاهيّة عادِلة وتدبير ربَّانيّ حكيم يَشدّ الإنسانَ للإنسان ويُسخِّر البشرَ للبشر؛ باحترامٍ لا احتقار فيه، وبتواضُعٍ لا كِبْر معه، وبتعاوُنٍ وتَرابُطٍ يقود مركب الحياة بأمان ويُدير دولابَها بحنكة واقتدار. ولِهذا عندما سمع أحدُ السلف رجلًا يدعو ويقول: اللهمّ لا تحوجني لأحدٍ مِن خلقك، قال له: ما هكذا يكون الدعاء! فإنَّ المرءَ لابد أن يحتاج لغيره، ولكن قلْ: اللهمّ لا تحوجني إلىٰ شرار خلقك.

ومِن هنا جاءت فلسفةُ الاختلاف الذي يُولِّد الاتّفاق؛ إذْ لولا اختلاف القدرات لَتعطَّلت عجلةُ الحياة واختلّ توازنها وما تكامَلَت فسيفساؤها، ولولا تفاوُت الحظوظ والأرزاق لَما جرَىٰ نهرُ التعارف، ولَأصبحنا جُزرا منعزلة تُنادِي ولا مُجيب و تَصيح بلا مُغيث وتَستغيث ولا مُصِيخ. فهنا ضعيفُ عقلٍ ولكنّه قويّ البدن، وهناك دميمُ وجهٍ ولكنّه ذَرِب اللسان، وهنالك قليلُ مالٍ ولكنّه كثير الولد، وبهذا يَحتاج هذا لذاك ويَحتاج ذاك لهذا، وتصبح الدنيا طريقا ذا حارتيْن وحَبْلا ذا طرَفيْن، وكأنّها رواية تَوزَّعَت فيها الأدوارُ بعناية، دون أن يَخطف أحدٌ نجوميّتها ودون أن يَبتلع أحدٌ كاميرتها، فما يَملكه هذا مِن براعة، يَمتلكها آخَر ولكن بصيغة أخرىٰ ومُسمًّىٰ آخَر، وبذلك تتساوىٰ الفرص وتَتوازن الكِفَف ويَتماثل

المجموع؛ فلا يَحتجّ أحدٌ علىٰ الله بضعف حظوظه وقلّة حيلته، كما حدث مع جمْعٍ من الفقراء اشتكوا إلىٰ الرسول ﷺ ضيق ذات اليد والعجز عن الإنفاق كما يَفعل الأغنياء، فدلَّهم ﷺ علىٰ التسبيح والتحميد والتهليل الذي يطيقونه فلا يُفوِّت عليهم الأجرَ ولا يَحرمهم المَثوبة.

ألَا ما أَشبهَ حياة البشَر بأعضاء الجسد، فهذه يدٌ تعمل وهذا عقلٌ يفكِّر، وهذه قدمٌ تسعىٰ وتلك عينٌ تبصر، وتيك أذنٌ تسمع وذاك جِلد يحسّ، ولا فضلَ في هذا لليد علىٰ الرِّجل ولا للعيْن علىٰ الأذن ولا للجِلد علىٰ العظم، إذْ ما يتفوّق فيه الجِلد يعجز عنه العظم وما تتقنه الأذن يستعصِي علىٰ العيْن، وقِس علىٰ ذلك الطبيب الماهر في علاج المرضَىٰ ولكنّه جاهلٌ في إصلاح الحذاء، والمهندس القدير في بناء الأبراج ولكنّه عاجزٌ أمام طلاء جدار، والمثقَّف الحاذق في المعارِف والعلوم ولكنّه تلميذٌ بين يدي الخباز والنجّار والحدّاد، بما يعني أنَّ كلَّ الأعمال شريفةٌ ورفيعةٌ مهما كان مُسمَّاها، وأنَّ الكلّ مُسخَّرٌ للكلّ والجميعَ خَدَمٌ للجميع، فلا يحيا الأميرُ بدون الخفير ولا يعيش المالِكُ في غياب الأجير. وفي هذا قال الشاعر الفرنسي جان دو لافونتين: الجبل لا يحتاج إلىٰ جبل بينما الإنسان يحتاج إلىٰ إنسان"، وقال حكيم الشِّعر العربي (أبو العلاء المعري):

النـاسُ للنـاسِ مِـن بَـدْوٍ وحاضِـرةٍ بعضٌ لبعضٍ وإن لم يَشعروا خَدَمُ

بل إنّ هذا المبدأ كما ينطبق عل الأفراد ينسحب علىٰ الأمم والحضارات، فلا تستطيع أمّة مهما بلغت مِن التقدّم وحازت مِن الوفْرة أن تعيش بمعزل عن العالَم، ولذا كان سلاح الحصار الذي يُفرض علىٰ بعضها سلاحًا فعّالًا تعجز عن مبارزته، وسيفًا بتّارًا لا تقوَىٰ علىٰ احتماله، بل سرعان ما ترضخ علىٰ وقْع ضرباته وتخرّ ساجدة تحت نزْف طعناته. فبعض الدول أفاء الله عليها بتربةٍ خصبة ومطرٍ غزير لِتزرع، وبعضها صحراء جرداء لا تزرع ولكن البترول يتفجّر مِن تحت أقدامها وعن أيمانها وشمائلها، وأخرىٰ لا تزرع ولا تملك بترولًا ولكنها تزخر بعقول بشريّة تَخترع آلات الزراعة وتُصنِّع حفّارات التنقيب عن البترول، ليتكامل الجميع جبْرًا أو اختيارًا في سبيل جريان نهر الحياة. وكذلك الحال في إحدىٰ وعشرين حضارة -حسب تعداد المؤرّخ الإنجليزي أرنولد توينبي- مثَّلت كلُّ واحدة منها قاعدةَ انطلاقٍ للأخرىٰ علىٰ قاعدة التأثير والتأثّر، ووفْق أطوار الأستاذيّة والتَّلْمذة؛ فالحضارات الشرقية القديمة في مصر والعراق والهند والصين وبلاد فارس خدَمت الحضارةَ الإغريقية، والحضارةُ الرومانية بنَت علىٰ الحضارةِ الإغريقية، ثمّ قبَست الحضارةُ الإسلامية مِن ذلك كلِّه، لتأتي الحضارةُ الغربية القائمة الآن وترث خلاصةَ العِلم والفكر والفنّ فيما سبقها مِن حضارات.

ولَطالما أَعجبَني تشبيه الوظائف التي يَتقلّدها البشرُ في خضمّ الحياة، بأكواب القهوة المَصفوفة علىٰ الطاولة، وبأواني الطعام المتناثرة علىٰ الخوان (بضم الخاء وكسرها)، وكما أنَّ قيمة الكُوب تكمن فيما يحتويه مِن القهوة، ونَفاسة الآنية تتوقّف علىٰ ما تختزنه مِن الطعام، فإنَّ الوظيفةَ لا تملك ميزةً في ذاتها ولا تُضيف المهنةُ قيمةً لصاحبها، بل هو بشمائله وصفاته يُعطيها القيمةَ التي تستحقّها ويُقلِّدها المكانةَ اللائقة بها، بمعنىٰ أنَّ المهمّ كيف تكون لا ما تكون، وبما يعني أنّ عاملًا بسيطا يُتقن مهنته لهو خيْر وأبقىٰ من أستاذ جامعي يقصِّر في عمله.

وهو المدلول نفسه الذي ساقه الأستاذ عمر عبيد حسنة في كتابه (كيف نتعامل مع القرآن)، حين قال:" تقسيم الناس إلىٰ طبقاتٍ هو مِن السُّنن التسخيريّة، ولا يدلّ علىٰ رضىٰ وسخطٍ من الله بقدر ما يدلّ علىٰ أنَّ اللهَ خلق الناسَ بمواهب متفاوتة، ومستحيلٌ أن تقوم شبكةُ العلاقات الاجتماعية بدون هذا التفاوت وبدون تلك الفوارق الفرديّة". كما ساقتْ الأمثالُ ذات المعنىٰ في لفظٍ موجَزٍ بليغٍ كعادتها، فقالت: "أنا أمير وأنت أمير فمَن إذنْ يَسوق الحَمير؟!"

وبهذا؛ فالبشر جميعا موظَّفون في مؤسّسة الحياة، ودرجاتهم المهنيّة والاجتماعيّة ما هي إلّا حلقات في سلسلة وتروس ضمن دائرة، يؤدِّي فيها

المرء ما وُكِل إليه مِن مهامّ، ويستمدّ قيمتَه مِمّا يُحسنه ويتقنه، دون أن يتمايز البشرُ إلىٰ سادةٍ وعبيد، ودون أن يمُنَّ إنسانٌ علىٰ إنسانٍ فيؤذيه، أو يَستغلّه فينتهكه ويَمتصّ دمَه...وهو ما زادَه ابن كثير توضيحًا في معرض تفسيره لقول الحقّ جلّ وعلا في سورة الأنعام: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾، فقال رحمه الله:

"أيْ فاوَتَ بينكم في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوئ، والمَناظِر والأشكال والألوان، ليختبركم في الذي أنعم به عليكم وامتحَنكم به، فيُسأل الغنيُّ عن الشكر والفقيرُ عن الصبر".

وبرغم ما في التسخير مِن سُنّة كوْنيّة عامّة، يَخدم فيها الجمادُ النبات، ويخدم النباتُ الحيوان، ثمّ يخدم الجمادُ والنباتُ والحيوانُ الإنسانَ علىٰ شرْط تمام الفهم الذي وضعه ابن تيمية حين قال: "إنَّ تَمامَ الفهمِ سبيلُ كَمال التسخير".. وعلىٰ الرغم من الحضّ علىٰ خدمة الإنسان لأخيه الإنسان ضمن علاقة تَبادُليّة تَكافُليّة؛ حتىٰ قِيل إنَّ سيّدَ القوم خادمُهم، وأميرَهم هو مَن يرعاهم ويقوم علىٰ شئونهم، والمؤمنَ الصادق يترقَّىٰ عند الله عزّ وجلّ بخدمة عباده...فلا زلتُ أذْكر احتداد أحد المرضىٰ

البسطاء علىٰ طبيبه المعالِج، وقوله له "إنك هنا لتخدمني"، وكيف احمرّ وجهُ الطبيب وانتفخت أوداجُه وعلا صوتُه وكأنه نارٌ ساكنةٌ أُلقِمت حطبا، رافضًا فكرة خدمة البشَر للبشَر وآخِذًا إيّاها علىٰ مَحمَل الإهانة ومعنىٰ الانتقاص، وغافلًا عن أنّ خيرَ الناس في الورىٰ رجلٌ تُقضَي علي يديه الحاجاتُ للناس!

بقي التنويه بأنَّ الوعي بسُنّة التسخير، يتجاوز حدود المعرفة المجرَّدة إلىٰ آفاق الإدراك المتضمِّن للفهم والتطبيق في المعاملات اليوميّة؛ فيؤكِّد علىٰ تعريف الإنسان بأنه كائنٌ اجتماعي يأبىٰ العيش في الفراغ ويأنف الوحدةَ والعزلة، ويُقرِّب إلىٰ واقعنا منهج الجسد الواحد الذي إذا اشتكىٰ منه عضوٌ تداعىٰ له سائر الجسد بالسهَر والحمّىٰ، ويُجسِّد أمام أعيننا نهج البنيان المؤمِن الذي يَشدّ بعضُه بعضا...وصدق ربُّنا العظيم إذْ يقول: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[الزخرف32] (1).

(1) تُجمِع القراءاتُ السّبعُ على قراءة سُخريّا (بضم السين) وهي مِن التسخير، وذلك بخلاف سِخريّا (بكسر السين) مِن السّخرية والاستهزاء.

(4) أَوْفوا الكيْل

يُحكىٰ أنّ رجلًا مات له كلبٌ عزيزٌ عليه، فدفنه في المقابر وسط الموتىٰ، ولمّا شكاه الناس ومَثُل بين يدي القاضي بتهمة دفن كلبٍ نجس في مقبرة للمسلمين، قال الرجل: لقد نفّذتُ وصيّة الكلب كما أملاها عليّ! فجُنّ جنون القاضي وأضاف إلىٰ التهمة الأولىٰ تهمة ثانية وهي الاستخفاف بعقل القاضي، إذْ كيف لكلبٍ أن يملي وصيّة؟! فأجاب الرجل: إنّ كلبي يا سيادة القاضي متعلِّم ومطّلع، حتىٰ أنه أوصىٰ لسيادتكم بألف دينار لِما علمه من نزاهة قضائكم وعدالة أحكامكم. فقال القاضي: رحم الله كلبكم وأحسن عزاءكم! ولمّا ثار الناس علىٰ القاضي وعجبوا من صنيعه، قال لهم: لقد عدتُ إلىٰ أصل الكلب وتأمّلتُ سيرته فوجدتُ أنه من نسل كلب أصحاب الكهف!

ويُحكىٰ أيضا أنَّ سائلًا استفتَىٰ شيخًا عن كلْبٍ بالَ علىٰ جدار، فأفْتاه الشيخُ بأنَّ طهارةَ الجدار لا تتمّ إلّا بهدْمه وإعادة بنائه سبع مرّات متتاليات! ولمَّا عقَّب السائلُ بأنَّ الجدارَ يَخصّ بيت الشيْخ، إذْ به يُخرِج

المكيالَ الثاني مِن جرابه، فيُغيِّر وجهة الفتيا ويُخفِّف مِن غلوائها ويقول: قليلًا مِن الماء يُطهِّره!

وكي لا نظلم الشيوخ ونُحمِّل الكلَّ جريرةَ البعض؛ وجب القولُ بأنّ شيخَ الأزهر (محمد المراغي)، وحينما طلب منه الملك فاروق إصدار فتوىٰ بعودة طليقته ناريمان إليه دون محلِّل، كال بمكيال واحد وقال: "المَراغِي لا يُحلِّل ما حَرّم الله". وكذلك فعل صاحب التحرير والتنوير (العلّامة الطاهر بن عاشور)، حين دعا الرئيسُ التونسي الحبيب بورقيبة العمّالَ إلىٰ الإفطار في رمضان بدعوىٰ زيادة الإنتاج! وطَلب مِن الشيخ أن يُفتِي في الإذاعة بما يُوافق هذيانه، لكن الشيخ صرّح في الإذاعة بما أمر الله به، فقرأ آية الصيام الواردة في سورة البقرة، ثمّ قال بعدها: "صدق اللهُ وكذب بورقيبة".

والمكيال في اللغة هو وعاءٌ من خشب أو حديد أو نحوهما ليُقاس به الحجم، علىٰ خلاف الميزان الذي يقيس الثقل، وهما-أي المكيال والميزان- في الحقيقة رمزان لإحقاق الحقّ وبسْط العدل، وآلتان لترسيخ قيَم الأمانة والنزاهة، ليس في البيع والشّراء فحسب، ولكن في كلِّ ما دقّ وعظم مِن مجالات الحياة المختلفة ماديّة كانت أَمْ معنويّة، وهذا ما دعا المحاكم إلىٰ اتخاذ الميزان شعارا لها. وفي بخْسهما-أي المكيال

والميزان- جاء النهْي والوعيد مِن قِبل النبيّ شعيب عليه السلام إلىٰ أهل مَدْين ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾[1]، في دلالة جَلِيّة علىٰ أنّ الدِّينَ شاملٌ للأصول والفروع، ويَتعدَّىٰ العبادات إلىٰ المعاملات. كما كان الويْل في حقِّ المُطفِّفين[2] الذين خصَّهم القرآن الكريم بسورة كانت أوّل ما نزل من القرآن بالمدينة ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾، إذْ كانوا إذا ابتاعوا اسْتوفُوا بكيْلٍ راجح، وإذا باعوا بخسوا المكيالَ والميزان الذي قال عنه ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ما نقص قومٌ المكيالَ والميزانَ إلّا قُطِع منهم الرزق. ولعلّ أشهر كيْل في التاريخ الإنساني كافّة، هو كيْل أدار به يوسف عليه السلام السبعَ العجاف باقتدار، ونجَّىٰ به أُمَّةً مِن الجوع والهلاك، وكان سببًا في لمّ شمل الأسرة اليعقوبيّة بمصر. أمّا أخطر الموازين قاطبة؛ فهو ما يُحاسَب بمقتضاه الإنسانُ علىٰ مثاقيل الذرّ يوم الدِّين، وعلىٰ أثره يُلقَىٰ بمَن ثقلت موازينُه وسط نعيم الجنان، ويُقذف بمَن خفَّت موازينُه في دركات النار وقعر الجحيم.

---

(1) هود 84.

(2) يقول الشيخ سلمان العودة في كتابه (زنزانة): سورة المطففين هي سورة الحرب على الإدمان؛ فالتطفيف ليس فعلا عابرا، بل هو إدمان سرقة الغني للقليل الطفيف مِن قوت الفقير بأنانية وجشع.

وبعد الإقرار بظلم الشيوخ الذين يقع عليهم الاختيار كأبطالٍ لهكذا نوادر يَكمن وراءَها ما هو أبْعد مِن الضحك والتبسُّم؛ فإنَّ الكيْلَ بمكياليْن وازدواجيّة المعايير، هو لسان تلك الطُّرفة وحال الواقعُ المعاش وأنين روحُ الحقيقة، خاصَّة بعدما تجاوَز الأمرُ الخفاءَ إلىٰ العلَن وتَعدَّىٰ الحياءَ إلىٰ السّفور، وبعدما تَخطّىٰ حدودَ الأفراد، فبات منهجًا لسياسات دول، وسلوكًا لحكوماتٍ دأبَتْ علىٰ أنْ تزِنَ لنفسِها بميزان من الذهب لا يتجاهل مثقال الذرَّة واعتادت أنْ تكيل لأهلِها بمكيال الوفْرة، بينما تزِنُ للآخَرين بميزان الهوىٰ وتكيل لهم بمكيال المصلحة الذي يَصنع القاسِطين (مِن قَسَط قُسوطا، وهو الجوْر والحيْف والظلم) علىٰ عيْنه، بينما يفقأ عيونَ المُقسِطين (مِن أَقْسَط قِسطا أي عدْلا) ويطعنهم في خاصرتِهم.

وبهذا، لم يكن تعنيف النبي صلىٰ الله عليه وسلم لحِبِّه وابن حِبِّه (أسامة بن زيد)، حال شفاعته لامرأة مخزومية سرقَتْ؛ إلّا رفْضًا لمنطق مُعوَجّ لا يَتورّع عن تقسيم البشَر إلىٰ طبقات، ثمّ يَمنح هذا ويَحرِم ذاك، ويُكرم هذه ويُهين تلك، ويَلثم هنا ويَنحر هناك. ولم يكن مُكْث الفاروق عمر سنتيْن وزيرًا للعدل في خلافة الصّدِّيق أبي بكر دون أن يفصل في مظلمة أو يحكم في خصومة؛ إلّا نتيجةً طبيعيّة لِمُجتمعٍ مؤمِن، يكيْل

بمكيال واحد لا يُفرِّق فيه بين النُخبة والعامّة، ولا بيْن الوزير والغفير، ولا بيْن الغنيّ والفقير. ولم يكن إسلام الرجل القبطيّ الذي حَكم له عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالاقتصاص مِن عمرو بن العاص وولده رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ إلّا إكبارًا لكيْل واحد لا يُحابِي؛ فيَجعل كرامةَ الجميع في كفّة واحدة لا كفّتيْن.

أمّا الكيْل المزدوج الذي يَعمد إلىٰ تجزئة حقيقة لا تتجزّأ أصلا، ويَستبدل التحيُّز بالحياد والعنصريّة بالمساواة؛ فليس إلّا خرْقًا واضحا لعدل سماوي يَرتدِىٰ معطف الإنصاف[1] ويَجعل مِن كلِّ الأطراف سواسيةً كأسنان المشط، دون محاباة لجِنس أو عرقٍ أو دِين، ودُون مراعاةٍ للجاه أو الثّراء. فضلا عن كوْن هذا الكيل المزدوج تجْسيدا للظُّلم، وهدْرًا للمنطِق، وبثًّا لثقافة النزاع والشِّقاق، وتقويضا للثقة، وتهديدا للسّلام الاجتماعي.

بكلّ أسىٰ وأسف أقول: ما أكثر الأمثلة التي تضع الهَوىٰ والبراجماتية عنوانا لها، مُنحِّيةً بذلك العقلَ والشرعَ عن مسرح الحياة، ومُفسِحة عرض

(1) عن قلة الإنصاف وأثره في العلاقات الإنسانية يقول(المتنبي):

"ولم تزل قلة الإنصاف قاطعة بين الرجال وإن كانوا ذوي رحِم"

الطريق لبهلواناتٍ لا تجيد غير الرقْص علىٰ الحبال، والتزلّج علىٰ مصائب وآلام أناس هُضِمت حقوقُهم ونُهشِت عظامُهم؛ فالواسطة والمحسوبية كيْل بمكياليْن، وتفضيل الأولاد علىٰ البنات كيْل بمكياليْن، وهضم ميراث اليتامىٰ والنساء والأطفال كيْل بمكياليْن، وتلبية مطْلب القريب دون البعيد كيْل بمكياليْن، ونقد الآخَر مع ادّعاء الكمال الذاتي كيْل بمكياليْن. والحاسِد الذي لا يُحبّ لغيرِه ما يحبّ لنفسه يكيل بمكياليْن، والأنانيّ الذي لا يريد غيرَه علىٰ القمّة يكيل بمكياليْن، والمُعتذِر الذي يتشدَّد في قبول الأعذار يكيْل بمكياليْن، والنّاقِد الذي يتصيّد المقابِح ويغضّ الطرْف عن المحاسِن يكيْل بمكياليْن.

ولم يكن ذلك كذلك، إلّا حين ضمرت أبسط المفاهيم التي تَأسّست عليها أخلاقياتُ التعامل، بعد أن صنعها العقلُ والنقلُ علىٰ عينه، وحفرها بخطوط بارزة فوق جبين البشرية؛ فالقاعدة الذهبية في أخلاقيات التعامل تقول: "عامِل الآخَرين كما تحبّ أن يعاملوك"، والقاعدة الفِضِّية تقول: "لا تُعامل الآخَرين بما لا تحبّ أن يُعاملوك به"، وقديما سُئل أحدُ تلامذة كونفوشيوس: هل هناك كلمة واحدة يمكن أن تكون بمثابة قاعدة لممارسة الحياة؟ فأجاب قائلا: "لا تَفرض علىٰ الآخَرين ما لا يمكنك أن تختاره لنفسك". وخيْر الكلام ما فاه به سيّد الأخلاق وخيْر الأنام بقوله: "لا يُؤمن أحدُكم حتىٰ يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه".

أمّا في السياسة الدولية؛ فلم يتورّع الغربُ عن إضافة حَشَفه إلىٰ سُوء كِيلته، حتىٰ صارت إساءته في حقّنا إساءتيْن وبليّته بليَّتيْن؛ فبينما أَلَحَّ إلىٰ حدَّ التهديد والوعيد، سعْيًا وراء انفصال تيمور الشرقية عن أندونيسيا وسلْخ جنوب السودان عن شماله، تراه يغلق النوافذ ويُحكِم الأبواب، أمام الأصوات الكاتالونية والباسكيّة الداعية للانفصال عن أسبانيا منذ منتصف القرن الماضي! ورغم امتلاك الكيان الصهيوني لسبعة مفاعلات نوويّة، فإنَّ المفاعل النوويّ العراقي لم يبلغ سنّ الفطام حتىٰ دُمِّر عن بَكرة أبيه قبل ثلاثة عقود علىٰ مرأىٰ ومسمع وعون ومباركة منه! علاوة علىٰ ما لقيته إيرانُ من حصار اقتصادي وسياسي؛ لمجرّد تفكيرها في امتلاك تكنولوجيا الطاقة النووية! ولعلّنا نذكر برنامج الرئيس الأمريكي ويلسون بنقاطه الأربع عشرة، والتي كانت أساسا لهدنة الحرب العالمية الأولىٰ (1914-1918م)، وضمّنها مبدأ الاعتراف بحقّ الشعوب[1] في تقرير مصيرها؛ ولكنّه وبعد بضعة أيام فقط تنكَّر لبرنامجه، وكال بمكيال ثان، فاعترف بالحماية الإنجليزية علىٰ مصر!.. وكأن الدّوْح حرامٌ علىٰ بلابلنا وحلالٌ للطير مِن كلّ جِنسهم.

---

(1) تفاعلت الشعوب المقهورة مع هذا الإعلان، إلى حد أن (الرافعي) وصف (ويلسون) بأنه روح الجبهة الإلهية في الحرب العظمى، ونظم فيه قصيدة من نيف وسبعين بيتا، نشرتها جريدة المقتطف!

وفي هذا قيل -ربّما علىٰ سبيل الطّرفة أيضا- أنَّ كلبًا هجم علىٰ أحد الأطفال في حديقة عامة بنيويورك، وبعدما اندفع شاب من بين المتفرّجين وأَبعد الكلبَ عن الطفل، اقترب مصوّرٌ صحفي وهنأ الشابَّ علىٰ شجاعته، وأخبره بأن جريدته ستنشر خبر هذه الحادثة في صفحتها الأولىٰ تحت عنوان (شاب نيويوركي ينقذ طفلًا من موت أكيد). فردّ عليه الشاب بدون تردّد: (ولكنّي لست مِن نيويورك)! قال الصحفي: (إذنْ سأجعل العنوان (بطلٌ أمريكي ينقذ طفلًا من الموت)، فاعترضه الشاب مرّة أخرىٰ ليقول: (ولكني لست أمريكيًا)! فسأله الصحفي بغضب عن أصله بعد أن نفذ صبره، فرد الشاب: (أنا شاب مسلم من باكستان)، ثمَّ كان أن ظهرت الجريدة في اليوم التالي وهي تحمل عنوانًا رئيسًا علىٰ صفحتها الأولىٰ يقول: إسلاميٌّ متشدِّد من باكستان يخنق كلبًا حتىٰ الموت في إحدىٰ حدائق نيويورك!

ومن جميل الاستطرادات في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾[1]؛ ما ذُكِر بأنّ أوّل الوزن وزْن الكلام، الذي هو حقيقة البيان، فإذا خُسِر؛ خُسِرت كلُّ الموازين بعده! بدءًا بموازين السياسة وما تتضمّنه من موازين الإدارة والاقتصاد، إلىٰ موازين التجارة

(1) الرحمن 9.

وسائر المصروفات المالية والاجتماعية، إلىٰ كلِّ طبائع العمران وتَجليّات الحضارة البشرية، إلىٰ كلِّ ما يمتدّ إليه ذلك من فقدان توازن الحياة الإنسانية والبيئية والكونية...فاللغة تَصنع الحياة أو تدمّرها، ومِن هنا كانت مسئولية الكلمة[1] في الإسلام جسيمة جدا"[2]

وإنْ شئتَ الزّبْدة فيما يخصّ الكيل والوزن؛ فاقرأ بقلْبك قبل عينك واصغِ بروحك قبل سمْعك، لِما رُوي أنّ الفضيل بن عياض- رحمه الله- رأى ولدَه وهو يمسح كفّة الميزان بطرف ثوبه، فسأله: لِم تفعل ذلك؟ فقال: حتى لا أَزِن للمسلمين غبار الطريق، فبكى الفضيلُ وقال: إنَّ عملك هذا يا بنيّ أفضل عندي من حجّتيْن وعشرين عُمرة!

(1) في قيمة الكلمة تقول (سلام خياط) في كتابها (اقرأ): "بالكلمة قامت أعمدةُ الخليقة وارتفعت السماوات، وراوغ إبليسُ آدمَ وحرّضه على العصيان، وراودَت امرأةُ العزيز يوسفَ، وتَوسّط الأنبياء والرسل بين الربِّ والإنسان، وشاغلَت شهرزادُ شهريارَ ألف ليلة فسجلَت أروع انتصار على وحشيّة الإنسان".

(2) فريد الأنصاري/مجالس القرآن.

(5) لا يَسْتَوون

قضىٰ الميزانُ الإلهي الذي لا يَأتيه الباطلُ مِن بين يديْه ولا مِن خلفه - فكان قضاء باتا مُبرَما وحُكما نافذا قاطعا- بأنّ الطيّب والخبيث، والأعمىٰ والبصير، والمُصلِح والمُسيء، والقاعدِين والمجاهدِين، والمُسلمِين والمجرمِين، والمؤمنِين والفاسقِين، هم عند الله لا يَستوون. وكذا كانت الظلمات والنّور، والظلّ والحَرور، والأحياء والأموات.. وكان الذين يَعلمون والذين لا يَعلمون ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

والعِلمُ هو لقْمةُ المعرفة التي تَسدّ جوْعةَ الشغف وتُشبع معدةَ الفضول وتُبحِر بنا صوْب ساحل الحقيقة؛ فتشفينا مِن سموم الأوهام وأدواء الجهالة، ومع أنَّه أوْضح مِن أن يُعرَّف؛ إذْ به نُعرِّف الأشياءَ ونَقيسها، فقد

(1) الزّمر 9.

جَرىٰ تعريفه لغويا بأنّه "إدراك الشيء علىٰ ما هو عليه إدراكا جازما"، ثمَّ جرىٰ تقسيمه إلىٰ عِلمٍ نقْلي[1] يَستمدّ مادّته مِن الوحْيَيْن الكريميْن القرآن والسنّة، وتندرج تحته علوم اللغة والتوحيد والتفسير والفقه والحديث وغيره. وعِلمٍ عقْلي؛ يتعامل مع الظواهر الماديّة، فيُحلّلها ويُفسّرها ويَستكشف مجاهلَها، ويَضمّ العلوم الأساسيّة كالرياضيات، والعلوم التطبيقية كالطبّ، والعلوم الإنسانية كالأدب وغيره. وعِلمٍ لَدُنِّي يَتخطّىٰ الظاهرَ إلىٰ الباطن والشهادةَ إلىٰ الغيب؛ فكان نورا وإلهاما مِن لدن علّام الغيوب، وجائزةً علىٰ صدق التوجّه وإخلاص العبوديّة؛ كحال العبد الصالح الخضر عليه السلام ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾[2]، وهو ما أشار إليه الإمام الغزالي في كتابه (المُنقِذ مِن الضلال) فقال: "إذا طَهر القلبُ مِن أدران المعاصي، وصقل بالطاعات، أشرقَت صفحتُه؛ فانعكس عليها من اللوح المحفوظ ما شاء الله أن يكون، وهذا هو العِلم المعروف بالعِلم اللدنِّي". ومعلوم أنّ العلمَ معرفة بالجوهر ونفاذ إلىٰ الغوْر، بينما

(1) في تصنيف آخَر، تنقسم العلوم الشرعية إلى ثلاثة أقسام؛ علوم الغايات؛ وهي الأصل وما سواها فرع، وتتضمّن التفسير والحديث والعقيدة والفقه. وعلوم الآلات؛ وهي سبب للوصول إلى علوم الغايات، وتتضمن أصول التفسير ومصطلح الحديث وأصول الفقه واللغة. والعلوم المُكمِّلات؛ وتتضمن التاريخ والأدب والتراجم وغيرها.

(2) الكهف65

المعرفة تقف عند سطح الأشياء وقشورها، بما يعني أنّ كلَّ عالم عارف وليس كلُّ عارف عالما.

وإذا كان لكلّ مقام مقال ولكلّ دولة رجال ولكلّ عُمْر ما يناسبه مِن عمل، فإنّ طلبَ العِلم لا يحدّه سِنّ ولا يحصره مكان، إذْ يَمتدّ مِن المَهد إلىٰ اللحد ومِن المحْبرة إلىٰ المقْبرة ومِن أمريكا إلىٰ الصين. وقد قدَّمه العقّادُ وفضَّله علىٰ البطولة؛ فوصف نابليون بأنّه مهرِّج إلىٰ جانب العالِم باستور، وعَدَّ الاسكندر المقدوني بهلوانا إلىٰ جانب العالِم أرشميدس، كما أبدع -وهو بديع- صاحبُ المقامات (بديع الزمان الهمذاني) في وصْف العِلم ورسْم الطريق لتحصيله فقال: "العلمُ زرعٌ لا يَزكو إلّا متىٰ صادف مِن الحَزم ثرىٰ طيّبا، ومِن التوفيق مطرا صيِّبا، ومِن الطبْع جوّا صافيا، ومِن الجهد روحا دائما، ومِن الصبر سُقيا نافعا. وهو غرضٌ لا يُصاب إلّا بافْتراش المَدَر[1]، واستناد الحجَر، وردّ الضجَر، وركوب الخطَر، وإدمان السهَر، واصطحاب السفَر، وكثرة النظَر، وإعمال الفكر".

ولأنَّ معرفةَ الله هي أوّل العِلم والتوحيدَ هو مُنتهاه؛ فإنّ كلَّ عِلم يَنأىٰ بك عن الله ليس بعِلم، وكلّ عالِم يُخاصم الدِّين ليس بعالِم، وكلّ مَن

(1) المَدَر كما ورد في المعجم؛ هو الطين اللزج المتماسِك، ويُقال أهل المدَر أي أهل الحضَر، بخلاف أهل الوبر وهم البدو الذين يسكنون الخيام.

يَطلب العِلم للعِلم فقط هو صاحب شهوة وطالب لذّة ليس إلّا، وكلّ عِلم لا يَقترن بعمل ليس بعِلم، وكلّ عِلم يَضرّ ولا ينفع ليس أيضا بعِلم. وعلىٰ هذا كان العالِم قصْرا وحصْرا هو مَن يَخشىٰ الله ويَخافه حتىٰ يَظهر أثر ذلك في خُلُقه وسلوكه وعمله، وكان العِلم بدون الدِّين كُساحا والدِّين بدون العِلم عَمىٰ علىٰ حدّ وصْف أينشتين، وما زال العِلمُ علىٰ فهْم السلَف والخلَف يَهتف بالعمل حتىٰ يُجيبه وإلّا ارْتحل. وما أعظم لغة الضاد حين نجد أنّ كلمةَ (العلم) تتطابق حرفيّا مع كلمة (العمل)، وغاية ما هنالك أنّ حرفَ اللام تَقدَّم في العِلم وتَأخّر في العمل، ولا يَخلو ذلك مِن دلا لة لها ما لها عند أولي النهىٰ وذوي الألباب.

والحقيقة أنَّ للعِلم فوائد اقتصادية وطبية ونفسية وروحية عديدة، حتىٰ عُدَّ هالِكا مَن ليس بعالِم أو متعلِّم، واعتبَره ابن تيمية[1] نصف الخيْر كلِّه؛ فهو لِلفقير مال ولِلغَنِيّ جمال ولِلعليل دواء ولِلحياة روح وللبدن أنفاس وللزمن سراج، وعليه مدار السعادة في الداريْن؛ إذْ بِه نَعرف عِلّة الخلْق وغايته، ومِن خلاله نُميّز الحقَّ عن الباطل والخيْرَ عن الشرّ والصالحَ مِن الطالح والغثَّ مِن السمين، وعلىٰ متْنه نسِير في الحياةِ سيْر البصير لا

(1) يقول (أبو العباس ابن تيمية) في كتابه (اقتضاء الطريق المستقيم): "الخير كلّه، أصله وفصله، منحصِر في العلم والإيمان"

الأعْمىٰ وسيْر الحيّ لا الميت وسيْر السعيد لا الشقيّ؛ فنَهدِي ونَهتدِي، ونَبني ونُعمِّر، ونَسود ونَقود. ويا حبّذا لو صار دليلنا في درب العلم؛ مقولة الإمام الغزالي في الإحياء: "ليكن قصد المتعلّم في الحال؛ تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة، وفي المآل؛ القرب من الله سبحانه، والترقِّي إلىٰ جوار الملأ الأعلىٰ من الملائكة المقرّبين. ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران". ثمّ هتفْنا مع الشاعر قائلين:

العِلـــــم يَبنـــــي بيوتـــــا لا عمـــــاد لهـــــا

والجهـــــل يُفنـــــي بيـــــوتَ العـــــزّ والكـــــرم"

وفضلا عن أنَّ العلمَ يُنمِّي المداركَ العقليّة، ويُربّي ملَكةَ النقد، ويَفتح آفاقَ الفكر، ويَصقل عُودَ الموهبة...فإنَّ الفائدة تَعظُم وتزداد في العِلم الموصول بالله نيّة واعتقادا وعملا؛ إذْ تُشعل تلك الصلةُ فتيلَ الروح، وتُقوِّي دعائمَ القلب، وتُرقِّق مشاعرَ النّفس، وتُؤسِّس للهويّة، وتَضبط إيقاع الحياة، وتَنأىٰ بنا عن الشرّ والفساد[1]. علاوة علىٰ أنّ العِلمَ يمنح صاحبَه ثقةً بالنفس، ووقاية مِن المرض، وقدرة علىٰ التواصل، ومَكانة

(1) يقول (ابن القيم) رحمه الله في كتابه (إعلام الموقِّعين): "إذا ظهر العِلم في بلد أو محِلَّة قَلَّ الشرُّ في أهلها، وإذا خفي العِلمُ هناك ظهر الشرُّ والفساد".

يُحسَد عليها: "لا حَسَد إلّا في اثنتيْن؛ رجل آتاه الله مالا فسلطه علىٰ هلكته في الحقّ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعلِّمها".

وقد عدَّد ابن القيم في كتابه (مفتاح دار السعادة) مائة وخمسين فائدة في فضل العِلم وشرفه، وجعله ستّ مراتب؛ تبدأ بحُسْن السؤال وحُسْن الإنصات ثمّ حُسْن الفهم والحفظ وتنتهي بتعليمه والعمل به، ثمّ قال فيه: "صفات الكمال كلّها ترجع إلىٰ العِلم والقدرة والإرادة، والإرادة مُفتقرة إلىٰ العِلم في ذاتها وحقيقتها، والقدرة لا تؤثّر إلّا بواسطة الإدارة، بينما العِلم لا يفتقر إلىٰ واحدة منها"، أمّا الحسَن البصْري فقد تَغزّل في جماله علىٰ طريقة الشعراء والعشّاق قائلا: "لو كان للعِلم صورة، لكانت صورته أحسن من صورة الشمس والقمر والنجوم والسماء". هذا مع الأخذ في الحسبان أنَّ العِلمَ ليس مجرّد اجترار المعلومات والمعارف ثمّ تكديسها في مخزن الذاكرة فحسب؛ وإنّما ترفده التجارب الإنسانية بعد الإمعان فيها وتحليلها تحليلا دقيقا، ثمّ التوصّل إلىٰ نتائج ملموسة لها قوّة التطبيق في الواقع المعاش.

ومِن هنا نفهم لماذا كان أوّل حروف الوحي اقرأ، ولماذا كان للقلم سورة، ولماذا كانت المعجزة الخالدة كتابا، ولماذا كان العلماءُ ورثةَ الأنبياء وأهْلَ خشية الله، ولماذا أَسجَد اللهُ الملائكة لآدم عليه السلام،

ولماذا وضعَت الملائكةُ أجنحتَها لطالب العِلم ورضيت بصنيعِه. كما نفقه لماذا رفع اللهُ الذين أوتوا العلمَ درجات، ولماذا فضَّل ذا القرْنيْن ومَكَّن له، ولماذا يَبقىٰ العِلمُ بينما يَفنىٰ المالُ وصاحبُ المال، ولماذا اقتسَم أولو العِلم شهادةَ التوحيد الأُولىٰ مع الملائكة، ولماذا مُلِّك طالوت مع أنّه لم يُؤتَ سعةً من المال، ولماذا لم يُرخِّص الله لنبيهﷺ في طلب الزيادة إلّا في العِلم، ولماذا كان العالِم أشدّ علىٰ الشيطان مِن ألْف عابد، ولماذا أوْصىٰ لقمانُ ابنَه قائلا: "يا بنيّ؛ جالِس العلماء وزاحِمْهم بركبتيْك، فإنَّ الله يُحيي القلوبَ بنور الحكمة كما يُحيي الأرضَ الميتة بوابل السماء"، وأخيرا وليس آخِرا لماذا كان مداد العلماء أثقل في الميزان من دماء الشهداء.

وغنيٌّ عن القول؛ أنّ قوّةَ المجتمعات رهْنٌ بقوة العِلم وضعفَها مرهونٌ بضعف سلطان العِلم فيها، ولا قوّة للعِلم ولا سلطان له إلّا بإنسان حُرّ كريم، وتعليم متطوِّر شامل، وتقدير للعِلم وإجلال للعلماء. وانظر في ذلك ما فعلتْه ماليزيا واليابان وكوريا الجنوبية وسنغافورة مِن قفزة هائلة؛ ترتكز علىٰ العِلم والتعليم، وتتكئ علىٰ الإنسان لا البنيان. وانْظر كذلك ما فعلتْه أمريكا حين سبقتْها روسيا في غزو الفضاء؛ وكيف أنها اعتبرت ذلك طعنا في شرفها العِلمي، فجيَّشت العلماءَ علىٰ خطّ النار وأوقدت

النارَ في الطاقات والقدرات، حتىٰ سبقَت روسيا بعد ذلك عشرات المرات. ثمّ عُد بالذاكرة إلىٰ الوراء؛ واقْرِن بين تاريخ الأندلس الزاهر وحركة العِلم فيه، وكذلك العصر العباسي الأوّل الذي عاش فيه العلمُ أيّاما مُوشّاة بالذهب وليالي مُرصَّعة بالماس.

وحَبّذا لو تَوقَّفنا عند همّةٍ للسّلَف عانقَت السحاب وسابقَت البرْق، فجعلتْ بعضَهم يَقطعون المفاوز ويَضربون أكبادَ الإبل شهورا، للظفر بحديث واحد لدىٰ صحابي أو تابعي. ثمّ عرجنا علىٰ المَوْسوعيِّين الأوائل المَبثوثة أخبارهم عبْر كتُب التراجم أمثال جابر بن حيان وابن سينا والبيروني، والذين لم يَكتفوا بالتبحُّر في عِلم واحد، بل اتّسعَت خُطاهم وخفقَت أجنحتُهم، فولَجَت للعِلم دروبا عدّة، وطرقَت له أبوابا شتّىٰ. واستنشقنا أخبار ابن بطوطة الذي جاب أربعين دولة علىٰ مدىٰ تسعة وعشرين عاما، قاطِعا خمسة وسبعين ألف ميل؛ ليترك لنا ثروة نفيسة مِن التأريخ للبلدان والأشخاص والأحداث في كتابه (تحفة الأنظار).

وحبَّذا أيضا لو أَلْمَمْنا بترجمة الإمام أحمد ابن حنبل الذي دأب علىٰ الركض في دروب بغداد، متنقّلا بين حلقة عِلم وأخرىٰ؛ ليؤسِّس فِقها استضاء به الأوّلون واستهدَىٰ به الآخِرون. أو بسيرة الإمام النووي الذي

طلَب العِلم متأخّرا في سن التاسعة عشرة، ولم يُعمَّر طويلا فتُوفِّي عن خمسة وأربعين عاما، ومع ذلك ترك مِن المؤلَّفات الكبيرة والمُطوّلات المَرجعيّة ما يَحار في تحريرها العُصْبة أُولي الأعمار. وكذلك الخليل بن أحمد الذي جال في السّوق، وربط بين أصوات المطارق في صبر وتؤدة؛ حتىٰ أنشأ بحور الشِّعر، وصاغ علم العَروض. وكذا سيبويه الأعجمي الفارسي الذي كان يلحن عند قراءته القرآن، ولكنّه درس اللغة وتَبحَّر في علومِها، حتىٰ أصبح فيها عَلَما خفّاقا، ووصل إلىٰ درجة الأستاذيّة. وأخيرا التابعي الجليل يحيىٰ ابن كثير الذي خطّ لنا الطريقَ إلىٰ العِلم، ووضعَنا علىٰ جادّته، ونبَّهنا إلىٰ كُلْفته، فقال: "لا يُنال العِلمُ براحة الجسم".

وبرغم أنّ العِلمَ في الألفيّة الثالثة قد شَرّق وغَرّب في البرّ، وحَلَّق وطار في الجوّ، وغاص وتَعمّق في البحر؛ حتىٰ أَنتَج لنا مِن مظاهر المدنيّة والحضارة ما يَخلب اللبّ ويُدير الرأس ويُدهش الأجنّة في الأرحام؛ فإنّ ذلك كلّه ليس إلّا قطرة في بحر وغيْضا مِن فيْض وغُصنا في دوْحةِ عِلم الله الواسع والأزلي ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[1]. ولكي ندرك نسبة عِلمنا

(1) الإسراء 85.

المحدود إلىٰ عِلم الله اللامحدود؛ ما علينا إلّا المقارنة بين اتّساع حدقة العيْن واتّساع صفحة السماء، بما يَعني أنّه لا مجال للتّنطُّع أو التكبُّر والغرور، مهما انتفخَت أوداجُ عقولنا وأُتخِمت معدةُ عِلْمنا، ولنذْكر أنَّ كُفر إبليس لم يكن تكذيبا أو إنكارا وجحودا، بل كان إباء واستكبارا. وفي هذا ذَكر صاحب الإحياء (الغزالي) أنَّ العِلمَ ثلاثةُ أشبار؛ مَن نال الشّبرَ الأول تَكبّر، ومَن نال الشّبر[1] الثاني تَواضع، ومَن نال الشّبر الثالث أيْقن أنه لا يَعلم شيئا...وصدَق ربِّي إذْ يقول: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾[2].

ولعلَّ في ذلك إشارة بليغة إلىٰ أنّ العِلمَ لا يَنفكّ عن كريم الشمائل، ولا ينفصل عن حميد الأخلاق، وإلّا ذهب أدراجَ الرياح، وكان كمطرٍ في أرض سبْخَة ومِرآةٍ قُبالة أعمىٰ، وكان كما قال الشاعر حافظ إبراهيم في قصيدته عن العِلم والأخلاق:

والعِلـم إن لـم تَكتنفْـه شـمائلٌ ... تُعْلِيـه كـان مَطيّـةَ الإخفـاق

(1) الشِّبرُ هو ما بيْن طرفي الخِنصر والإبهام مُمتدّين بالتفريج المعتاد، وهو وحدة قياس طولية تساوي 20سم تقريبا مع تفاوت حسب ضخامة صاحب الشِّبر.

(2) يوسف 76.

لا تَحسبنَّ العلمَ يَنفع وحده ... مالمْ يُتوَّج ربُّه بخَلاق

وهنا وجب الحذر من أقوام يَدّعون العِلْم؛ فكانوا أهلَ الكذب لا أهلَ الذِّكر، وأعداءَ العِلم لا دُعاتَه، وذلك حين أَضلُّوا النّاس بأهوائهم بغير عِلم، وكانوا بين فضيحتيْن كما قال ابن المقفع في رسالته (الأدب الكبير):

"لا تُكثرنّ ادّعاءَ العِلم في كلّ ما يعرض بينك وبين أصحابك، فإنّك مِن ذلك بيْن فضيحتيْن: إمّا أن ينازعوك فيما ادَّعيت؛ فيُهجَم منك على الجَهالة والصَّلف، وإمّا لا يُنازعوك ويُخلُّوا في يديك ما ادّعيت من الأمور؛ فينكشف منك التّصنُّع والمَعْجَزة".

وقد سُئل الإمام الشّعبي عن مسألة، فقال: لا أدري، فقِيل له: ألَا تَستحي مِن قولك لا أدري وأنت فقيه العِراقَيْن؟ فقال: ولِمَ أَستحِ ممَّا لم تَستحِ منه الملائكةُ إذْ قالتْ: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾[1].

(1) البقرة 32.

(6) ولا تُسرِفوا

"بالنّقود نستطيع إظهار أفضل ما فينا".. هكذا قال الكاتبُ التركي الساخر (عزيز نيسين) المُلَقَّب بموليير الأدب التركي. والمَعنَىٰ أنَّنا بامتلاكنا النقود، نمتلك الوقود اللازم للتعبير عن صفاتنا الفاضلة الكامنة، والتي تندرج تحت مظلّة الوفاء والاحترام وتنتمي لعائلة الحُبّ والجُود، وذلك حين تُسعفنا حافظةُ نقودنا؛ فنشتري هديّة لصديق أو نرتِّب مائدة لضيف أو نمدّ يد العون لجار، أو نُواسي مريضا ونُساعد مُحتاجا ونُقيل عثْرة مَدِين...ولكن للعملة دوما وجْهين..

فذات يومٍ مِن العام الفائت (2016م)، طارتْ الصحفُ بخبرٍ عن مزادٍ علنيّ أُقِيم في لندن، لبيع مقتنياتٍ شخصيَّةٍ للمرأة الحديدية التي تربَّعت علىٰ العرش البريطاني في ثمانينيات القرن الماضي، وكان مِن بين تلك المقتنيات فستان زفافها الأزرق المخمليّ الذي حلَّت به عروسا لرجل الأعمال دينيس تاتشر، وذلك في رحاب كنيسة ويسلي عام 1951م، وكان

أَن قدَّرت إدارةُ المزاد ثمنا للفستان يتراوح بين 15 و 20 ألف دولار، ولكنّ الكرم العربي الخليجي أبَىٰ إلا أنْ يُحلِّق عاليًا في سماء المزاد، فكان أن اشتراه أحدُ رجال الأعمال الخليجيين بمبلغ 37 ألف دولار...وهكذا بالنقود أظهرْنا أسْوأ ما فينا!

فكم مِن جائع في الصومال كان يمكن إطعامه، وكم مِن عارٍ في موريتانيا كان يمكن كساؤه، وكم مِن مُشَرَّد في بورما كان يمكن إيواؤه، وكم مِن يتيم في سورية كان يمكن كفالته، وكم مِن مريض في السودان كان يمكن علاجه، وكم من فقير في اليمن كان يمكن إعالته، وكم مِن مَكلوم في أفغانستان كان يمكن مواساته؟! بل وكم من مَدين للبنوك في عقر دول الخليج كان يمكن فكّ أسره وسداد دينه بتلك الآلاف من الدولارات التي تبخّرت في غمضة عين مِنْ يَد مَنْ لا يَفقه إلىٰ جيْب مَنْ لا يستحقّ؟!

لا شكّ أنّ المالَ عصب الحياة الماديّة؛ إذْ به تُنال الحقوقُ، وتُؤدَّىٰ الواجبات، ويَخضرُّ العيْش؛ وذلك علىٰ رأي الثعالبي الذي قال: "مَن مَلك الصُّفْرَ -أي النقود- احْمرَّ لونُه واخْضرَّ عيشُه". وهو كذلك عماد الحياة الاجتماعيّة؛ إذْ به يَتكافل الناسُ، ويُسخِّر بعضُهم بعضا في التجارة والأعمال. وهو شطْر دورة الإنتاج في الفكر الاقتصادي، بينما يحمل العملُ عبء شطرها الثاني. وهو كذلك محلّ الابتلاء وموضع الفتنة

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[1]، وعليه مدار الفوز والسّعادة أو الشّقاء والخُسران، باعتباره ثالث أقوىٰ شهوات الإنسان، بعد شهوتَي البطن والفرْج.

وقد قِيل لحكيم: "لِمَ تجمع المالَ وأنتَ حكيم؟ فأجاب: لِأصون به العِرْض، وأؤدِّي به الفرْض، وأستغني به عن القرْض"، كما ورد في المثل المشهور قولهم: "الدراهم مراهِم".

وبناء علىٰ تلك الفوائد مجتمعة، وجَب كسْبُ المال مِن حِلّ، والسعْي الدّؤوب إلىٰ الغِنىٰ المَشروع، والاستعانة علىٰ ذلك بتقوىٰ ما تركَت بابًا للخير إلَّا فتحتْه، واستغفار يَستمطر الخيْرات، وشكر يُديم النِّعَم، وزكاة تفيض بالبركات، وصلة رحِم تُضاعف الأرزاق.

كما وجَب الإنفاق بعَقْلٍ[2] وبصيرة، دون بُخلٍ وشحّ، وكذلك دون سَرَفٍ وتبذير؛ فالبُخل رذيلة والإسراف نقيصة والتبذير جريمة ﴿وَلَا تُبَذِّرْ

(1) آل عمران 186.

(2) في ذلك قال الشاعر:

فإذا كنتَ ذا مالٍ ولم تكُ عاقِلًا ... فأنتَ كذي نعلٍ وليس لها رِجلُ

تَبۡذِيرًا ٢٦ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾[1]، والإنسان-كما قِيل- قد يُعطَىٰ رزقَ شهرٍ في يوم؛ فإنْ أَسْرف في يومه هذا وبذَّر عانىٰ مِن البلاء شهرا، أمَّا إنْ دبّر واحتاط عاش شهرَه طيِّب النفس هانئ العيْش. والاقتصاد-كما أُثِر- نصف المَعيشة...

وقد رُوِي أنّ رجلًا قال لأحد الصالحين حين زوَّجه ابنتَه: ما نفقتك؟ فقال له: الحسَنة بين السيِّئتيْن، ثمّ تلا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ٦٧﴾[2]، وهي الآية التي فسّرها ابن عباس بقوله: "المؤمنون لا يُسرفون فينفقوا في معصية الله، ولا يَقتُرون فيمنعوا حقوقَ الله".

والمُسرِف هو مَن أنفق مالَه في المباحات ولكن فوق حدّ الاعتدال، وفيه وصف القرآنُ الكريم عبادَ الرحمن بأنَّهم كرماء لا يَقْتُرون ولا يُسرفون، ونهىٰ عن الإسراف في الزينة والمَطْعم والمَشْرب ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١﴾[3]، وحذّر مِن السَّرَف في القصاص ﴿وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا

---

(1) الإسراء 26-27.

(2) الفرقان 67.

(3) الأعراف 31.

لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿٣٣﴾ ﴾[1]؛ علىٰ اعتبار أنَّ الطعام[2] لِسدّ الجوع لا لِجلْب المرض، والشراب لِريّ الظمآن لا للتفنّن في الشراب، والثوب لستْر العورة لا للشُّهرة، والقتْل للقصاص لا للانتقام. كما نهَت السنَّة المطهَّرة عن الإسراف في ماء الوضوء، حتىٰ لو كان الوضوء مِن نهر يَجري فيه الماء ويَفيض؛ فثبت أنَّ النبي صلىٰ الله عليه وسلم كان يتوضأ بالمُدّ أي نصف اللتر من الماء، ويغتسل بالصاع أي اللتريْن مِن الماء، في إشارة إلىٰ ذمّ الإسراف مِن كلِّ وجه وفي كلِّ مجال صَغُر أم كَبُر. ولا ننسىٰ أنّ الشيء إذا زاد عن حدِّه انقلب إلىٰ ضدِّه، والبياض إذا كثُر صار برَصا.

وفي هذا، ذُكِر أنَّ سَمُرةَ بن جُنْدب سَأل عن ابنِه؛ فقِيل له: بَشِم البارحة؛ أي: اتَّخَم، فقال متعجِّبا مستنكِرا: بَشِم!، أمَا إنَّه لو مات ما صلَّيتُ عليه. كما ذُكر أنَّ إبراهيم بن المهدي استزار الخليفةَ هارون الرشيد يوما، فقدّم له علىٰ المائدة-ضمن ما قُدِّم- طبقا فيه قطع مِن سمك، فقال له الرشيد، لِمَ صغَّر طبّاخُك قطع السمك هكذا؟ فقال له: يا

---

(1) الإسراء 33.

(2) ذكرت إحدى الدراسات التي أُجرِيت في دولةٍ خليجية أنّ 45٪ من حجم القمامة هو مواد غذائية تالفة، كما ذكرت دراسة أخرى في دولة خليجية أخرى أن نصيب الفرد مِن النفايات الغذائية يوميا يبلغ 1060 جرام!!!

أمير المؤمنين هذه ألسنة سمك، فاستحلفه الرشيدُ أن يخبره عن ثمن هذه الألسنة، فقال له أكثر مِن ألف درهم، فرفع الرشيدُ يده وأبىٰ أن يأكل منها. وكذلك ذُكِر أنَّ الخليفةَ عمر بن عبد العزيز لَمَّا بايعه الناسُ خليفةً علىٰ مُلك امتدّ يومَها مِن الصين شرقا إلىٰ فرنسا غربا، ثمّ خرج لِينصرف، رأىٰ المواكبَ الضخمة في انتظاره، وفيها المراكب المُسرَجة بالذهب وعليها الألوية والشّارات، فقال: مالِي ولهذا؟! نَحُّوه عنِّي وقَرِّبوا إليّ بغلتي، وركب بغلتَه وقفل إلىٰ داره.

وبالمقابل، رُوِي أنَّ الصحابيَّ ثابت بن قيس نَذر أن يُطعم مِن بستانِه كلَّ إنسان، فلم تمضِ إلّا أيامٌ قلائل حتىٰ لم تَبقَ له ثمرةٌ يُطعم بها أهلَه؛ فنزل في ذلك قول الحقّ جلّ وعلا ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾ (1). كما نهىٰ النبيّ ﷺ سيدَنا سعد بن أبي وقاص -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عن التصدُّق بجميع ماله، ولم يُجِزْ إلّا الثّلث، مع قوله: "والثلث كثير".

أمّا المُبذِّر -كما قال ابن مسعود- فهو مَن أنفق مالَه في غيْر حقّ، بينما عَرَّفه قتادة بأنّه مَن أنفق في معصية الله تعالىٰ وفي الفساد وغيْر الحقّ، وهو

(1) الأنعام 141

عيْن ما ورَد في حاشية ابن عابدين حين قال: "الإسراف صرْف الشيء فيما ينبغي زائدًا علىٰ ما ينبغي، والتبذير صرْف الشيء فيما لا ينبغي"، وبهذا فإنَّ كلَّ مبذِّرٍ مُسرِف ولكن ليس كلُّ مسرِفٍ مبذّر. ولأنَّ العرب تقول لِكلِّ مَن لازم سُنَّة قومٍ وتابَع أثرَهم: هو أخوهم؛ فإنَّ المبذِّرين كانوا للشياطين إخوانا مِن جهة تَشابههم في كفران النعمة وجحودها؛ إذْ الشيطانُ جَحد فعَصىٰ واستكبر، وكذلك المبذِّرُ جحَد فأَسْرف وبَذّر.

والواقع أنَّ المُسرِفَ والمُبذِّرَ كلاهما علىٰ خطر عظيم، إذْ هما باغِيان مُعتدِيان مُجاوِزان لحدّ الاعتدال الذي رغَّب فيه الشرْع واستحْسنه العقل[1]، وبمَسلكهما يَكسران نفوس الفقراء ويَستفزّان مشاعرهم، مع ما يترتّب علىٰ ذلك مِن شحناء وعداوات، كما أنهما بصنيعها هذا يُلحقان بالمجتمع ضررا بالغا حين يَحرمانه مِن قوّة المال ويَستنزفان ثرواتِه وخيْراته التي تُدير حركةَ الحياة وتدفع عجلةَ الإنتاج والتقدّم، فضلا عن اقترابهما بذلك التبذير والإسراف مِن محرقة الترَف الذي يُهلك الأممَ ويُفني الحضارات ويُزيل النِّعَم ويُحِلّ النِّقَم ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا

(1) جاء في تفسير (المَنار) للشيخ (محمد رضا) قوله: "نصوص الكتاب والسنّة تُنافي إنفاق كلّ ما يملك المرء، وتأمر بالقصْد والاعتدال".

مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾[1]، علاوة علىٰ أنّهما بذلك النّهْج الأهْوج لا يَحسِبان للنوازل حسابَها ولا يُقدِّران للخطْو موضعها؛ فيهبِطان مِن سموّ اليد العليا إلىٰ مهبط اليد السّفلىٰ ويَسيران للفقْر بخُطىٰ حثيثة، مع ما يَجلبه ذلك مِن ويْلات ونكَبات؛ إذْ ما أصعب الفقر بعد الغِنىٰ والعُسْر بعد اليُسْر والكدَر بعد الصفاء. وليس بخافٍ ما يَجرّه الفقْرُ مِن ذِلّة واحتقار؛ إذْ تقول العرَب "مَن أَيْسَرَ أُكْبِر ومَن افْتقَر احْتُقِر".

والحقّ أنّ العرب البائدة والعاربة والمُستعرِبة[2] قد ظلمت (هبنَّقَة) حين ضرَبَتْ به المَثل في الحُمق، وجعلتْ منه رمزًا للسّفه، بعدما علَّق في رقبته قلادةً يتعرّف بها علىٰ نفسه؛ إذْ إنَّ حُمقَه لا يَتعدَّىٰ قطرة في بحر ولا نُقطة في كِتاب كثيرين هُم أحمق منه وأشدّ سفها...فما قيمة فستان تقادَمتْ عليه السنون ونالتْ منه العيون وتناقلتْه الأيدي، فقضىٰ نحبَه، ولم يَعُدْ سوىٰ قطعة قماشٍ نالها مِن العرَق ما نالها وأصابها مِن البِلَىٰ ما أصابها! وما البطولة في أن يقف ثريٌّ وسط ملهىٰ، ليرشّ المال فوق

(1) الإسراء 16.

(2) العرَب العارِبة هم عرب الجنوب القحطانيين، والعرَب المستعرِبة هم عرب الشمال العدنانيين، أمّا العرَب البائدة فهم الذين انقرضوا قبل التاريخ.

رؤوس الساقطين من المطربين والراقصات! هذا في الوقت الذي تنتفي هذه المظاهر الفارغة بين الغربيين علىٰ حدّ شهادة فدوىٰ طوقان بقولها: "وعيٌ استهلاكيٌّ عجيب يتمتّع به الانكليز. هذا ما لاحظتُه خلال إقامتي في إنكلترا؛ كلّ شيء مقدّر ومحسوب مهما قلّت قيمته الماديّة، وكلمة "تبذير" موجودة فقط في القاموس الانكليزي، أمّا عمليًّا فلا أثر لها في حياتهم. تقف المرأة الانكليزية بدكان البقالة لتطلب نصف خيارة، حبة دراق، حبة بندورة، ربع فرخة، فلا تشتري أكثر ممّا يكفيها".

إلىٰ الجهل يَنتسب الإسرافُ وإلىٰ الجهل المُركَّب يَنتسب التبذير؛ وذلك علىٰ رأي أبي الحسن الماوردي في كتابه (أدب الدنيا والدين) حين قال: "التبذير جهْل بمواقع الحقوق، والسّرَف جهْل بمقادير الحقوق"، ومِن رحِمهما –أي الإسراف والتبذير– المِعطاء تتوالد وتتناسل بقيّة الرذائل التي ما فتئت تنخر في جسد أُمَّتنا، طالما بقيتْ أموالُها في أيدي سفهائها، واستمرّ قرارُها بيد حَمْقاها، وكان فستان امرأة هو ما يُسيل لعابَها ويَفتح خزائنَها.

والحقيقة أنّنا لم نصل إلىٰ هذا الدَّرك الأسفل مِن قاع العقل؛ إلَّا بعد أن غاب عن سمائنا فقهُ ابن عباس وورعُ الفاروق وزهدُ ابن المبارَك، فأضْحتِ الغريزةُ هي الحاكمة والقائدة، وأصبح الاشتهاءُ هو المُسوِّغ

لكلِّ شراء، دون وازع مِن عقل يَمنعه أو دِين يَكبح جماحَه ويُلجمه...واقْرأ في ذلك ما رُوي أنَّ الفاروق عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسْتوقف ابنَه عبد الله -وقيل: جابر بن عبد الله- وسأله عن وجْهتِه؟ فقال: إلىٰ السوق، لِأشتري لحما اشْتهيتُه، فقال له الفاروق: أكلّما اشتهيْتَ اشتريْت! واقرأ كذلك ما رُوي أنَّ خليفةَ المسلمين عمر بن الخطاب حجّ مع غلام له، ثمّ سأله: كم أنفقنا في حجّنا؟ فقال الغلام: ثمانية عشر دينارا، فردّ الفاروق: ويحك، لقد أَجحفنا بيتَ مال المسلمين! وعرِّج إنْ شئتَ علىٰ الحديث الشريف الذي ورد في صحيح الإمام مسلم عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ النبيّ ﷺ قال: "فراشٌ للرجل، وفراشٌ لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان"...

رحِم اللهُ أموالًا نذرفها كالدّموع، ولا سقَىٰ الله إسرافًا وتبذيرًا يَسري في جسد بعض أثريائنا سريان النّار في الهشيم، وطيَّب الله فاهَ حكيم الشِّعر ومُتَنبِّيهِ إذْ يقول:

لكـــلِّ داءٍ دواءٌ يُـــستطَبُّ بـــه ... إلّا الحماقـةَ أَعْيـتْ مَـن يُـداويها

7- أمّةً وسَطا

قد يُدهشك اتّزان لاعبي السّيرك[1] فوق الحِبال، وقد يُعجبك توازُن أبطال لاعبي القوىٰ حال قفزهم بالزّانات[2]، وقد تُصاب بلَوْثة عند معاينتك لمغاوير يتسلّقون الأبراج ويرتقون سفوح الجبال الشاهقات دون أن تذِّل لهم قدم أو يُكسَر لهم عنق؛ ولكن الأعلىٰ كعبا والأطول يداً مِن هؤلاء وأولئك، ويَستحقّون عن جدارة وسام الاستحقاق وخالِص الدعوات، هم أرباب الوسطيّة الذين يُوسَمُون بالتوازن الفكري والنفسي والسلوكي؛ حيث لا شَطَط في فكر ولا غُلوّ في رأي ولا جُنوح في اجتهاد،

(1) سُئِل أحدُ مشاهير لاعبي السيرك عن السرِّ في اتّزانه وعدم سقوطه من فوق الحبال، فقال: أقوم بتعديل وضعيتي طوال الوقت عبر حركات صغيرة مستمرة في مختلف الاتجاهات، إذْ إنَّ الثبات وعدم القيام بهذه الحركات يعني السقوط...بمعنى أن الاتزان يكمن في الحركة لا في الثبات.

(2) مفردها زانة، وهي عصا ذات مرونة فائقة يُستعان بها في القفز.

ومعه علىٰ الطاولة ذاتها؛ لا تَساهُل في الثوابت ولا تَرخُّص في القِيَم ولا مُيوعَة في أُسُس الاعتقاد.

وقد فصَّل المُربِّي والمُفكِّر عبد الكريم بكار في صفات أهل التوازن ومُحدِّدات أرباب الوسَطيّة هؤلاء، فقال:

"هُم مَن يُريدون العيْش في رغد ورفاهية ولكنْ دون نسيانهم العمَل والمُجاهدَة للآخِرة، وهم المَهمومون بالحفاظ على كيانهم ورعاية مصالحهم ولكنْ دون إهمال واجبهم تجاه عالَمهم، وهُم مَن يُحبِّذون الاختلاف والإفلات مِن قبضة الجمود ولكنْ ليس إلى حدِّ التشتُّت وذَهاب الرِّيح، وهم الجادُّون والسَّاعُون في امتلاك الوسائل الحياتيّة الحديثة ولكنْ ليس على حساب أهدافهم الكبيرة".

وفي هذا رُوِي أنَّ تاجرًا أرسل ابنَه لكي يتعلَّم سرَّ السعادة لدىٰ حكيم، فأعطاه الحكيمُ ملعقةً صغيرةً مليئةً بالزيت، وأمره أن يتجوّل في ربوع قصره الفخم لساعتيْن مُمسِكًا بالملعقة ودون أن يَنسكب زيتُها. وحين عاد، سأله الحكيم عن رأيه في السجّاد الفاخر والحديقة الجميلة والمكتبة

الفخمة، فارتبك الفتىٰ واعترف بأنه ركَّز كلَّ همِّه في ملعقة الزيت حرصا علىٰ عدم انسكاب زيتها وبالتالي لم يرَ شيئا مِن ذلك كلِّه، فأمره الحكيم بالتجوّل مرّة أخرىٰ وعلىٰ الشّرط ذاته. فانتبه هذه المَرّة لكلِّ التفاصيل الجميلة بالقصر، ولكنّه اكتشف بعد جولته أنَّ الزيتَ قد انسكب، وهنا كانت الحكمة والسرّ الذي لقّنه إيّاه الحكيم...التوازُن سرُّ السعادة.

"خيرُ الأمور الوسَط" هذا ما قاله شيخُ الإسلام الثاني المعروف بابن القيِّم، والوسَط هنا ليس مجرد نقطة بين طرفيْن كما درَج وشاع لدىٰ الكثير مِن الناس، بل هو الخيار الأجْود كما فسّره ابن كثير في الآية الكريمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[1]، والتي زادها صاحبُ الظّلال تفسيرا فقال بأنّها أمّة وسط في التصوّر والاعتقاد، ووسَطٌ في التفكير والشّعور، ووسَطٌ في الارتباط والعلاقات ووسَطٌ في المكان أيضا. وقد رسَخ عند العرب أنهم إذا أَطلقوا كلمة (وسط) أرادوا بها معاني الخير والعدل والجَودة والإنصاف والرِّفعة والمكانة العَلِيّة.

والوسطيَّة نِتاج النظرة الشامِلة للحياة، والفِكرة العادِلة المُتجرِّدة للحقّ. وهي المُزَاوَجة بين العقل والعاطفة، والجمع بين الخيْريَّة والبيْنيّة، والمؤاخاة بين الآخَر والذات، والتناغُم بين الحريّة والمسئوليّة، والقفْز

(1) البقرة:143.

فوق أسوار التفريط والإفراط[1]، والقدْرة علىٰ موازنة قِيل إنّها "أُمّ العلوم". فضلا عن كونها لحظة فارقة تجمع بين المرونة والصرامة، والانفتاح والتجدُّد، وشمولية الرؤية وواقعية القرار، وذلك علىٰ حدِّ تعبير المؤرِّخ العراقي عماد الدين خليل.

وإذا كان فقْدان التوازن العصبي أو العضلي مَردُوده مَحدودٌ في دائرة الأشخاص، وآثاره لا تتعدَّىٰ الجروح أو الكسور أو الكدمات، ويُمكن تدارُكه والتغلُّب عليه بمَزيد مِن الدّربة والمِران، مع التكثيف في تدابير السلامة واحتياطات الأمان.. فإنَّ فقدان التوازن الفكري والخروج مِن إطار الوسطيّة، يتخطَّىٰ بمآلاته حدودَ أفراد يَفقدون أمانَهم النّفسي والحياتي، ليهزّ أركان المجتمع برُمَّته؛ وذلك لأنّه يؤسِّس لِبيئةٍ يغلب عليها الاحتقانُ والشِّقاق ويَستشْرِي فيها العُنف والاحْتراب. والنكبة الكبرىٰ أنَّ الفِكاك مِن تلك العواقب الخطيرة والمآلات الكالحة، يَحتاج لسنوات وسنوات مِن التربية والتعليم والمُراجعة والتأهيل والحوار والجدال؛ فنقْض الأفكار أشدّ مِن هدْم الجبال الراسيات، ومفهوم التغيير بالتربية يَقتضي الغوص في الجذور، ويتطلَّب الولوج إلىٰ خزائن الشعور والقناعات والأفكار التي تمسك بتلابيب السّلوك.

---

(1) في كتابه (المفردات) يُفرّق (الراغب) بين الإفراط والتفريط والفَرَط، فيقول: "الإفراط أن يُسرف في التقدّم، والتفريط أن يُقصِّر في الفَرَط وهو التقدّم".

والحقّ أنّ نماذج السَّاسة والمثقَّفين والشيوخ الضاربِين بسهْم في مضمار تلك الوسطيّة يُشار لهم بالبنان، وحَريٌّ بنا أن نرفعهم فوق الأعناق؛ وذلك لقيمتهم في الوزْن ونُدْرتهم في العدد وفاعليّتهم في التأثير، فهم أشبه ما يكون بالتِّبر للثروة والملح للطعام والذّخيرة للسّلاح، وذلك علىٰ اعتبار أنّ أفضلَ حبّات العقد واسطتُه، وأنّ الوسطَ هو مركز القوّة ورمز الصدارة ونقطة الاتحاد، وأنّ الوسطيَّة في كلِّ شيء هي الرسالةُ الأسمَىٰ علىٰ حدِّ قول مارشال ماكلوهان.

ومِن هؤلاء النُّجباء علىٰ سبيل التمثيل لا الحصر؛ داعية القرن العشرين وصاحب الفيوضات القرآنية وأستاذ الإخلاص الذي طبَّقَتْ شهرتُه الآفاق وسار بحديثه الرّكبان، ألَا وهو الشيخ محمد متولي الشعراوي. إضافة إلىٰ فقيه عصرِه الشيخ يوسف القرضاوي الذي صدَق فيه المثَل القائل "بلَغ في العِلْم أَطْوَرَيْه"، فكان ذو عِلمٍ شرعي غزير وباعٍ فقهي عريض وفِكرٍ حياتي مُستنِير. وزِدْ عليهما نادرَة زمانِه شيخنا محمّد الغزالي[1]؛ الذي وازَن بين الدّين والحياة، وجمَع بين العِلْم الشرعيّ والثّقافة المعاصِرة؛ فخاض حرْبا ضَروسا مِن خلال محاضراته وكتُبه ومناظراته لدحْر الغلوّ والسطحيّة في قضية التديّن، وناله مِن الهجوم علىٰ

(1) وصَفه الشيخُ (عمر عبد الكافي) بأنه عقل الإسلام المفكِّر، والغوّاص في حقائق الإسلام ليخرجها بنظرة لم ينظر إليها أحدٌ مِن قبل.

شخصه ومصادَرة كتُبه الكثير، حتىٰ وافتْه المنيّة واحتضَنه ثرىٰ البقيع مع الأطهار مِن الصحابة والتابعين، وكان مِمَّن عناهم ابن دريْد الملقَّب بأشْعر العلماء وأعْلم الشعراء فقال:

والنَّــاسُ ألْــفٌ مِــنْهمُ كواحــدٍ وواحــدٌ كــالألْفِ إنْ أمْــرٌ عَنَــا

والحقيقة أنّ أُمّة الوسَطيّة والخيْريّة التي تَأخّرت عن الأمم الغابرة زمانًا وتقدمّت عليهم منزلة، في حاجة لمزيد مِن تلك الشموس الساطعة والنّجوم الزاهرة والقامات السامقة، التي تجمع بين ثبات القلب ورشادة العقل، وتضيف إلىٰ الفهم النظري استشراف الواقع، وتَجمَع إلىٰ الحماس جلَدًا وإلىٰ الإدراك موازَنة؛ لِتضعَ أُسُسا للتربية بالنّموذج والتّأسِّي بالقدْوة[1]، ولِتأخذَ بيد أمّتنا إلىٰ رحابة وسماحة وشموليّة إسلامنا العظيم؛ فتصبح دنيانا مزرعة للآخرة لا قبرا لها، وتصير آخرتُنا حصادا جَنِيًّا لا قفْرًا ووَحشة، وننأىٰ بذلك عن تفريط اليهود الذين عبدوا الدنيا وتَطاولوا علىٰ الأنبياء وحرّفوا التوراة، وعن إفراط النصارىٰ الذين تَنطَّعوا في الدِّين فابتدعوا الرهبانية ورفعوا مقام النبوّة إلىٰ مرتبة الألوهيّة.

---

(1) القدوة هي حالة من المثالية تعبّر عن الكمال، وفي حين تُعتبر كلُّ شخصية مرجعية قدوة، فإنه ليس كلُّ قدوة مرجعية، بمعنى أنّ القدوة مرجعية جزئية، بينما المرجعية قدوة عامة تنتظم في ظلها الكمالات الإنسانية كافة.

والوسطيّة ليست سوىٰ الصراط المستقيم الذي اختطّه الله لعبادِه الموحِّدين، فكان طريقا وسطا بين طريق المغضوب عليهم وهم اليهود وطريق الضالِّين وهم النّصارىٰ، وذلك حسبما فصَّل ربُّنا جلّ وعلا في فاتحة الكتاب وأعْظم سور القرآن فقال: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾، وذلك علىٰ النقيض ممّا يُدلِّس به بعضهم؛ فيروِّج لوسطيّة ضلاليّة، يَأخذ فيها بنصف الدّين إرضاء لفريق الإسلاميين، ويَترك النصف الآخَر جبْرا لخاطر العلمانيين، وهذا لَعَمري في القياس تحريف وأيّ تحريف.

وجَرْيًا علىٰ نظرية الأوساط الأفلاطونية التي تقول بأنّ الفضيلة وسَط بين رذيلتيْن؛ حيث تأتي فضيلة الكرَم وسطا بين رذيلتيْ البُخل والسَّفَه، وتأتي فضيلة الشجاعة وسَطا بين رذيلتيْ الجُبن والتهوّر، وتأتي فضيلة الحياء وسطا بين رذيلتيْ الخجَل والوَقاحة؛ فإنَّ التوازنَ المقصود والوسطيّةَ المنشودة، ليستْ توفيقا بين حقٍّ وباطل أو مزْجا للماءِ بالخمر أو خلْطا لشرْق بغرْب، ولكنَّها تمايُزٌ للحقّ بين باطِلَيْن وبزوغٌ للنُّور بين ظلامَيْن وميلادٌ للفضيلة بين رذيلتيْن ومِيزان للأمْن بين متصارِعَيْن، وفي بعض الأحايِين تكون أَخْيَر الخيْرَيْن وأَصْلح الصَّلاحَيْن وأَنْفع النَّفْعَيْن...

وهو خلاصة ما رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -الذي قال: قال لي رسول الله ﷺ: "يا عبدَ الله ألم أُخبَر أنّك تصوم النهار وتقوم الليل" فقلتُ: بلىٰ يا رسول الله. قال: "فلا تفعل، صُم وأَفطِر، وقُم ونَم، فإنَّ لجسدك عليك حقّا، وإنّ لعيْنك عليك حقّا، وإنّ لزوجك عليك حقّا، وإنّ لزوْرك عليك حقّا".

والواقع أنّ ما نلمحه علىٰ السّاحة مِن فِرقٍ تتلاسَن ومذاهب تتصارع، وما نراه مِن غلوّ وجفاء ونلمسه مِن تشرذم وتفرّق؛ ما هو إلّا نتيجةً لغياب الرؤية المتوازِنة، وتَبِعةً للحياد عن منهج الوسطية[1] الذي ارتضاه الله شِرعةً للأمّة المحمّدية وكانوا به شهداء علىٰ الأمم السابقة، ولا سبيل لعلاج ذلك الواقع المؤلم والاضطراب المُهلِك إلّا علىٰ يد فئة مصلِحة تقتفي صراط الله المستقيم؛ فتنفِي عن الدِّين غلوّ الغالِين وانتحال المبطِلين وتفريط الكسالىٰ ودعاوَىٰ المرجِفين، وشعارهم في ذلك: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام:153].

---

(1) عن وسطيّة الإسلام يقول (الصلابي) في كتابه (الوسطيّة في القرآن): "تتضح وسطيّة القرآن في مجال التشريع؛ في إباحة تعدّد الزوجات بالشروط والحدود التي ذكرها المولى عز وجل، وكذلك في إباحة الطلاق، وأحكام المواريث، وفي الأخذ بسنّة التدرّج في التشريع".

8- هذا خلْق الله!

بالنظر إلىٰ وسائلَ تَشرُف بشرف الغايات، ومسئولٍ يَعظُم بعِظم مسئولياته؛ نجد أنّ شرَف الإنسان مُستمَدٌّ مِن شرف غايةٍ خُلق من أجلها وهي عبادة الواحد الأحد، وعظمته نابعةٌ مِن عِظَم مسئولية أُنيط بها وهي إعمار هذا الكون الفسيح. كما نجد اللهَ سبحانه هيّأه ليكون علىٰ قدْر هذا الشرف وعلىٰ مستوىٰ تلك المسئولية؛ فخلَقه في أحْسن تقويم وقدَّره أحْسن تقدير، وجاء خلْقه معجِزًا وتقديره محكَمًا، حتىٰ لَيقف العِلمُ في ألفيّته الثالثة مشدوهًا ليس في خَلق المِثل –حاشاه وكلّا– ولكن في مجرّد فهم هذا البنيان المعقّد، وسبْر الكيفيّة التي يعمل بها في تناغُمٍ عجيب وإحكامٍ دقيق. وإنّي لَأرىٰ تلك القدرةَ الخلّاقة المبدِعة، تهزأ من كلّ ما أنتجتْه التكنولوجيا الحديثة مِن أجهزةٍ عملاقة الحجم متطوّرة الوظيفة معقَّدة التركيب، ولسان حالها يَهتف في زهْو وتَحدٍّ: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ (1).

(1) لقمان 11.

فالسّمْع المُقدَّم علىٰ غيره مِن الحواس؛ باعتباره أوّلها عملًا بعد الولادة[1] ، وأنجعها فائدة بالمقارنة بغيره من الحواس؛ تختصّ به آلةٌ صغيرة الحجم عجيبة الفِعل بديعة الصنع، بدءًا بصوان مُصمّم علىٰ شكل بوقٍ واسعٍ أنيق، ليقوم بتجميع الأصوات مِن كلّ حدب وصوب، ومِن ثَمّ تركيزها علىٰ فوهة القناة السمعيّة الخارجية. ومُصنّع مِن غضروفٍ لا هو بالصلب فينكسر، ولا هو باللّيّن فينثني؛ حمايةً له من الحوادث ووقايةً عند الصدمات. مرورًا بقناة سمعية متعرِّجة في مسارها(حرفS)؛ لِتحجز أيَّ جسمٍ غريبٍ يضلّ طريقَه وتحول بينه وبين طبلة الأذن الرقيقة وأجزاء الأذن الداخلية. فضلًا عن غدد تفرز مادة شمعية (صملاخ) تلتصق بها الأتربة، وذات طعمٍ مُرٍّ ورائحةٍ كريهةٍ تتأذّىٰ منها الحشرات والأجسام الغريبة، فتَلقىٰ حتفَها قبل أن تصل إلىٰ باحة الأذن وحرَمها الداخلي. وصولًا إلىٰ طبلة ذات غشاء رقيق مرن، وعظيْمات ثلاث صغيرة تقع خلفها ولا يزيد وزنها مجتمعة عن 55 مليجرام، فتكبِّر الأصواتَ نحو عشرين مرّة، ثُمّ ترسلها إلىٰ قوقعة بالأذن الداخلية ما زالت إلىٰ اليوم

(1) يُسَنّ أن يكون الأذان أول الأصوات الداخلة إلى الأذن، فيُصدَح بالأذان في يُمناه ويُقام للصلاة في يُسراه.

مصدر حيرة[1] العلماء، مِن حيث التركيب والوظيفة، والتي بدورها ترسل الأصوات علىٰ هيئة إشارات إلىٰ العصب السمعي، ومِن ثَمّ إلىٰ مركز السمْع في الدماغ؛ لينعم الإنسانُ عندئذ بوسيلة إدراك يفهم بها ما يدور، وقناة تَواصُل يتفاعل من خلالها مع الحياة؛ فيميّز بين النثْر والشعر والغناء، ويُفسّر الثناءَ من المدح، ويفصل الذمَّ عن القدْح. كما يظفَر بآلة تنبيه وهمزة وصْل يَستعين بها أصحابُ القلوب الحيّة في الذكرىٰ والاعتبار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾[2].

ومِن كرَم الله وعظيم فضله؛ أنْ جعل للسمع أذنيْن لا واحدة، وذلك زيادة في الفائدة إنْ صَلُحا وسَلِما، ولتؤدِّي إحداهما وظيفة السمْع باقتدار إنْ تعطَّلت الأخرىٰ لِمَرضٍ أو ما شابه. فضلا عن أنّ للسمعِ طريقا آخَر غيْر الأذنيْن، وذلك عبْر عظام الرأس والجمجمة، وهو ما يؤكِّد طلاقة

(1) في كتابه (الإنسان ذلك المجهول) يقول الجراح الفرنسي (ألكسيس كاريل) الحاصل على جائزة نوبل في الطب عام 1912م: "الإنسان مجهول لنفسه، وسيظل جهلنا به عددا من القرون، فحتى الآن لم نصل في معرفتنا بماهية الإنسان إلّا إلى معرفة بدائية"

(2) ق 37.

القدرة الإلهية، ووفْرة النِّعم لا محدوديّتها. أمّا محدوديّة نطاق سمْع الأذن البشرية، والتي حدّدها العلماء بمجال تردّدات تقع بين عشرة آلاف وأربع وعشرين ألف دورة في الثانية؛ فهو عصمة للإنسان مِن ضجيج الكون، وصيانة له مِن التشتّت وعدم التركيز، وإن كان لا يُعجزه سبحانه بحال – إنْ أراد– أن يَشرع بوّابة السمعِ علىٰ كلّ الترددات، لنسمع عن سكّان البرّ في أقاصي البلاد، وعن سكّان البحر في قاع الأنهار والمحيطات، وعن سكّان الجوّ في أعالي السماء، وذلك كما شرَعها مِن قبل إبّان خرْق الناموسَ لسيدنا سليمان عليه السلام، فسمع عن النّملة ما لا يُسمَع، وعقل عنها ما لا يُعقَل.

وأنوّه هنا بأنَّ الأذن الداخلية هي عضو الإحساس بالتوازن، وذلك عبْر ثلاثة تجاويف مملوءة بسائل يتحرك تبعا لحركة جسم الإنسان، فترسل خلايا الإحساس الملامسة للسائل إشارتَها إلىٰ الدماغ، ليدرك الإنسانُ وضَعَه، ومِن ثَمّ يَجري تصحيحه إن اقتضىٰ الأمرُ ذلك. وقد شكَّل جهاز التوازن هذا نواةً بَنىٰ عليها المهندسون اختراعَهم لجهاز يُدعىٰ (الجايروسكوب)؛ يحافظ علىٰ توازن الطائرات والبواخر والسفن الفضائية.

ولأنَّ العافيةَ لا يُقدّرها حقّ قدرَها إلّا المرضىٰ، والنّعمةَ لا يُدركها حقّ إدراكها إلّا فاقدوها، فإنَّ الصممَ مصيبةٌ فادحة، وفقْدَ السمْع فاجعةٌ مريعة، حتىٰ إنَّ المولودَ الأصمّ يُصبح أبكما بالضرورة، وطالِع في ذلك طائفة الصمّ مِن البشر، وكيف تنقلب حياتُهم رأسا علىٰ عقب؛ فيَنعزلون، ويَكتئبون، ويَعافون الحياة برمّتها، ثمّ اقرأ ما سطّره الإمام الغزالي في ذلك حين قال:

"مَن فقد السمع، عَدِم روحَ المخاطبة والمحاورة، وحُرِم من سماع الأصوات الجميلة والألحان المُطرِبة وأخبار الناس وأحاديثهم، حتي يصير كالغائب وهو شاهد وكالميت وهو حيّ".

وإذا كان الصمم هنا فاجعة، فإنَّ الصممَ المؤقَّت الذي كتبه اللهُ علىٰ أهل الكهف ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [1] كان معجزةً مكّنتْهم مِن الغطّ في النوم لمدة ثلاثمائة سنة شمسية، فباتوا يَسبَحون في عالَم الصمت وكأنَّ آذانَهم قد سُدَّت أو كأنّ الكون قد خَرس،

(1) الكهف 11.

إذْ إنَّ السمع هو الجهاز الوحيد للاستقبال عن بُعد، الذي يَبقىٰ مفتوحا بدرجة نسبية أثناء النوم، راصدا للبيئة حولَه، وكذلك مراكز السمْع التي تَستقبل الأصوات حال اليقظة، تستقبلها أيضا عند المنام ولكن بدرجة أقلّ.

وما ذُكِر عن إعجاز حاسّة السمع، ينسحب علىٰ حاسّة للبصر تقوم بها كُرة لا يَتعدّىٰ وزنُها الثمانية جرامات، وتُحرّكها ستُّ عضلات تدور بها في كلِّ اتجاه، وتتبوّأ منزلةَ أكثر أعضاء الجسم حركةً ونشاطا؛ حتىٰ لَتلتقط عدستُها الصور بسرعة خياليّة تفوق أحدث الكاميرات. وعلىٰ طريقة صيانة الجواهر والكنوز؛ فقد خبَّأها بارِؤها داخل حفرة عظميّة عميقة، وأَوْقف علىٰ بوّابتها جفونًا[1] تحرسها عند الإغماض، ورموشًا تصونها عند الفتْح، ودموعًا تغسلها وترطِّبها بانتظام، وسقْفًا مِن الحواجب يَذُود عنها التراب والغبار ونحوه. وقد وُضِعت في مقدّمة الرأس وأعلاه لتكون بذلك في أفضل موضع لأداء وظيفتها علىٰ أكْمل وجه، وزُوِّدت بنظام للرؤية أثناء ضوء النهار تقوم عليه ملايين الخلايا البصرية المُسمّاة

(1) في عام 1963 تأمّل (روبرت وليام كيرنس) حركة الجفون بعد وضعه قطرة في عينيه، فاستلهم منها فكرته التي اخترع بها مسّاحات زجاج السيارات الأمامي، وحقّق بذلك إضافة جوهرية في صناعة السيارات في العالم.

بالمخاريط، ونظام للرؤية الليلية حين تقلّ الإضاءةُ ويحلّ الظلام، وذلك عبْر ملايين أخرىٰ مِن الخلايا البصرية المُسمّاة بالعصيّ. ثُمّ كانتا عينيْن اثنتيْن؛ لِتوفّرا رؤيةً محيطيّة شاملة في حال سلامتهما، ولِتقوم الواحدةُ بالوظيفة حال عطب الأخرىٰ.

وكما خَرق الله ناموس السمْع لسيدنا سليمان عليه السلام، فقد كُسر حاجزُ الرؤية للمُلهَم عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِن فوق منبر الجُمعة، حين حذَّر قائد جيش يقاتل المشركين علىٰ بعد آلاف الأميال مِن المدينة، فأمَره بلزوم الجبل لئلّا ينكشف ظهرُه ويُطعَن الجيشُ مِن الخلف قائلا "يا سارية الجبل يا سارية الجبل".

أمّا حاسّة الشمّ[1] فيقوم بها أنفٌ يَبرز في الوجه كخطّ هندسي يقسم صفحة الوجه نصفيْن متساوييْن، ويؤدّي دورَه في عمليتي التنفّس والكلام، وله فتحتان بلا غطاء ولا أقفال، فيشهق الشخصُ ويزفر من خلالهما ليل نهار بمعدّل 24000 مرّة في اليوم، علىٰ اعتبار أن المرء قد يصبر عن الطعام لأسابيع، وعن الماء لأيام، ولكنه لا يطيق التوقّف عن

(1) في حين يحتل الجزء المختص بالشمّ مساحة صغيرة في دماغ الإنسان(5٪)، فإنّ هذه المساحة تبلغ نحو 35٪ في الكلاب التي تتميز بحاسة شمّ قوية تبرّر استخدامها في تَعقّب الجناة والكشف عن المخدّرات.

التنفّس لدقائق معدودات. والأنف مبطَّنٌ بغشاء مخاطي يحتوي علىٰ مستقبِلات الشمّ المرتبِطة بالعصب الشمّي وبمركز الشمّ في الدماغ، ويعمل هذا الغشاء كجهاز تكييف يدفّئ هواءَ الشهيق البارد ويجعله مُقارِبًا لدرجة حرارة الجسم، ويُرطِّبه أيضا لئلّا يؤذِي الهواءُ الجاف أغشيةَ الجهاز التنفسي الدقيقة والرقيقة، كما يَفرز سائلًا يَحجز الأتربة والأجسام الغريبة الدقيقة العالقة ضمن هواء الشهيق، إضافة إلىٰ وجود أهداب تدفع هذا السائل وما به من نفايات إلىٰ البلعوم لكي يتخلّص الجسمُ منها مع البصاق أو السعال.

ولا عجَب إذا علمنا أنَّ الشمَّ يُعدّ ضمن وسائل عدّة للتواصل وأدوات كُثُر للتعارف، فيفتح نافذة إضافية نحصل بها علىٰ معلومات اجتماعية تُمكِّننا من التفاعل مع البيئة بمكوّناتها العديدة، ولهذا وُجِد أنّ الأشخاص ضعاف الشمّ غير اجتماعيين وأكثر عرضة للإصابة بالاكتئاب. هذا فضلا عن أنَّ الشمَّ يُعتبر أداة تنبيه تقينا مِن بعض الأخطار مثل تسرّب الغازات أو اشتعال الحرائق ونحوهما. وجرْيا علىٰ قُدرة الخالِق الذي لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فقد خرَق ناموس الشمّ لسيدنا يعقوب عليه السلام، حتىٰ تَشمَّم رائحةَ سيدنا يوسف، مع ما بين مصر

وفلسطين مِن مسافات بعيدة المدىٰ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ٩٤﴾ [يوسف:94].

وكما ارتبط السمعُ بالكلام، فإنّ حاسةَ الشمّ ترتبط بحاسة التذوّق ارتباطا وثيقا، حتىٰ لَيفقد التذوّقُ شطرًا كبيرًا مِن قوّته في حالات فقْد الشمّ. وتقوم علىٰ حاسة التذوّق عشرة آلاف حُليْمة تتركّز أعلىٰ سطح اللسان وتنتهي بأليافٍ عصبية متّصلة بمركز الشمّ في الدماغ، ومِن خلالها يتذوّق طرفُ اللسان الطعم الحلو ويتذوّق جانباه الطعم الحامض والمالح بينما تتذوّق مؤخّرته الطعمَ المُرّ، إضافة إلىٰ طعم خامس يُسمَّىٰ (أومامي) ويعني الطَّعْم الطيّب واللذيذ، وبالطبع لا غِنىٰ عن اللعاب كوسيط لإتمام عملية التذوّق تماما كلزوم الهواء وسيطا في عملية الشمّ.

وللأهميّة البالغة لحاسة اللمس، فقد وكِّل بها أكبرُ وأثقلُ أعضاء الجسم قاطبة، وهو جلد يُعتبر عيْنًا ثالثة ومخًّا ثانيا؛ فاللمسُ يساعدنا في إدراك الأشياء والتعرّف علىٰ ما هيتها مِن حيث البرودة والسخونة والخشونة والنعومة ونحو ذلك، ومِن خلاله أيضا نُرسل ونستقبل الأحاسيسَ والمشاعر، ونُعزِّز عمليةَ التعلّم واكتساب المهارات، بل ونستخدمه في علاج الأمراض علىٰ اعتبار أنّ عملية التدليك ليست إلّا

ضرْبًا مِن ضروب اللمس. وبهذا اعْتُبر اللمسُ لازما للإنسان كالطعام والشراب والهواء. وفي الوقت الذي تنتشر فيه المستقبِلاتُ الحِسيّة علىٰ طول مساحة الجلد، فإنها أكثر تركيزا في مناطق يَنعُم فيها الجلدُ ويَخلو مِن الشعر؛ مثل راحة الكفّ وباطن القدم.

والحقيقة أنَّ ما قِيل في عجالة عن الحواس الخَمس، يُقال مثلُه وزيادة عن بقية أعضاء الجسم، بل عن كلِّ خلية من خلاياه التي تبلغ التريليونات في عددها، وتستوي في ذلك الخلايا العصبية أو العظمية أو العضلية أو الجلدية أو الغضروفية. وما يُقال في التناسُق والتعاون والتناغُم فيما بينها أكثر بكثير عمّا يُقال بخصوص تركيبها وعجيب صنعها، حتىٰ لَيمكننا القول بأنَّ البدنَ قصرٌ للإمارة، والنفْسَ أميرُها، والعقلَ وزيرُها، والقلبَ مستشارُها، واللسانَ ترجمانُها، والحواسَّ مخابراتُها وجواسيسُها.

ألَا ما أصدق العزيزُ الحكيم إذْ يقول: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾[1]، وما أجمل جواب (أبي حازم) حين سأله رجلٌ عن كيفية شكْر العينيْن والأُذنيْن، فقال: شكْر العينيْن؛ إن رأيتَ بهما خيرًا أعلنتَه، وإن رأيتَ بهما شرًّا سترتَه. وشكْر الأُذنيْن؛ إن سمعتَ بهما خيرا وعيْتَه، وإن سمعتَ بهما

(1) الذاريات 21.

شرًّا دفنْتَه. وما أطرف ما رواه أمير الواعظين (ابن الجوزي) بقوله: كان عيسىٰ بن موسىٰ يحبّ زوجته حبًّا شديدا، فقال لها يوما: أنتِ طالقٌ بالثلاثة إن لم تكوني أحسن من القمر! فنهضت زوجته واحتجَبت عنه وقالت: لقد طلّقتَني! فبات ليلته في غمٍّ عظيم، ولمّا أصبح ذهب إلىٰ الخليفة أبي جعفر المنصور وأخبره بالخبر وأظهر له جزعًا شديدا، فأحضر المنصور الفقهاء واستفتاهم، فقالوا: قد طُلِّقت المرأة. إلّا رجلا مِن أصحاب أبي حنيفة أفتىٰ بأنّ الزوجة في ذمّة زوجها وما خرجت منها قيد أنملة، محتجًّا في ذلك بقول الحقّ جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين:4] .

9- جِرْمٌ صغير وخطَر عظيم!

مع أنَّ كلّ ما سِوىٰ الله مخلوقٌ خلَقه الله، وموجودٌ أَوْجده الله؛ إلّا أنّ ما نلحظه مِن فروق شتّىٰ بين تلك المخلوقات والموجودات بعضها البعض، يُدير الرأسَ ويُبهر العقل.. فالجمادات تَنفع وتُعين، ولكنها لا تتغذَّىٰ أو تنمو، ولا تحسّ أو تتحرك، ولا تُفصِح أو تَبين. والنباتات تتغذّىٰ وتنمو، ولكنها لا تحسّ ولا تتحرّك ولا تُفصح. والحيوانات تحسّ وتتحرّك، ولكنها عجماوات لا تُفصح ولا تَبين. بينما الإنسان أكْرم المخلوقات وأكْمل الموجودات؛ يتغذّىٰ وينمو، ويحسّ ويتحرّك، ويفصح ويبين. ولعلّ الحكمة من وراء ذلك؛ أنّ كلّ مخلوقٍ مُيسَّر لِما خُلِق له، وكلّ موجودٍ مُهيَّأ لأداء دوره المَنوط به، ولو أُعطِي المخلوقُ والموجودُ ما لا يَحتاجه في القيام بوظيفته وأداء دوره؛ لكان وبالا عليه بقاءً وحِفظا، فمثلا لو صار سمْعُ الإنسان لا يَحدّه حدّ، وبات نظرُه إلىٰ الأفق قصيّا؛ لَما نَعم بلحظة هدوء، ولَجُنّ مِن طوفان ما يَرىٰ ويُطالع.

وآلة الإفصاح والبيان التي تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات والموجودات، هي ذلك المخلوق العضلي اللحْمي الذي[1] يَقبع في تجويف الفم ويُطبق عليه لَحيَيْن (فكَّيْن)، وقاعدته ثابتة ولكنّه حُرّ الطرف بحيث يصل إلىٰ جميع زوايا الفم، ومُزَوَّدٌ بغدد تفرز لعابا يُرطِّبه ويُسهِّل حركتَه ذات اليمين وذات الشمال. وبينما يتصل بالمخ عبر ستة أعصاب حسيّة تنقل منه الأحاسيس، فإنّ عصبَيْن حرَكِيّيْن ينقلان إلىٰ عضلاته السبعة عشرة أوامر الحركة! وتلك لَعمري آلة عجيبة دقيقة تستنطقنا أسمىٰ عبارات الحمد والشّكر.

وقد استقرّ له عِلم هو عِلم اللسان الذي يَبحث في قوانين اللغة وعناصرها وبنْيتها؛ مقدِّما بذلك خدماتٍ جليلة للتاريخ والحضارة والعِلم والأدب. وله شُيِّدت كلّيةٌ هي كليّة الألْسُن التي أسّسها رفاعة رافع الطهطاوي، وعُرفت في بادئ عهدها بمدرسة المترجِمين، وبها الآن عشرات الأقسام لتعليم مختلف اللغات، ومَنوط بها تخريج الكوادر التي تقوم علىٰ أكتافها حركة الترجمة ونقل المعارف. كما عُنْوِن به أشهرُ المعاجم وهو (لسان العرب) لابن منظور؛ والذي يُعدّ أكبر المعاجم العربية وأشملها قاطبة.

---

(1) اللسان قد يُؤنَّث ولكن التذكير فيه غالب، ويُجمع على أَلسِنة وألْسُن ولُسْن ولُسُن.

والواقع أنَّ لِلِّسان وما يَدُرُّه مِن كلامٍ، مَناقبَ لا تُغفَل ومَآثرَ لا تُنكَر، علىٰ سيْر موكب الحياةِ بيُسر واقْتدار؛ إذْ هو السلّم الذي تَعبر عليه لغةُ العقول وهي الأفكار، والدَّرَج الذي ترقَىٰ عليه لغةُ القلوب وهي المشاعر والأحاسيس، وهو كذلك الترجمان المُعبِّر عن رغباتنا ومكنوناتنا، والوسيط الناقل لعملية التعليم والتعلُّم، والأثير الذي به نتواصل ونتعارف، والميزان الذي عليه نكيل الرجال[1]. فضلا عن أنه مفتاح الدخول لِحَرَم الإسلام، وأداة الذِّكْر وتلاوة القرآن، حتىٰ أُثِر عن سيدنا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قوله: "لولا اللسان لكان الإنسانُ صورة مُمثَّلة أو بهيمة مُهمَلة". وفيه رُوي أنَّ عبدا حكيما قِيل له: اذبح لنا شاة وائْتنا بأطيب ما فيها، فذَبح وأتاهم باللسان. ثمّ قيل له: اذبح شاة أخرىٰ وائْتنا بأخبث ما فيها، فذبح وأتاهم باللسان أيضا، ولمّا سُئل في ذلك، قال: لا شيء أطْيب من اللسان إذا طاب، ولا شيء أخْبث منه إذا خبث.

وعلىٰ الطريقة المقاماتية للهمذاني والحريري، وضمن كتابه (أسواق الذّهب)، سطّر أمير الشعراء شوقي بضعة سطور من ذهب في وصْفه قائلا: "مضغة لحْم، في عظْم. سمّاها الناس اللسان، وعظّموها لفضيلة البيان،

(1) أثِر عن الفيلسوف اليوناني (سقراط) قوله لأحد تلاميذه في إحدى جلساته الحِواريّة: تَكلَّم حتى أراك.

فقوّموها بنصف الإنسان. عضلٌ نبَت من الحلقوم وقناته، وثبَت في أصْل لهاته، ولبث في السجن ظِمْأ حياته، لا يتحرّك منه سوىٰ شَباتِه. رسول العقل، في النقل. وأداة الدماغ، في البلاغ. وترجمان النفس في رواية العاطفة، وحكاية الصحو والعاصفة. الوحي علىٰ عَذَباته ظهَر، ومن جنَباته انْحدر، فكان أوّل مَن سفَر بين الخالق والبشَر. ثمّ فُجِّر بالحكمة فانفجر، وعُلِّم الشِّعرَ فشَعَر".

ولِأنَّه أَعْصَىٰ الجوارح وأشدّها علىٰ الانقياد للجادّة والانصياع للاستقامة، باعتبار أنَّ تحريكَه لا تعَب فيه ولا نصَب ولا يَتطلّب مَؤونة واستعدادا، فقد اتَّخذ منه الشيطانُ أعظم آلة للإغواء، حتىٰ صار لهذا الجِرم الصغير-أي اللسان- مِن الآفات والأمراض ما يُمكنه شلّ عضلات الحياة وإفساد عيْن مائها واندلاع شرَر نارها، إلىٰ حدِّ مقدرته الفائقة علىٰ سلْب الأموال وقطْع الأرحام وتخريب الأُسَر وإشعال الحروب وسفْك الدماء ونهْش الأعراض..ولم لا، وقد قِيل فيه: "لِلسّيْف حَدَّان وللِّسان مئة حَدّ"، وقِيل: "أشدّ السموم فتكا سمّ اللِّسان"، وقيل: "مقتل الرجل بين فكّيْه"، وكذلك قِيل: "نهْشُ الأسنان ولا نهْشُ اللِّسان".

وقد أَحصىٰ له بعضُهم عشرين آفة، ثمّ سطَّر عنها عشرات الصفحات. بينما جاء في كتاب الكبائر للإمام الذهبي أنّ بعضَهم سُئل: كم وجدتَ في

ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر مِن أن تُحصىٰ، والذي أحصيتُ ثمانية آلاف عيب، ووجدتُ خصلة إن استعملها سترَت العيوب كلّها، وهي حفظ اللسان. وفي سياقها جاء حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنّ النبي صلىٰ الله عليه وسلم قال: "إذا أصبح ابنُ آدم، فإنّ الأعضاءَ كلّها تُكفِّر اللسان-أي تَذلّ وتَخضع له-تقول له: "اتّق الله فينا، فإن استقمْتَ استقمْنا، وإن اعْوجَجْت اعْوجَجْنا"، وكذلك كان تحذيرُ الشِّعر حين قال الناظِم:

احْـذر لـسانكَ أيّهـا الإنـسان لا يَلـدغنّك إنـه ثعبـان

فافتراش اللسان آفَة الآفات؛ حيث يَعمد صاحبُه إلىٰ الثرثرة في كلّ الأودية، والإبحار في كلّ المجالات، واللغو علىٰ كلّ الطاولات، وأكْل الميتة عبر الغيبة التي قال عنها بعض العلماء أنّها مائدة طعام الكِلاب وإدام الفُسَّاق وأعمال أهل الفجور. ولم يكن ذلك كذلك؛ إلّا بعدما فقد الشخصُ خطامَ لسانه، ولَم يَقْوَ علىٰ كبحِ جماحِه وإلجامِه، أو حبْسه خلف بوّابةِ شفتيْه وقضبان أسنانه، وبعدما ضرَب عرضَ الحائط بقول الله في مُحكَم تنزيله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:36]. وعندئذ كثر سقَطُه بكثرة كلامِه، وازداد لغطُه بتناثُر الكلام كالمطر مِن فِيه، وتحوَّل المِقْوَل (اللسان) إلىٰ مِعوَل، حتىٰ لربّما يَطأ بصنيعه هذا عتبات سقَر

ويَقطن قعْر الجحيم، وساعتها يُدرك ويُقرّ بأنَّ لسانَه الذي لا يَزيد طوله عن عشر سنتيمترات ولا يَتجاوز وزنه الستين إلىٰ السبعين مِن الجرامات، هو ما أوْرده المهالِك وزجّ به إلىٰ أسفل سافلين: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [المدَّثر:45]...وفي ذلك رُوي أنَّ رجلا من الأنصار مَرّ بمجلس فيه قوم افترشوا ألسنتَهم وخاضوا، فقال: تَوضَّأوا فإنّ ما تقولون شرٌّ مِن الحدَث.

وذُو اللسانيْن[1] -الذي عرّفه الغزالي بأنّه "مَن يَتردّد بين مُتعادِيَيْن فيُكلِّم كُلًّا بما يُوافقه"- علىٰ خطر عظيم، إذْ إنّ هذا عيْن النفاق وأصْل النميمة، وهو طريق للكذب ذو اتجاهيْن ورأْس للشرّ ذو وجهيْن؛ لأنّه عوضا عن الدفع باتجاه جَسْر الهوّة وتقريب وجهات النظر وإصلاح ذات البيْن، إذْ به يمضي حثيثا نحو تعميق الجراح وحفْر الأنفاق وسكب الزيت علىٰ النار. علىٰ أنّ الأخطر منه، هو النمّام الذي يُوقِع العداوةَ ويَزرع البغضاء ويَنفث سمّ الخصومة ويُؤجج نار الفتنة بين متحابّيْن؛ زوجيْن كانا أو صديقيْن أو زميليْن أو نحو ذلك، وصدقَت العرب حين لقَّبتْه (قُنفذ ليْل)؛ فكما يَسعىٰ القنفذُ تحت جنح الظلام وفي الخفاء، فالنمّام يسعىٰ في الشرّ خفْية من وراء ستار.

---

(1) جدير بالذكر أنّ صاحبَ الرباعيات العالِم والشاعر الفارسي (عمر الخيام)، يُطلق عليه ذو اللسانين؛ لإجادته اللسانيْن الفارسي والعربي.

وفي خطر النميمة وما تَجرّه من ويلات، ذُكِر أنَّ عبدا ضيَّق عليه سيّدُه وسيّدتُه، فأضمر في نفسه الانتقام منهما، ولم يكن له من أسلحةٍ إلّا النميمة علىٰ عادة معظم الضعفاء، فعمد إلىٰ سيّدته وأَسرّ إليها بأنّ زوجها لا يحبّها ويريد أن يَتسرّىٰ-يتزوج-عليها، ثمّ عَرض عليها أن يُعيد إلىٰ سيّده رشدَه ويَصدّه عن غيّه، وذلك عبر سِحرٍ مُجرَّبٍ وناجع يصنعه علىٰ شَعرة مِن شَعر رأسه، فقالت: وما السبيل إلىٰ تلك الشعرة؟ فقال: إذا غلبه النومُ خُذي شفرة حادّة واحْلقي قفاه، ثمّ أتىٰ الزوجَ وقال له: امرأتُك اتّخذَت خليلا ودبّرَت لقتلِك وأنت نائم، فتَناوَم لها حتىٰ تُفشل حيلتَها وتتغدّىٰ بها قبل أن تتعشّىٰ بك، فتَناوَم حتىٰ جاءت المرأةُ بشفرتها وتَمكّنت مِن قفاه، فعاجلَها وقتلَها، ثمّ جاء أهلُها فقتلوه، وهاجت القبيلتان وتقاتلا إلىٰ زمَن طويل!

وسليطُ اللسان الذي لا يَتورّع عن السبّ والشتْم، ولا يُحدِّث إلّا بأقذع الألفاظ وأفحش العبارات؛ هو للمجتمع داء، وعلىٰ صاحبه وبال؛ إذْ تنفر مِن تُرّهاته الملائكة، وتأباها كلُّ نفس نقيّة أبِيَّة طاهرة، كما تَمجّها الأسماعُ وتَقشعرّ مِن هولها الأرواح وتذوب لها القلوب وتَتفتّت الأكباد. والحقّ أنه لا يُتصوّر لمؤمنٍ صادق أن يَتسفّل فيَطعن ويَلعن، أو يَتفوّه بالفاحش والبذيء، لأنّ لسانَ الإيمان يقبع خلف قلبٍ سليم يُهذّبه

ويُطيّبه. فضلا عن أنّ أعراض الناس أغلىٰ عليهم مِن أموالهم وأثمن عندهم من كنوزهم، وويل لمَن يتجرّأ علىٰ هذه أو تلك، وفي هذا كان الويل في القرآن الكريم لكلِّ هُمَزة لُمزة، تماما كما كان الويل للمطفِّفين. وحريٌّ بنا هنا أن نتَدبَّرْ الحديث الشريف الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه: "لا يكون اللعّانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة"، والذي شرحه الإمام ابن القيم –رحمه الله– بقوله: "لأنَّ اللعنَ إساءة، بل أبلغ من الإساءة. والشفاعة إحسان. فالمُسيء في هذه الدار باللعْن سلبه اللهُ الإحسانَ في الأُخرىٰ بالشفاعة ". وفي ذات السياق رُوي أنّ سيدنا عيسىٰ عليه السلام مَرّ به خنزير، فقال: مُرّ بسلام، فقِيل: يا روح الله، تقول هذا لخنزير؟ فقال: أكره أن أعوِّد لساني الشرّ.

أمّا مَن ابتلع لسانَه ومضغ كلامَه؛ فسكت عن مدْحِ الحقّ وذمِّ الباطل، وخرس عن الأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان وسط الظالمين والمظلومين لسانا مِن طين ولسانا مِن عجين؛ لَهُو شيطانٌ أخرس وإبليسٌ صغير، إذْ جعل مِن نفسِه جسرا تمرّ فوقه الشرور والآثام، لِتسْرح وتمْرح بعد ذلك بكامل حريتها في جنَبات المجتمع غير مُبال بها ولا مُكترث لها، وأمثال هؤلاء يَستحقون بتْر اللسان بعدما عطَّلوه عن وظيفته وشدّوا عليه

الوثاق، وذلك علىٰ غرار ما كان يَفعله الآشوريون قبل 2500 سنة، حين دأبوا علىٰ قطْع ألسنة اللصوص والجنود المنهزِمين وتقديمها غذاء للقطط المَلَكية، ومِن هناك جاء المثل" أكلَت القطّةُ لسانَه".

وكما أنَّ الجوعَ للبدن صوم، وغضَّ البصر للعين صوم، وكفَّ الأذىٰ لليد صوم، ولأنّ كلَّ الزلّات تُقال إلّا زلّات اللسان؛ فإنّ الصمتَ لِلِّسان صوم؛ إذْ به نغلق باب الجدل واللجج، ونفتح باب الإنجاز والعمل، ونتيح للعقل والقلب خلوة ينعمان فيها بما يُعرف بعبادة السرّ التي يَندرج تحتها التفكُّر والنظر والاعتبار...ويَظلّ الاقتصاد والموضوعية والصِّدق ثلاث صفات ضابطة لسلامة اللسان بل سلامة الحياة، وبها ينضبط المثَلُ القائل "إذا كان الكلام مِن فضّة فالسكوت مِن ذهب"، ولا يكون مبدأ عاما يصلح لكلّ زمان ومكان؛ لأنّ السكوت في بعض الأحايين قد يكون نحاسا لا ذهبا ولا فضّة، وكذا الكلام تحت بعض الظروف. وفي ذلك قال الحكيم أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أنصِف أذنيْك مِن فِيك، فإنّما جُعلَت أذنان وفم واحد، لتسمع أكثر ممّا تتكلّم"، كما أوصىٰ لقمانُ الحكيم ابنَه فقال:

يا بني إن غُلِبتَ على الكلام، فلا تُغلَب على الصمت، فكُن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول: إني ندمتُ على الكلام مرارا ولم أندم على الصمت مرّة واحدة.

وهو ما طبّقه بعض السلفُ الذين صنَّفوا مُخرَجات اللسان إلىٰ ما هو ضرر محْض فاجتنَبوه، وإلىٰ ما لا ضرر فيه ولا نفع فتَركوه، وإلىٰ ما به بعض ضرر وبعض نفع فاحترَزوا منه، وإلىٰ ما هو خيْر محض ففعلوه.

بما يَعني أنّهم حفظوا ألسنتهم أشدّ مِن حفظهم لذهبهم ونقودهم، وصانوها صيانة أشدّ من صيانتهم لبيوتهم وضِياعهم؛ حتّىٰ ليَعُدّون الكلامَ عَدّا، ويَحسبون اللسان سبُعا إن أَفلتوه مِن عقاله التهمهم، بينما رأوا في طول حبْسه مَنقَبة ومَحمَدة. وفي ذلك رُوِي أنَّ الربيع بن خثيم كان يضع قرطاسا بين يديه، فيكتب كلَّ ما يتكلّم به، ويُحاسب نفسَه عشيّته، مالَه وما عليه، ويقول: "أوه نجا الصامتون وبقينا"، بل إنَّ بعضَهم كان يَضع حصاةً في فمه ولا يُخرجها إلّا إذا تَيقَّن بأنَّ ما سيتكلّم به لله وفي الله، أمّا ابن خاتمة الأندلسي فقد صاغ ذلك المعنىٰ شعرا يقطر حكمة بقوله:

لـسانك اسْـجنْ ولْتُطِـلْ حبْـسَهُ إنْ شـئتَ إكرامـا وتـصوينا

لـو لـم يكـن للـسجنِ أهـلا لَمـا غـدا بقعـرِ الفـم مـسجونا

(10) الدّاءُ العُضال

لو تَسنَّىٰ لنا ترتيب أعداءِ الإنسان وخصومِه، فمَن يا تُرىٰ يكون أعْداهم وألدّهم خصومة؟ ولو عَدّدْنا الأدواءَ والآفاتِ التي تفتك بالأفراد، فمَن يا تُرىٰ يكون أعْضلها وأفْتكها؟ ولو عِشنا لحظة صِدْقٍ أَحْصينا فيها نقائصَنا ومَعايبَنا، فما هي يا تُرىٰ أوْضحها وأبْينها؟ ولو غادرْنا المستوىٰ الفردي إلىٰ المستوىٰ الجماعي؛ وتَأمّلْنا حالَ مجتمعاتنا المتخلِّفة التي تحتلّ القاع وتقبع في ذيْل الأمم، فما هو يا تُرىٰ أبرز مُعوِّق يَحول دون النهوض مِن كبوتها واليقظة مِن غفوتها والشفاء مِن علّتها؟

نعم..عن الكسل أتحدّث وإيّاه أعنِي؛ فهو التثاقل والتراخِي عمَّا لا ينبغي التثاقل فيه أو التراخي عنه مِن أمور الدِّين والدنيا، وهو العطالة والبطالة التي قال عنها الراغب الأصفهاني في كتابه (الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة): "مَن تعطَّل وتبطَّل؛ انسلخ مِن الإنسانيّة بل مِن الحيوانيّة، وصار مِن جنس الموتىٰ". وقد عرّفه الإمام النّووي بأنّه عدم انبعاث

النفْس للخير وقلّة الرغبة مع إمكانه، وعدَّه ابن عباس أبًا شرعيّا للفقر فقال: "تزوَّجَ الكسلُ التَّوانِي فولدا الفقر"، وتهكّم منه أنيس منصور فقال: "الكسول يخشىٰ الذهاب في الشمس حتىٰ لا يجرّ خياله وراءه"، وسخرت مِنه الأمثالُ فقالَت:" لو أَعطيتَ الكسولَ بيضة لطَلب منك أن تقشِّرها له"، وقالت أيضا: "اقعدوا يا حمِير حتىٰ يَنبت لكم الشّعير". ويَكفيه مَذمَّة ومَساءة؛ أنّه ممّا اتَّصف به المنافقون: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[1]، وأنَّه رأس حربة الشيطان في الإغواء، ووسادته التي يُخدِّر بها ضحاياه، وخيْله ورَجِله اللذان يستعين بهما في الإفساد. أمّا في اللغة؛ فيُقال هو كَسِل، وهي كَسِلة، وهم كُسالىٰ وكَسْلىٰ.

والواقع أنّه داء قلّما سلِم منه الرجال أو النّساء صغارًا كانوا أو كبارا، وهو كذلك بلاءٌ وخيمُ العواقب علىٰ مستوىٰ الأفراد والجماعات؛ إذْ يَهدم شخصيّةَ متعاطِيه فيَذهب بنضارة العُمر ويَفتح نافذة الإهمال ويَشرَع بوابة التخلّف، كما يُعطّل الواجبات ويُخلّ بالمسئوليات ويُضيِّع الأمانات. ولهذا فإنَّ الأممَ الكسولة لا تبني مجدًا ولا تؤسِّس حضارةً ولا يُعوَّل عليها في دقيق الأمور أو عظيمها؛ وإنّما يتفشَّىٰ فيها الفقر ويشيع التسوّل وتنتشر الجريمة، وتُصبح بذلك عالةً علىٰ غيرها وكرةً يُتلاعَب

(1) التوبة 54.

بها، فالكلب الكسول تأكله البراغيث علىٰ حدّ قول المثل الإسباني، ومَن لا يَملك قُوتَه لا يملك قراره، وقد سُئِل بعضُ البرامكة عن سبب نكبتهم وسرّ زوال مُلكهم، فقالوا: "نوْم الغدوات وشرْب العشيّات".

وقد أُجرِيت دراسةٌ حديثةٌ في هونج كونج، قُورن فيها بين الكسل البدني والتدخين مِن جهة تأثيرهما علىٰ معدّل الوفيات، وتبيَّن أنَّ الكسلَ البدني أنكىٰ أثرًا وأشدّ ضررًا مِن التدخين! كما قامت منظمة الصحة العالمية قبل سنوات، بإجراء دراسة شملت أشخاصًا تجاوزَت أعمارُهم الخامسة عشرة مِن كِلا الجنسيْن في 120 دولة حول العالم، وخَلُصت إلىٰ قائمة تضمّ أَكْسل 20 شعبًا حسب مؤشِّر القياس الذي تَبنَّتْه، واعتمد علىٰ نسبة مزاولة النشاط البدني اليومي بين العيِّنات المُختارة من كلّ دولة، وفيه صُنِّفت ثلاثُ دول خليجية في ترتيب متقدِّم من القائمة؛ وهي السعودية والكويت والإمارات، ثمّ نبَّهت الدراسةُ علىٰ أنَّ الكُسالىٰ هم صيد الموت الثمين.

وتتعدَّد مظاهرُ الكسل بحسب توغّله، وبمقدار إحكام قبضته علىٰ رقبة صاحبه؛ فالبدن الكسول يَتقاعس عن العمل ويودّع الرياضة ويتخلّف عن الطاعات ويَحترف الأعذار، ثمّ يُمنِّي نفسَه بجنْي العسلِ في طبق الكسل! ضاربًا عرض الحائط بقول الشاعر أبو الفتح البستي:

وهل سمعتَ بإنسانٍ جنىٰ عسلا يا سخْنة العيْن مِن كوَّارة الكسل

وصامّا أذنه عن قول الرافعي: "أشدّ ما في الكسَل أنه يجعل العملَ الواحد وكأنه أعمالٌ كثيرة". أمّا الذهن الكَسول؛ فيتبلّد ويتكلّس، ولا يفكِّر أو يبدع، ويَرضى بالدُّون ويَهوى العيش وسط الحُفر. وكذلك النفْس تكسل؛ فتنطفئ فيها جذوةُ الحياة، وتذبل شمعةُ الفضول، وينطفئ مصباحُ الشغف. والقلب أيضا يَكسل؛ فيُدْبِر ولا يُقبِل، ويَنأى ولا يَقترب، ويَنعزل فلا يَألف أو يُؤلَف.

بما يَعني أنَّ الكسلَ وَلودٌ لا عقيم، إذْ يَجرّ في أذياله كسلًا تلو كسل ويَتصيّد بشباكه كسلًا فوق كسل، حتىٰ يصبح الكسول مفلوجا بلا فالج ومشلولا بلا شلل..ولذا كان النبي ﷺ دائمَ التعوّذ منه صباحَ مساء بقوله: "اللهمّ إنِّي أعوذ بك من العجز والكسل"، وواضحٌ هنا أنَّ العجز يختلف عن الكسل، إذْ فُصِل بينهما بواو العطف؛ فالعجْز يَقترن بعائق خارجي يَحول دون الفعل بينما الكسل عوائقه داخلية لا غيْر، والعاجز

يمتلك الطاقة ولكنّه يفتقد القدرة بينما الكسول يفتقد الطاقة ويمتلك القدرة، كما أنّ العاجز يبحث عن حلّ بينما الكسول يَختلق العذر تلو العذر، ومِثْله في ذلك مِثْل النعامة التي قِيل لها: احملي وانقُلي، فقالت: أنا طائر، فقيل لها: طِيري وامْرحي، فقالت: أنا بعير!

وعن الأسباب الكامنة، نجد أنَّ الكسلَ يَنبت علىٰ بساط الترَف، ثمّ يتغذّىٰ علىٰ كثرة النوم والبِطنة[1] وطول الأمل، ويَنمو في ظلّ غياب الرؤية الواضحة والأهداف الذكيّة وفي وجود بيئة فاسدة تربويًّا وفكريّا، ويَشبّ بصحبة[2] الكسالىٰ الذين قال فيهم الشاعر:

فـلا تجلـس إلـىٰ أهـلِ الـدّنايا ... فـإنّ أخـلاقَ الـسفهاء تُعـدِي

بينما يَتعمْلق تحت سماء وسائل التكنولوجيا الحديثة التي حَرّكَت الأشياءَ ذاتيًّا وتَحكَّمتْ بها عن بُعد؛ حتىٰ أصبحت المصاعدُ والسلالمُ الكهربائية أقدامَنا التي نمشي بها، وباتت السياراتُ أحذيتَنا التي ننتعلها،

---

(1) عن علاقة الكسل بالشبع يقول التابعيّ المُحدِّث (أبوعبد الرحمن السلمي): "الكسل ميراث الشبع"

(2) في التحذير من صحبة الكسالى، يقول الشاعر (أبو بكر الخوارزمي):

"لا تـصحَب الكـسلانَ في حاجاتـه ... كَـمْ صالـحٍ لفـسادِ آخـرَ يَفـسَدُ

عـدْوى البليـدِ إلى البليـدِ سريعـةٌ ... والجَمـرُ يُوضَـع في الرمـادِ فيخمَـدُ

فضلا عن التجارب التي تَجرِئ علىٰ قدمٍ وساق بغْية تحريك السيارات ذاتيا علىٰ الطرقات مع التحكّم بها عن بُعد!

وقد سجّل صاحبُ كتاب (أسرار المبدعين)[1] شهادتَه علىٰ الكسل فقال: "إنّ حصَدَة جائزة نوبل في الخسران يُرجِعون فضل فشلهم لسبب وحيد، هو أنهم كانوا يضربون الكسل بيدٍ من حرير، بل ويهَبونه ما ملكت أوقاتُهم من ثوان ودقائق وساعات ثمينة، وقد قِيل لبحر بن الأحنف بن قيس: ما يمنعك من أن تكون كأبيك؟ فقال الكسل"..ومعلوم أنَّ (الأحنف بن قيس) كان قائدا محنّكا وخطيبا مفوَّها وسيِّدا مهابا، وكان ولازال مضرب المثل في خُلُق الحِلم فقِيل: "أحلم من الأحنف"، وقيل أيضا: "ذهب الأحنفُ بالحِلم".

وعن بعض الأكاذيب التي يحتال بها الكسلُ علىٰ ضحاياه، يقول العالِم النفسي جوزيف فيراري: "الاعتقاد بأنّ النجاح في مهمّة؛ يحدث فقط عندما تكون هناك رغبة في العمل، اعتقادٌ خاطئ وكذبةٌ من أكاذيب الكسل، فليس بالضرورة أن تكون لديك الرغبة في القيام بالعمل من أجل أن ينجح، ولِتحدِّي الكسل يجب أن تقاوم خمولَك وتنهض ولو دون

(1) الكتاب من تأليف أحمد الضبع.

رغبة، وحين تنجح في المهمة ستدرك أنّ النجاح يأتي مِن وراء العمل وليس من وراء الرغبة فقط". كما فنَّد شيخُنا محمد الغزالي في كتابه (جدِّد حياتك) أكذوبة أخرىٰ من أكاذيب الكسل التي يحتال بها علىٰ الأغْرار فقال:

"كثيرا ما يُحبّ الإنسان أن يبدأ صفحةً جديدة في حياته، ولكنه يقرن هذه البداية المرغوبة بموعد مع الأقدار المجهولة، كتحسُّنٍ في حالته أو تحوُّلٍ في مكانته، وهو في هذا التسويف يشعر بأنّ رافدًا من روافد القوّة المرموقة قد يجيء مع هذا الموعد فيُنشّطه بعد خمول ويُمنّيه بعد إياس، وهذا وهْم"..

وفي هذا رسالةٌ مَفادها؛ أنَّ الرغبةَ تُولَد ولا تُوهَب وتُنتَج ولا تُمنَح، وأنَّنا نحن مَن نَصنع الظروفَ ونُطوّعها وليس العكس، وأنَّ حِيلَ الكسالىٰ وأعذارَهم لا تنفد حتىٰ ليَصْدق فيهم المثلُ القائل: "يترك الصلاةَ ويقول بابَ الجامعِ مغلَق!".

والحقّ أنَّ كُلًّا منّا له ثأر مع هذا العدوّ اللدود؛ فكَم مِن فرصٍ ثمينةٍ مرّت أمامَنا وما منعنا من التقاطها إلّا الكسل، وكم مِن خطّةٍ عمَلٍ تبعْثرَت وذهبَت شذَر مَذر بسبب الكسل، وكم مِن أهدافٍ ذكيّةٍ نامت في أحضان الفشل بعدما وأَدها الكسل، وكم مِن مَراقي ومعارج وقفْنا علىٰ أعتابها ولكن حال بيننا وبين بلوغها الكسل، وكم من طاعةٍ حُرِمنا ثوابها وعبادةٍ فاتَنا أجرُها بعدما تَحالف علينا الشيطانُ والكسل.. ولذا فالقصاص واجب بسبع رصاصات في قلْب هذا الكسل؛ إذْ العيْن بالعيْن والسِنّ بالسِنّ والكسل أظْلم.

وإذا كانت معرفة الأسباب نصف الدواء، وكان في القصاص حياةٌ لأولي الألباب؛ فإنَّ علاجَ الكسل والقصاصَ منه يَكمن في الاستعاذة والاستعانة، والصبر والمثابَرة[1]، والاطّلاع علىٰ سِيَر المجتهدين ونجاحات العظماء، ومرافقة ذوي الهمم الذين نفضوا أيديَهم عن الكسل وكسروا عكّازه وغسلوا عيونَهم منه، مع اجتناب الخاملين الذين سُلِبوا روح المبادرة وفضَّلوا دفء الفراش علىٰ تسجيل الأهداف في شباك الحياة الفارهة.

---

(1) قِيل لعنترة: كيف غلبتَ الرجال؟ قال: بصبر ساعة، وقِيل أيضا: ما نَبتَ إلّا ما ثَبَت.

وكذلك يرتكز علىٰ إدراك معنىٰ الحياة بحسبانها محلّ اختبار، وتقدير قيمة الوقت باعتباره أغْلىٰ ما يُمتلك وبوصفه المادّة الخام التي يَصنع منها الأحياء مالًا وعِلمًا وصِحَّةً وعبادة، مع استحضار مآلات الكسل والاعتبار بمَن سبق والإصغاء إلىٰ ما قاله أحدُ السلف: "مَن تَلمَّحَ ثمرةَ الكسل اجْتنَبه" وإلىٰ ما قاله ابن الجوزي: "مَن تَلمَّحَ فجْر الأجْرِ هان عليه ظلامُ التكليف"، والانتباه جيدا إلىٰ اللغة السلبيّة التي تَجري علىٰ ألسنتنا وتُمهِّد الطريق لبرمجة العقل الباطن وضبْط موجاته لاستقبال تردّد الكسل؛ فقد ورد أنّ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان يكره مجرّد القول إنّي كسلان، كما ورد أنَّ التثاؤبَ مِن الشيطان لأنَّه شهيق النوم ورِيح الكسل.

ولأنَّ كلَّ مُجِدٍّ في شيء لابدّ أنْ يَعرض له وقْفةٌ طارئة وفُتورٌ عارِض؛ فإنّ الفُتورَ علىٰ هذا النحو ليس كسلا، بل هو لِينٌ بعد شِدّة وسكونٌ بعد حِدّة، وإنْ شئتَ فقُلْ هو استراحةُ محارِب نلتقط فيها الأنفاس ونُرتِّب خلالها الأوراق ونستجمع القُوىٰ بعد شتات؛ لنعود لسابقِ عهدنا في شدّةٍ لا يَعتريها رِدّة وفي كَرٍّ دون فَرّ، فالإنسان في حياته يَتأرجح بين شِرّةٍ يَنشط فيها ويؤدِّي واجباتِه علىٰ الوجه الأكمل، وبين فَترةٍ يَتراجع خلالها نشاطُه ويقلّ إنتاجُه، ولكنه يلتزم بواجباته في حدِّها الأدنىٰ دون أن يَطأ عتبة العطالة والبطالة، وفي أثناء ذلك يَلزم سياسةَ النفْس وقيادتَها بحكمة حتىٰ

لا تنزلق إلىٰ متاهة الكسل ونفق الفراغ. ويُمكننا هنا تشبيه الكسل بإشارة المرور الحمراء التي تتوقّف عندها الحركة، وتشبيه النشاط بالإشارة الخضراء التي تدّب عندها الحياة في الأوصال، بينما الفتور ليس إلّا إشارة الانتظار الصفراء. وجديرٌ بالذِّكر أنَّ التعبَ والإرهاق الناتج عن مرضٍ بدني أو اضطرابٍ نفسي أو كِبَرٍ وهِرَم، لا يَدخل ضمن تعريف الكسل الذي يُشترَط فيه القدرةُ ويَنتفِي فيه العجْز.

وكما للبخلاء أخبار وحكايات رواها الجاحظ، وللحمقىٰ والمغفّلين روايات وقصص نقلها ابن الجوزي؛ فإنّ للكسالىٰ أيضا حكايات يَضحك منها الشيطان حتىٰ لَيستلقِي علىٰ قفاه ويَرفس برجليْه في الهواء، ومنها ما جاء في كتاب (البصائر والذخائر) لمؤلِّفه أبي حيان التوحيدي مِن أنّ أحد مُلَحاء العرب يُدعَىٰ عيسىٰ بن زيد المراكبي قال: كان لي غلامٌ مِن أكسل خلق الله، فوجَّهتُه يومًا ليشتري لي عنبًا وتينا، فزاد وأَبطأ علىٰ العادة، ثمّ جاء بعد مدّة بعِنب وحده، فقلتُ له أَبطأْتَ حتىٰ نوَّطتَ-أي أَسْأمتَ وأَضْجرتَ- الرّوح ثمّ جئتَ بإحدىٰ الحاجتيْن؟!فأوجعْته ضربا وقلت: ينبغي إذا استقْضيتُك حاجة أن تقضي حاجتيْن لا إذا أمرتُك بحاجتيْن أن تجيء بحاجة، ثم لم أَلبث بعدها أن وجدتُ عِلّة، فقلتُ له: امض فجِئْني بطبيب وعجِّل، فمضىٰ وجاءني بطبيب ومعه رجل آخر، فقلت له: هذا

الطبيب أعرفه، فمَن هذا؟! قال: أعوذ بالله منك، ألم تضربني بالأمس علىٰ مِثل هذا؟! استخْدمْتَني في حاجة فقضيتُ لك حاجتيْن، جئتُك بطبيب ينظر إليك، فإنْ رجاك وإلّا حفر هذا قبرَك، فهذا طبيبٌ وهذا حفّار.

الفصل الثاني

نبَضاتٌ للقلب

(1) عبوديّة القلب

لا يَخفَىٰ علىٰ الجميع أنَّ لِكلِّ شيء صورة وأصل، قِشرة ولبّ، مَظهر وجوهر، ظاهر وباطن، وبدَن وروح. ومع لزوميّة الصورة والقشرة، وأهميّة المَظهر والظاهر والبدن؛ فإنَّ مَدار الأمور علىٰ أصْلِها ولُبِّها وجوهرِها وباطِنِها وروحِها؛ وذلك لكوْن القلوب محلّ نظر الله سبحانه، وباعتبار العقول هي سرّ التكليف وفحوىٰ الأمانة التي بادر الإنسانُ بحملها، وبحسبان الأرواح جسْر التواصل الحيّ مع الله في علْيائه. وعلىٰ هذا المسلَك كان دأْب العقلاء ونهْج الحكماء وديْدن الصالحين، وفيه جاء الحديث النبوي الشريف: "إنَّ الله لا يَنظر إلىٰ أجسادكم ولا إلىٰ صوركم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم". ولعلّ في ذلك التفاتة إلىٰ وجوب ترتيب الأولويات في كلّ مناحي حياتنا العَقديّة والعِباديّة والسلوكيّة، ودعوة إلىٰ التركيز علىٰ الأصول قبل الفروع، والنفاذ إلىٰ اللباب دون القشور؛ حتىٰ نَجني الثمار يانعة ونَقطف الفائدة كاملة..فالسّيْر إلىٰ اللهِ

سيْر قلوب لا سيْر أقدام، والخضوع خضوع قلوب لا خضوع قوالب، والقلوبُ طيورٌ لا يَصفو لها حالٌ إلّا إذا تَناءَت عن الأرض واقتربَت مِن السماء، ومَن أَقبل بقلبه علىٰ الله أَقبل اللهُ عليه وأَتىٰ بقلوب العبادِ إليه.

ولأنَّ أركانَ الإسلام هي ضربة البداية وبوّابة الدخول ومفتاح الولوج؛ فحَرِيٌّ بنا أن نتذكَّر بأنّ شهادة التوحيد "لا إله إلا الله محمّد رسول الله" لو كانت مجرّد كلمة تُقال، لَما مكث النبي ﷺ أكثر من نصف عمره الدعوي -الذي امتدّ ثلاثة وعشرين عاما- يُؤصِّل لها بين رجالات دار الأرقم، ويُثبِّت أركانِها في نفوس الصحابة الأوائل بمكّة. ولو كانت محض لفظة تُلفَظ؛ لَما ماطل كفّارُ مكّة في الاستجابة لها مِن فورهم، وجَنَّبوا بذلك أنفسَهم وأهلِيهم كثيرا مِن النِّزاع والشِّقاق. ولكنّها في جوهرها وباطنها-كما يقول علماء التوحيد- عِلمٌ يُنافي الجهل، ويَقينٌ يُنافي الشكّ، وقبولٌ يُنافي الردّ، وانقيادٌ يُنافي التَّرْك، وصِدقٌ يُنافي النفاق، وإخلاصٌ يُنافي الشِّرك، ومَحبَّةٌ تُنافي ضدّها. وهو ما يَدعونا إلىٰ تَلمُّس هذه المعاني والعيْش فيها، لتُشرق دعوةُ التوحيد في قلوبنا ويَكتمل بدرُها في سماء أرواحنا؛ فتنعَم النفوسُ بالسكينة، وتُحلّق الروحُ علىٰ مَتن الطمأنينة، وينام القلبُ ملء جفونه علىٰ وسادة الإخلاص. كما تَجتمع بذلك كلمةُ المسلمين علىٰ الحقّ، ويَتحقّق لهم السُّؤدد في الأرض والرِّفعة في السماء.

وكذلك الصلاة التي افتقدَت روحَ الخشوع[1] فصارت حركات ثنْي ومَدّ، وباتت قوالب آليّة باردة يَسبقها التكبير ويَليها التسليم. والحقيقة أنها لو كانت كذلك؛ لَما فُرِضت بالأمر المباشر مِن فوق سبع سماوات، وكانت عماد الدين وركن الإسلام، وأوّل ما يُحاسَب عليه العبد يوم القيامة. ولَما كانت العهدَ والميثاقَ بين اللهِ والعباد، واستحقّت تعظيم الله لها بتكرار ذكرها في بضع وتسعين موضعا قرآنيا. ولكنّها في جوهرها وقْفة بين يدي الله سبحانه، ومُشافَهة معه جلّ علاه، واسْتحضارٌ قلبيّ وذهنيّ لرؤياه عَزّ جاهُه، بل ما سمِّيت صلاة إلّا لأنها صلة بين الأرض والسماء وبين العبد وربّه. كما أنها في حقيقتها توبةٌ وإنابة، وطهارةٌ ومناجاة، وبالطبع لا يُستساغ دخول حرَم المناجاة، إلّا بعد التّخلية مِن وحْل الدنيا والتخلّص مِن مشاغل الحياة؛ علىٰ اعتبار أنَّ خيْر العبادات ما تَفرّغ لها الذهن، وشغف بها القلب، ونشطَت لها الجوارح، وتاقت لها الروح.

وفي ذلك دعوة أيّما دعوة إلىٰ التّأسِّي بصلاة ابن تيمية التي وصفها (البزار) قائلا: "كان إذا أَحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوبُ لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، وإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتىٰ يَميد يَمْنة

(1) الخشوع مِن الفعل خشع، وهو كما يقول (أبو العباس ابن تيمية) يَتضمّن السكون والتواضع.

ويَسْرة". أو صلاة ابن الزبير خلف المقام حين انتصب كالعُود؛ فسكَن بدنُه وحضر قلبُه وغاب عن الوجود، حتىٰ لَيتساقط المنجنيقُ عن يمينه وشماله مِن مدافع الحَجّاج التي نُصبت فوق جبل أبي قبيس، فلا يَكترث لها ولا يَأبه بها! أو صلاة مالك بن دينار الذي أُهدِي إليه ركْوة، أي إناء يستعمله في وضوئه وفي حاجاته، وبعد أيام نادىٰ صاحبَها قائلا: خُذ ركوتَك ، فإني إذا دخلتُ المسجدَ جاءني الشيطانُ وقال لي: يا مالك، إنّ الركوةَ قد سُرِقت، فقد شغَلَتْ عليّ قلْبي.

وإذا ما تحقَّق لنا ذلك؛ خرجنا -ولا ريب- مِن الصلاة بغير الوجه الذي دخلنا به؛ إذْ نَبرأ مِن الذنوب، ونَنعم بالراحة، ونعتاد ضبط الوقت، ونَفرح بالحياة، ونَشتاق لمعاودة الصلاة[1]، ويتحقَّق فينا قول الحقّ سبحانه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢﴾[2].

وعلينا هنا الانتباه إلىٰ أنّ الشارع جلّ في علاه كان بإمكانه أن يجعل الدخول إلىٰ الصلاة يمرّ عبر مسّ شيء من الطِّيب، أو ارتداء ثوب

---

(1) في الحثِّ على عدم إقراض تارك الصلاة؛ قال شاعر حكيم:

مَـن لم يُـصلِّ فـلا تُقْرِضـه خردلـة ... ولـو تـراءى دخـانُ الجـوع مِـن فِيـه

مـادام فـرض الـذي أنـشأه لم يَفِـهِ ... فلـيس يُـسأل عـن قـرضٍ فيُوفيـه"

(2) المؤمنون 1-2.

مخصّص يليق وكفىٰ، ولكنه سبحانه جعل شرط الدخول إمّا ماء للوضوء أو ترابا للتيمّم؛ وما ذلك إلّا لأنّ مادّتي الخلْق والحياة هما الماء والتراب، والصلاة علىٰ وجه الحقيقة هي أيضا خلْق وحياة.. وطُوبىٰ لمَن ذلك فقِه، ثمّ وعَىٰ أنّ الصلاة ركن الأركان؛ لأنها تحمل في أعطافها روح بقيّة الأركان الأربعة من شهادتيْن وزكاة وصوم وحجّ.

أمّا الزكاة التي هي النّماء والزيادة والبركة والطُّهْر؛ فليسَت جُودًا علىٰ فقير وتَفضُّلًا علىٰ مسكين، أو جبايةً مِن غَنيّ وضريبةً علىٰ ميْسور. بل هي عبادة وشريعة، نُؤدِّي بها حقّ الله في المال الذي رُزِقناه، طواعية دون جبْر، وبغبطة دون ضجَر؛ فرُوحها التكافل والتضامن والتراحم بين إخْوة الإسلام والإيمان، وجوهرها الشعور بالآخَر والانشغال بحاله والانضمام إلىٰ صعيده، وباطنها تزكية النفس مِن البُخل والأنانيّة، وعلىٰ أثرها تَختفي الطبقيّةُ ويَسود الوئامُ ويَعمّ الرخاء، كما يَسلم المجتمعُ مِن آفات الغِلّ والحقد ويَنجو مِن جرائم السرقة والسّطو. وقد ذكَر العلماءُ أنّ الزكاةَ ما سُمِّيت صدَقة؛ إلّا لأنها تَدلّ علىٰ صِدق إيمان فاعلها. وما كان النّماء معناها؛ إلّا لأنها تُنمِّي المالَ الذي لا يَنقص بل يَزيد، وتُنمِّي شخصَ المُزَكِّي حين يُعطِي فينشرح صدْرُه، وتُنمِّي ذاتَ المُزَكَّىٰ إليه حين نُشعره بإنسانيته ونَنتشله مِن وهْدته. وما كانت الطهارة مِن معانيها؛ إلّا لأنّها تُطهِّر

نفسَ المُزكِّي مِن الشحّ، وتُطهِّر نفسَ المُزكَّىٰ إليه مِن الحسَد، وتُطهِّر المال وتُنقِّيه. وقد وصف صاحبُ الظلال إيتاءَ الزكاة بأنّها:

"تَأديةٌ لحقِّ المال، وانتصارٌ على شحّ النفس، وتَطهُّرٌ من الحِرص، وغلَبةٌ على وساوس الشيطان، وسَدٌّ لخَلّة[1] الجماعة، وكَفالة للضِّعاف والمَحاويج".

والصوم أيضا ليس بحرمانٍ مِن الطعام أو ظمأٍ في الهجير؛ بل هو مدرسةٌ تربويّة؛ روحها الصبر، وثمرتها التقوىٰ[2] ، وشرْطاها الإيمان والاحْتساب؛ فيُحكِم فيها الصائمُ سياسة شهواته، ويَلتفت إلىٰ الفقراءِ مِن إخوانه[3]، ويُعيد الصّلة بالقرآن، ويَكسر أغلال العادات، ويَنهل مِن فيْض

(1) الخَلّة بفتح الخاء هي الفقر، والخُلّة بضم الخاء هي المَحبّة، ويُقال في المثل: "إذا جاءت الخَلَّة ذهبت الخُلّة".

(2) أكْملُ درجات التقوى وأعلاها؛ هي ما يَجري فيها فِعل الواجبات، وترْك المُحرَّمات والشُّبهات، إضافة إلى فِعل المَندوبات وترْك المكروهات.

(3) يقول أديب العربية (مصطفى صادق الرافعي):"الصوم فقر إجباري تفرضه الشريعة على الناس فرضا ليتساوى الجميع، ومتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير، أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ، فيسمع الغني في ضميره صوت الفقير أعطني، ولا مفرّ من تلبيته كما يُواسي المبتلى مَن كان في مثل بلائه".

عطاءات الله، ويَتهيّأ للدخول مِن باب الريّان... بما يَعني أنَّه موسم طاعة يَتطهّر بموجبه الصائم حِسِّيا ومعنويًّا، بعد أن يترقَّىٰ مِن صوم العموم؛ الذي يَكتفي بالامتناع عن شهوة البطن والفرْج، إلىٰ صوم الخصوص؛ الذي تصوم فيه سائرُ الجوارح مِن سمْع وبصَر ويَد ورِجل ولسان فتمتنع عن ارتكاب الشرور واقتراف الآثام، ثمّ إلىٰ صوم خصوص الخصوص؛ الذي يَصل فيه الصائم إلىٰ أعلىٰ المراتب؛ فيكفّ قلبَه عن الهِمم الدنيئة، ويَكسر حُجُب الغفْلة وأقفال الانشغال، وذلك علىٰ حدّ تصنيف الإمام الغزالي للصوم في كتابه الشفيف (إحياء علوم الدين). وفيه ذكر الغزالي أيضا بخصوص الفوائد الجمّة للجوع الذي يكابده الصائم؛ أنه يَعمل علىٰ صفاء القلب ونفاذ البصيرة، وزوال البطر والأشر، وتَذكُّر بلاء الله وعذابه، وكسْر شهوات المعاصي، والنزوع نحو الانتظام في العبادة، والميْل إلىٰ الإيثار والتصدّق بالفضل، مع قلّة النوم واستثمار أفضل للوقت.

ويَبقىٰ الركن الخامس والأخير وهو الحجّ(بفتح الحاء وكسرها) الذي يُسمَّىٰ عبادة العُمر وجهاد الضعفاء؛ فهو كذلك ليس محْض رحلةٍ إلىٰ بلد الله الأمين، وسياحةٍ بين أقْدس البقاع، وطوافٍ حول بيت الله الحرام؛ بل فيه مِن اللطائف والدقائق، ما يَسوقنا إلىٰ الله سوْقا، ويُعيننا علىٰ عاديات الزمَن وصوارف الأحوال؛ إذْ تتمثّل فيه معاني الوحدة والمساواة والنظام

والزهد، وتَتجلّىٰ فيه أمارات الامتثال والصبر والجهاد وحُسْن الخلُق. كما تَتجسّد فيه الآخِرة رأْي العيْن؛ مع لباس الإحرام الشبيه بالأكفان، ومع القدوم مِن كلِّ فجٍّ عميق وكأنّه يوم البعث، ومع الوقوف في صعيد عرفات في مشهد لا يُوازيه إلَّا مشهد الحشْر يوم الدِّين. والواقع أنّه لولا شعيرة الحجّ لَما طرق بابَ مكّة طارق ولَما هفَت إليها نفْس؛ إذْ تَخلو من النسيم العليل الذي تقرّ به العيون، وتَفرغ من الأنهار والمروج الكفيلة بجعْل فصول القلب ربيعًا لا خريف فيه ولا شتاء..وانظر يا رعاك الله كيف أن العوّادين إلىٰ الحجّ ثلاثة أضعاف البادئين به، ثمّ استخلِص أنّ العشقَ لبُّ العبادة والشوقَ وقودُها.

وعلىٰ هذا، فالمسلمَ الحقّ؛ هو الذي خرج مِن تصوُّرٍ مغلوط يقوم علىٰ أنّه يكفي أن يُسلِم اللسانُ فيلفظ الشهادتيْن، ويُسلِم البدنُ فيؤدِّي العبادات. ثمَّ دخل إلىٰ تصوُّرٍ منضبِط؛ يُسلِم فيه القلبُ والعقلُ والروح، جنبًا إلىٰ جنب مع إسلام اللّسان والبدن؛ حتىٰ لتُسْلِم كلُّ خَلْجة مِن خلَجات مشاعره، وكلُّ شاردةٍ مِن شوارد ذهنه، وكلّ نواة في خلايا جسده.

والحقّ أنَّ واقعَنا يَأْسَف ويَأْسَىٰ؛ لأنَّ كثيرين هم مَن يُؤدّون عبوديّة الجوارح وقليلين هم مَن يؤدّون عبوديّة القلوب، بل إنَّ المنافقين ما كانوا

كذلك؛ إلّا لأنهم برعوا في عبادة الجوارح ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾[1]، بينما كانوا صفر اليديْن في عبوديّة القلوب، التي هي أصلٌ وليست فرعا، وجوهرٌ وليست مظهرا، وبها يَتفاضل الخلْق بين يدَي الديّان، ولَا أدلَّ علىٰ ذلك مِن أنّ النيّة[2] التي هي رأس العمل ومعيار النّجاة؛ محلّها القلْب لا غيْر. وهو عيْن ما ذكره ابن القيّم رحمه الله في (مدارج السالكين) حين قال: "عبوديّة القلب أعظم من عبوديّة الجوارح وأكْثر وأدْوم، فهي واجبة في كلّ وقت"، وحين أضاف: "أعمالُ القلوب أصلٌ لعمل الجوارح، وأعمالُ الجوارح تَبَع"، وحين نبّه إلىٰ أخطر قطّاع للطرق من الهوىٰ والشيطان بقوله: "بين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قُطّاع تمنع وصول العمل إلىٰ القلب. ثم بين القلب وبين الربّ مسافة، وعليها قطّاع تمنع وصول العمل إلىٰ الربّ". ويكفينا في ذلك حديث المُفلس الذي سَأل النبيُّ ﷺ أصحابَه عن معناه، وجاء الجواب مِن مَعين النبوّة، بأنّه ذاك الضليع في عبوديّة الجوارح، فقَدِم علىٰ

---

(1) المنافقون 4.

(2) تُعرَف النية بأنها عزْم القلب على عمل، فرْضا كان أو تطوّعا. وبحضور النية نخرج من عداد أهل الغفلة إلى أهل اليقظة؛ فالعبادات -كما قيل- لأهل الغفلة عادات، والعادات لأهل اليقظة عبادات.

الله وفي جعبته صلاة وزكاة وصيام وحجّ، ولكنّه لسوء طويّته وفساد نيّته وخراب عبوديّته القلبيّة، قد باء بشتْم هذا وظُلم ذاك، وأكْل أموال هذا وسفْك دماء ذاك؛ فكان خليقًا بوصْف الإفلاس، وحَريًّا بالطرْح في النّار.

(2) الدَّيْنُ الذي لا يَنقضِي

لم يبالغ جبران خليل جبران عندما قال: أجمل ثلاث نساء في العالَم: أمِّي، وظلّها، وانعكاس مرآتها.. فلو كان العالَمُ كتابا لكانت الأُمومةُ أبْلغ وأفْصح مقدّمة له، ولو كانت الدنيا بستانا لكانت الأمومةُ أشْهىٰ وأعْذب ثمرة فيه، ولو كانت الحياةُ مَنْجما لكانت الأمومةُ أثْمن وأنْفس معدن به.. ولعلّها الأَوْلىٰ والأجْدر بوصف المنفلوطي حين عمّم ولم يخصّص فقال: "ما المرأة إلّا الأفق الذي تشرق منه شمس السعادة علىٰ هذا الكون فتثير ظلمته، والبريد الذي يحمل علىٰ يده نعمة الخالق إلىٰ المخلوق، والهواء المتردّد الذي يهب الإنسان حياته وقوّته، والمعراج الذي تعرج عليه النفوس من الملأ الأدنىٰ إلىٰ الملأ الأعلىٰ".

وعلىٰ الرغم من اطِّرادها في الحيوانات والطيور، دونما استثناء لأسدٍ ضارٍ أو وحْشٍ كاسرٍ أو نسْرٍ جارح؛ بغْية تغذية الصّغار وتأمينهم ضدّ الأخطار، وتهيئتهم لخوْض غمار الحياة؛ إلّا أنّها -أي الأمومة- في البشَر

أكثر تعقيدًا وأكْمل تركيبا؛ وذلك بالنظر إلىٰ جلال رسالتها المُتضمِّنة للرعاية البدنيّة والعقليّة والنفسيّة، إلىٰ جانب دورها في التنشئة الدِّينية والدُّنيوية، وباعتبار سموّ مهمّتها في بناء إنسان العمارة والخلافة والعبادة. وربّما لهذا كانت فترة الاحتضان في الأمومة الإنسانية هي الأطْول علىٰ الإطلاق ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[1]، حتىٰ إنّك لواجِدٌ صغارَ بعض الحيوانات تَروم العيْشَ بمفردها وتَقَوىٰ علىٰ ممارسةِ دوْرِها؛ بمجرّد ولادتها، أو بعد حضانةٍ لا تستغرق سوىٰ بضعة أيام.

ونظرا لِما تتطلَّبه الأُمومةُ مِن جلَد وصبْر ونصَب وتعَب؛ حتىٰ إنّها لو تَجسَّدت في ثقل لَما أَقدم علىٰ رفعه بطلُ الأبطال، ولو تَمثَّلت في مهنة لكانت الأَشقّ والأَعْنت ومِن ثَمّ الأَبْور والأَكْسد..فقد جعلها الله–سبحانه وتعالىٰ– غريزة مَركوزة في الإناث، وفطرة عميقة تحلم بها الفتيات وتَحنّ إليها النّساء وتبتهج بقدومها الزوجات وتَأسىٰ لفقْدها العاقرات، كما أَمَدّ[2] المرأةَ بعاطفة جيّاشة فوّارة تُناسب مهمّتها، وجعَلها أقوىٰ مِن

(1) الأحقاف 15.

(2) في الاختلاف الفسيولوجي بين الرجل والمرأة، ذكرت الأبحاث أن الجهاز الحافي (limbic system) المسئول عن العواطف أكثر نشاطا وأكبر حجما في المرأة، وأن دماغ المرأة يفرز مسكِّنات الألم الداخلية (الإندورفينات) بنسبة أعلى.

الرجل في تَحمّل الآلام؛ إذْ علىٰ الأمّ أن تحمِل في أحشائها ثقلا يُرافقها كظلّها، ويُقاسمها الطعامَ والشراب، ولا يُفارقها حال اليقظة أو عند المنام أو حتىٰ في الحمّام ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾[1]، إلىٰ أن تَحين لحظةُ المخاض الذي يُزلزل كيانَها ويُمزّق أعماقَها ويَقذف بها إلىٰ أتون الوجع وشفا الموت، وبعده تبدأ رحلة معاناةٍ جديدة قوامها التربية والاحتضان والتعليم. فضلا عن أنّ المرأة -كما يقول علماء النفس- أكثر تعلُّقًا بكلِّ ما هو إنساني، وأكثر اقتدارًا مِن الرجل في ميدان العلاقات الاجتماعية والعاطفية؛ وهو ما يؤهِّلها لحمل شارة الأمومة وامتلاك زمامها.

وفي هذا يَحكِي أنيس منصور -ولا أدرِي مِن أين يغرف حكاياه- أنَّ العلّامة أبا الأسود الدؤلي اختلف مع زوجته علىٰ الطلاق وحضانة الأطفال، فقالت الزوجةُ أمام القاضي: أنا مَن حملْت وتعبْت وأنا الأَوْلىٰ بحضانة أطفالي، فقال أبو الأسود: أنا حملْته قبل حملك وأنا الأحقّ بهم ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ٧﴾ [الطارق:7] ، فردَّت الزوجة قائلة: حملتَه أنتَ خفيفا في ظهرك بينما حملتُه أنا ثقيلا في بطني، فحَكَم القاضي للزوجة بالحضانة...وبالتأكيد لا يُعقَل أنّ أبا الأسود (ظالم بن عمرو الكناني) فاته

(1) لقمان 14.

أنّ إناث الطيور هي التي تبْني الأعشاش لا ذكورها، أو ما وصله شعر أبي العلاء المَعرّي حين قارن في لزومياته بين جميل الأمّ وجميل الأب قائلًا:

"وأَعــطِ أبــاك النــصف حيًّــا وميتــا
وفــضِّل عليــه مــن كرامتهــا الأُمّــا
أَقلّــكَ خِفًّــا إذْ أقلَّتْــكَ مُــثقِلا
وأَرضــعَتِ الحــوليْن واحتملَــتْ تِمّــا
وأَلقتْــكَ عــن جَهــدٍ وأَلقــاكَ لــذّة
وضــمَّت وشــمَّت مثلمــا ضــمّ أو شــمّا"

وهنا لا نستغرب المثلَ الشعبي الذي يقول: "القِرد في عيْن أمِّه غزال"، ولا نُخطِّئ المثلَ العربي القائل: "القَرْنَبَىٰ في عيْنِ أُمِّها حسَنَة"[1]، إذْ للأمومة مرآة متفرِّدة تعكس صورة بَنِيها علىٰ صفحة فؤادها لا علىٰ شبَكيّة عيْنها، وتَحكم عليهم بقانون الحدب والحُبّ لا قانون العقل والواقع؛ فنجدها تنصفهم حين يدينهم الجميع، وتصدِّقهم حين يكذِّبهم الكُلّ، وتحسبهم صغارا حتىٰ لو تَقدّم بهم العمر، وتُعاينهم غُزلانا في الرشاقة والجمال حتىٰ لو أَجمع العالَمُ علىٰ أنهم ليسوا إلّا قرودا في الدّمامة

(1) القَرْنَبَى؛ دويبة كالخنفسة طويلة القوائم.

والقبح، وكأنّ الأمومة فرشاةٌ تعيد رسم خريطة القلب، وقلمٌ ينسخ مفردات الوجدانيات من جديد...وهو ما يُفسِّر المثل العربيّ القائل: "حَسَنٌ في كلِّ عيْنٍ مَن تَودّ"(1)، ويُسوِّغ الحنانُ الذي يهطل كالغيث علىٰ قلوب الأمّهات..

ومعلوم أنّ الحنان مَحبّة يُغلِّفها شفَقة وميْل، بينما الأُمومة مُشتقّة مِن الأُمّ، وفي اللغة يُقال أُمّ الشيء أي أصله وعماده، وتُجمَع الأُمّ علىٰ أُمّهات للعاقل، وعلىٰ أُمّات لغير العاقل فيقال أُمّات الكتب وأمّات المُدن. وقد احتفَت لغة الضاد بالأُمّ فأضافتْها إلىٰ كلمات عديدة لِتخلق منها معانٍ حديثة ودلالات جديدة؛ فقالَت في الفاتحة أُمّ الكتاب، وفي حوّاء أُمّ البشر، وفي مكّة أُمّ القرىٰ، وفي الخمْر أُمّ الخبائث، وفي الدماغ أُمّ الرأس، وفي الحاجة أُمّ الاختراع، وفي الأرض أمّ الحياة، وفي راية الحرب أمّ الجيش، وهكذا.

والحقيقة أنّه لولا الأُمّ لَما كانت الأُمَم، ولولا الأمومة لَما عُدَّت المرأةُ شطْر المجتمع، فهي مَن تُهدِي الجنودَ للميدان والعمّالَ للمصنع والفلّاحين للحقل والأبطال للتاريخ والعلماء للمعمل والرجال والنساء

---

(1) المثل هو الشطر الثاني من بيت شِعرٍ لصاحبه (عمر بن أبي ربيعة) يقول فيه:

فتضاحَكْنَ وقد قُلن لها حسَنٌ في كلِّ عينٍ مَن تودّ

للحياة، وفيها قِيل: "لو جرَّدْنا المرأةَ من كلِّ فضيلة لكفاها فخرا أنها تمثّل شرف الأمومة"، وقِيل: "الأمومة أعظم هبة خصَّ الله بها النساء". وقد ارتبطَت بالألوهيةِ في المجتمعات الوثنية القديمة، وكثر تأنيثُ الآلهة شكْلا واسْما؛ لاعتقادهم بأنّ المرأةَ مصدرُ الخلْق، وأنّ الأمومةَ أصْلُ الخليقة[1]. وذلك قبل أن يأتي الإسلامُ فيصوِّب العقيدةَ، ويُتوِّج الأمومةَ أيّما تتويج؛ فيُدنِي الجنّةَ مِن أقدامها، ويَخصّها بثلاثة أضعافِ ما للأبِ مِن عظيم التقدير وحُسْن الصحْبة: "أُمّك ثمّ أُمّك ثمّ أُمّك، ثمّ أبوك"، ويَحثّ العَجِيَّ (مَن فقد أُمّه)[2] والعَجِيَّة مِن الأبناء علىٰ أداء ديْنها وصيام نذْرها وحجّ فرضها والتصدّق عنها والاستغفار لها والإحسان لذويها. وهو ما حثّ عليه الشيخ علىٰ الطنطاوي[3] فقال: "لو أَنصف الأبناءُ لَما تركوا

---

(1) معلومٌ أنَّ الخَلْقَ في الإنسان جاء على أربعةِ أضرُب؛ منه ما كان بلا ذكَر ولا أنثى كحال سيدنا آدم عليه السلام، ومنه ما كان مِن ذكَر بلا أنثى كأمّنا حواء عليها السلام، ومنه ما جاء من أنثى بلا ذكَر كسيدنا عيسى عليه السلام، أمّا بقية الخلق وسائر البشر فجاء خلقهم مِن ذكر وأنثى...ودَعْك هنا من النظرية الداروينية التي وصفها صاحبُ كتاب (قصة الإيمان) بأنها نظرية أبوها الكفر وأمّها القذارة.

(2) يُقال لَمن فقد أباه دون سنّ الحلُم يتيم، ولَمن فقد أمَّه عجيّ، ولَمن فقدهما معا لطيم، أمّا اليتيم في البهائم فهو مّن فقد أمّه لا أباه.

(3) عن وفاء الشيخ وبِرِّه بأمِّه بعد وفاتها؛ كتبَت حفيدته (عابدة المؤيد): وكانت لنا أسوة في جدّي الذي ما ذكر أمَّه مرّة إلّا وفاضت عيناه، حتى بعد مرور خمسين عاما على وفاتها!

أمّهاتِهم يَمشون علىٰ الأرض، ولَغسلوا أرجلَهم بدموع عيونهم". وطبَّقه الحافظ عبد الله بن عون؛ الذي نادتْه أمُّه، فأجابها، ولكن علا صوتُه صوتَها، فاعتبَر ذلك كبيرة تستحقّ التكفير عنها، فأَعتَق رقبتيْن، وكأنّه قتَل أو ظاهَر أو وطأ في نهار رمضان! أمّا الأديب الساخر (المازني) فقد عبّر عن حبّه لأمّه بعد رحيلها بقوله: كنت بعدها كلّما وقعَت عيناي علىٰ امرأة أدرْت رأسي مزورّا بعد أن تغرورق عيناي بالدموع!

أمّا ذو القرنين فقد علِم مكانة الولَد في قلْب أُمّه، وخاف عليها ألم الثّكل وفداحة الفقْد، ووقع في نفسه أن يُخفِّف عنها ويواسيها بعد رحيله؛ فأوصاها لَمّا حضرتْه الوفاة، أن تصنع بعد موته طعاما، وتجمع نساءَ أهل المدينة، وتضعه بين أيديهنّ، وتأذن لهنّ فيه إلّا مَن كانت ثكلىٰ فلا تأكل منه شيئا. فلمّا فعلَت ذلك، لم تضع واحدةٌ منهن يدَها فيه، فقالت لهنّ: سبحان الله! كلكنّ ثكْلىٰ؟ فقلن: إي والله، ما منّا إلّا مَن أثكلت! فكان ذلك تسلية لِمصاب أُمّه.

وإذا كان الأبُ والِدًا علىٰ سبيل المَجاز لأنه لم يلد، وكانت الأمُّ والدةً علىٰ سبيل الحقيقة لأنها هي مَن عانت الألم الكوني وولدت؛ فإنَّ رابطةَ الأمومة أشمل وأعمّ مِن رابطة الوالِديّة، إذْ تشتمِل علىٰ شقٍّ بيولوجي

يَستند إلىٰ الجينات والهرمونات، ويتولّىٰ الحَمْل[1] والرضاعة والولادة، وشقٍّ نفسيّ يُحِبّ ويَحنو ويَرعَىٰ وتكتمل به الأمومة الكامِلة، ولذا جاء الذِّكر بلفظ الأمّ مفرَدا وجمْعا في ثمان وعشرين موضعا قرآنيا بينما جاء بلفظ الوالدات في ثلاث مواضع فقط، كما عُدَّت زوجاتُ النبي صلىٰ الله عليه وسلم أمّهات للمؤمنين لا والدات وذلك علىٰ سبيل التعظيم والتقدير، وجاءت أمثلة الأُسوات والقُدوات مِن النساء في صورة أُمّهات؛ فكانت أمّ سيدنا موسىٰ التي احتَفل بها القرآنُ الكريم وقصّ قصّتها في غير موضع، حين أقرّ الله عز وجلّ عينَها وحفظ لها أمومتَها ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾[2]. وكانت أمّ سيدنا عيسىٰ التي خصّها المولىٰ عز وجل بسورة كاملة تحمل اسمها، بعد أن مَنَّ عليها بأشرف حَمْل وأعزّ مولود وخيْر اصطفاء. وكانت أمّ سيدنا اسماعيل التي خلَّدت فريضةُ الحجّ سعيَها، وتَعطّر بشرف النبوّة نسلُها.

---

(1) فارِقٌ بين الحَمْل والحِمْل، فثقل الحَمْل داخلي في الرّحِم، وتختصّ به النساء دون الرجال، أمّا ثقل الحِمل فخارجي على الكتف أو الظهر، ويَشترك فيه الرجال والنساء، وإذا كانت النساءُ قويّات في الحَمْل فالرجال أقوياء في الحِمْل...وسبحان مَن كَمّل النساءَ بالرجال وتَمّ الرجالَ بالنساء.

(2) القصص 13.

وقد جاء في صحيح الإمام مسلم أنَّ أمَّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: جاءتْني مسكينةٌ تحمل ابنتيْن لها، فأطعمْتها ثلاثَ تمرات، فأعطَت كلَّ واحدة منهما تمرة، ورفعَت إلىٰ فِيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتْها ابنتاها، فشقَّت التمرةَ التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، وذكرتُ الذي صنعَت لرسول الله صلىٰ الله عليه وسلم فقال: "إنّ اللهَ قد أَوجب لها بها الجنة أو أعتقَها بها مِن النّار"، كما جاء في كتاب (جامع بيان العِلم وفضله) للحافظ ابن عبد البرّ؛ أنَّ أُمّ الإمام الشافعي رحمه الله رهنَت رداءَها بستة عشر دينارا، ليذهب بالدنانير إلىٰ اليمن طلبا للعلم!...وكأنّ لكلّ أمٍّ لحدًا تَقبر فيه أنانيتَها؛ لتصير لِبنيها معطاءة كنبْت الأرض، وكريمة كغيث السماء، وطيِّبة كريح الجنّة...ولهذا حَقَّ مَن قال: "مَن فقد أباه فهو يتيم، أمَّا مَن فقد أمَّه فهو دار أيتام"، ولله درّ حافظ إبراهيم حين قال:

الأمُّ أســـــتاذُ الأســـــاتذةِ الأُلى ... شــغلَتْ مــآثرُهمْ مــدى الآفــاقِ

ولعلّ مِن المناسب هنا الإشادة بعظمة هذا الذي تَحدِب به الأمُّ علىٰ ولدها ونُسمِّيه حنانا، وبهذا الذي تُغذِّيه به فلا يَنضب ولا يَشيخ ونُسمِّيه حُبّا، ثمّ الإشادة أكثر وأكثر بهذا الذي يضبط الحنانَ ونُسمِّيه عقْلا وحكمة؛ فكَم مِن حنان أَفرط فأَفْسد، وكم مِن طِيبة قلبٍ ولينِ جانبٍ كانا سببا في خلْق شخصية هَشّة مُدلَّلة؛ لا تتمتّع باستقلالية، ولا تَثبُت قُبالة

محنة، ولا تصمد في وجْه مدفع...وكم في الحياة من مِحن تقصم ومدافع تقصف!

ولعلّ مِن المناسب أيضا؛ التأكيد علىٰ أنّ الأمومةَ ليست شيكًا مدفوعًا بضمان الحمل والرضاعة، ولا صكّا يمنحه المطبخ والغسّالة والمكْنسة؛ بل هي مسئوليةٌ تقتضي من المرأة التَّحلِّي بالقدوة والتَّزوُّد بالعِلم؛ فالمجتمع الذي يترك أطفالَه في حضن امرأة جاهلة لا يُمكنه أن ينتظرَ مِن أفراده خدمة صحيحة أو رأيا سديدا علىٰ حدِّ تعبير عالِم الاجتماع العراقي علي الوردي. وهي رسالة لا يَكفي فيها أن تغمر الأمُّ وجهَ طفلها بالقُبُلات وتُدفّئ صدرَه بالأحضان وتغدق عليه بالدُّمىٰ والألعاب؛ بل عليها أن تكون حارسة لصلاته وقرآنه وسلوكياته، ومن واجبها أن تذوّده بمنطاد المعرفة؛ فتقرأ له وتَغرس في روْعه حبَّ الكتاب؛ بحسبان الكتاب قُبلة العقل وحضن الروح وسرّ الفرح، وعلىٰ اعتبار أنّ الأمّ الجاهلة تورِّث جهلها ليس لأبنائها فقط، بل لأحفادها وربما أحفاد أحفادها أيضا. وفي هذا حكىٰ الروائي الروسي فيودور دوستويفسكي عن أمّه قائلا:" لولاها لَما عرفتُ كيف أكون قارئا، كانت تقرأ لي كل شيء يصف النفس البشريّة الحقيقية، حتىٰ وأنا مريض كانت تأخذني علىٰ صدرها وتقرأ لي من أشعار بوشكين وتبكي".

أمّا ما يَخُصّ دعاوَىٰ تحرير المرأة[1] ، والزجّ بها في معترَكات ليست لها، ونداءات المساواة بينها وبين الرجُل؛ فلا أراها إلّا انتقاصا مِن الأمومة وشرفها، وتَعَدّيا سافرا علىٰ مكانة المرأة وحقوقها، وعقوقا أشبه ما يكون بوأْد البنات وكشْف السَّوْءات؛ فالمرأة فطرها الله لِتكون أنثىٰ متوّجة في مملكة الزواج والأمومة. وهنا وجَب الاعتراف بالعجْز عن الوفاء بدَيْن الأمومة الذي لا يَنقضي، والإقرار بأنّ ما نفعله مِن بِرٍّ-مهما كَبر-لا يَعدو حاشية علىٰ متْن، وموْجة في بحْر، وصدًىٰ لقول الشاعر أبي القاسم الشابّي:

بُوركْتِ يا حرَم الأمومةِ والصِّبا كَم فيكِ تكتمل الحياةُ وتَقْدُسُ

وإذا كان لنا أن نضرب المثلَ بأمٍّ مثاليّة تَجلَّت فيها الأمومةُ بتمامِها وكمالِها، وتَحقَّق فيها ما قالتْه رضوىٰ عاشور: "الأمّهات يَمُتن مبكّرا...حتىٰ إن امتدّ بهنّ العمرُ إلىٰ الثمانين"؛ فلتكن الصحابية الجليلة

(1) ذكر البوفيسور الأمريكي (جاري بيكر) الحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد عام 1992م، أن الأمّ الجالسة في بيتها لرعاية الأولاد وحُسْن تنشئتهم، تُساهم في تنمية الاقتصاد القومي بنسبة 25 - 50٪.

تماضر بنت عمرو السلمية، المشهورة بأشعَر[1] النساء، والملقَّبة بالخنساء لقصر أنفها وارتفاع أرنبتِه؛ إذْ ربَّت أولادا أربع، ثمّ وقفَت تُوصيهم حين دعا داعي الجهاد في معركة القادسية قائلة:

"يابَنيّ إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو إنكم لبنو رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة ما هجَّنتُ حسبَكم وما غيَّرتُ نسبَكم، واعلموا أنّ الدار الآخرة خير من الدار الفانية، اصبروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون، فإذا رأيتم الحرب قد شمَّرَت عن ساقها وجلّلَت نارا على أرواقها؛ فيَمِّموا وطيسَها وجالِدوا رسيسَها، تَظفروا بالغُنم والكرامة في دار الخلد والمقامة"

ليس هذا فقط، بل إنَّها لمَّا علمت بقتلهم جميعا احتسبَت قائلة: "الحمد لله الذي شرَّفني بقتلِهم، وأسأل اللهَ أن يجمعني بهم في مستقرّ

(1) تُعتبر الخنساء المرأة الوحيدة التي حجزت لها مكانا بين فحول الشعراء الذين تَرجم لهم (ابن سلام الجمحي) في كتابه (طبقات فحول الشعراء)، وذلك ضمن 114 شاعرا اشترط فيهم جودة الشعر ووفرته وتنوع أغراضه.

رحمته". ولتكن أيضا الصحابيّة أمّ قيس بنت محصن[1]؛ والتي مات ولدُها، فأَوصَت مغسِّلَه -بلسان قلبها الذي ينزف أمومة- قائلة: لا تُغسِّل ابني بالماء البارد فتقتله! ولعلّ بعضنا قد لاحظ أنّ الشرع حثّ علىٰ برّ الأبناء بالآباء والأمّهات في أكثر من موضع وبأكثر من صيغة، ولم يحثّ بذات القدْر علىٰ برّ الآباء والأمّهات بأبنائهنّ، وذلك لأنّ هذا الأخير سجيّة لا يُحتاج إلىٰ استثارتها وفطرة لا تقتضي التأكيد عليها، بينما الأوّل، وهو برّ الأبناء بالآباء، يتطلّب تلك الاستثارة وهذا التأكيد، في دلالةٍ علىٰ أنّ عاطفة الوالديْن تجاه فلذات أكبادهنّ جيّاشة كالسيْل وفوّارة كالبركان، بينما عاطفة الأبناء تجاههم تسير كجدول الماء وتركض كركض السلحفاة.

بقِي التنبيه علىٰ بطلانِ القول الشائع بأنَّ النّاسَ يُنادَوْن يوم القيامة بأسماء أمّهاتهم، بزعم أنّ في ذلك تشريفٌ للأمومة وتعظيمٌ لحقِّها؛ فقد قال صاحبُ الكشّاف (الزمخشري): "ومِن بدَع التفاسير أنّ الإمامَ[2]

---

(1) هي أخت الصحابي المشهور (عكاشة بن محصن)، والذي جاء ذكره في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وفيه قال صلى الله عليه وسلم: "سبقك بها عكاشة".

(2) في إشارة إلى قول الحقّ سبحانه: "يوم نَدعو كلَّ أناسٍ بإمامهم" الإسراء 71.

جمعُ أُمّ، وأنّ الناسَ يُدعَون يوم القيامة بأمّهاتهم، وأنّ الحكمةَ في الدعاء بالأمّهات دون الآباء؛ رعاية حقّ عيسىٰ عليه السلام، وإظهار شرف الحسَن والحسيْن، وألّا يُفتضَح أولادُ الزنا، وليت شعري! أيّهما أبدعُ، أصحّةُ اللفظ أم بهاءُ حكمته". كما وجب التفكّر والتمعُّن؛ في أنّه إذا كان كلّ هذا الفيض الجارف مِن الحُبّ، والسيل الهادر مِن العرفان بيننا وبين أمّهاتنا، ليس إلّا حصيلة تسعة أشهر رقدْنا في أرحامهنّ، وبضعة أعوام قُمْن خلالها بواجب رعايتنا وتربيتنا؛ فكيف يجب أن تكون العلاقة بيننا وبين مَن خلق لنا أمّهاتنا، ثمّ صنعَنا –سبحانه–علىٰ عينه، وشكَّلَنا بيديه، ونفَث الحياة في روْعنا، وقدّر آجالَنا، وتكفَّل بأرزاقِنا، وتَعهّدَنا مِن المهْد إلىٰ اللحْد؟!

3- الشّاعرُ المُؤمِن

الشِّعرُ عروسُ الحروف وضياءُ الكلمات وعِطرُ اللغات، وهو في الأدب كالنجمة في السماء والزّهْر علىٰ الأرض؛ إذ يُغذِّي العقولَ، ويُحيي النفوس، ويُمتِع الفؤاد، ويُشجِي الأسماع، ويُنادي بقِيمه ومبادئه التي يستبطنها: حيّ علىٰ النجاح وهَلمّ إلىٰ الذُّرا والقِمم. وقد عرَّفه الأديبُ الإسلامي عمر عبيد حسنة بأنّه "تعبيرٌ فني جميل، نابعٌ من ذات مؤمنة، ومُترجِمٌ عن الحياة والكون والإنسان وفق الأسس العقائدية للمسلم، وباعِثٌ للمتعة والمنفعة، ومُحرِّكٌ للوجدان والفكر، ومُحفِّزٌ لاتخاذ موقف والقيام بنشاط ما"، بينما وصفه الجاحظ بأنّه فضيلة العرب، وقال عنه غازي القصيبي: "الشعر هو الإنسان في حالة غناء"، ولُقِّبت به لغةُ الضاد فكانت اللغة الشّاعِرة ولغة القَريض.

أمّا الشّاعر؛ ففنّانٌ صنْعته تذهيب الحروف وصقْل الكلمات ووزْن الأبيات وسبْك القوافي وتصوير المعاني، ومُبدِعٌ يَحوك الكلامَ علىٰ حسْب

الأماني ويَخيط الألفاظَ علىٰ قدود المعاني ؛ فيَغزل نسيجا متفرِّدا يَنقلب به السمْعُ بصرًا والشعورُ قُدرةً والسّأَمُ طاقةً، كما يَبعث الحياةَ في غصن البان ليصبح قَدّا أهْيفا، وينفخ الروحَ في الوردة الحمراء لتغدو خَدًّا متورِّدا. وما سُمِّي الشاعر شاعرا إلّا لأنّه بلغ الذّروة في الحِسّ والأَوْج في الشعور؛ فبات يَحُسّ بما لا يَحُسّه سواه، ويَشعر بما لا يَشعر به غيره.

وقد تفاوتَت مراتبُ الشعراء بين فحْل لا يُجاريه الأقران، وصعلوك قسَت عليه الأيام، ومُخَضرم أدرك الجاهلية والإسلام. وفي كلّ الأحوال كانت ولادة الشاعر في القبيلة فتحًا مبينا ونصرًا عظيما، حتىٰ لَيُقلَّد صدورَ المجالس ويُقدَّم علىٰ فرسان المعارك؛ إذْ ضمنوا بذلك مَن يقاتل لهم بالحرف، ويُجاهد عنهم باللسان؛ فيُخلّد مآثرَهم ويذيع صِيتَهم ويَهجو في الوغىٰ أعداءَهم...وفي هذا ذكَر ابن رَشِيق القيرواني في كتابه (العمدة في محاسن الشعر وآدابه): "كانت القبيلة مِن العرب إذا نبغ فيها شاعر؛ أتَت القبائلُ فهنّأتْها، وصنعَت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبْن بالمزاهر كما يصنعون في الأعراس، وتَباشر الرجالُ والولدان؛ لأنّه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم، وتخليدٌ لمآثرهم، وإشادةٌ بذكرهم، وكانوا لا يُهنّئون إلّا بغلام يُولَد أو شاعر يَنبغ فيهم، أو فرس تنتج".

أكثر من ذلك، كان حفظُ الشِّعر مِن المؤهِّلات التي تَفتح للخاطب بابَ القبول لدىٰ وليّ أمر العروس؛ فقد رُوي أنَّ سفيان بن عيَيْنة جاءه خاطبٌ لابنتِه، فأراد أن يعجم عودَه ويتفحّص مؤهّلاتِه، فقال له: اقرأ عليّ عشر آيات مِن القرآن، قال: لا أُجيد ذلك، قال: فعشرة أحاديث، فقال: ولا هذا أُجيد، فقال: إذنْ إليّ بعشرة أبياتٍ مِن الشِّعر، فقال: ولا ذلك أُجيد، فقال سفيان: لا قرآن ولا حديث ولا شِعر؛ فعلىٰ أيّ شيء أضع ابنتي عندك؟، وصرَفَه.

وقد ورَد الشِّعر بمشتقَّاته ستّ مرات في القرآن الكريم (الشّعر مرة واحدة-الشعراء مرة واحدة – شاعر أربع مرات)، وأرْدف الحبيبُ ﷺ خلْفَه الصحابي عمرو بن الشّريد واستنْشده شعرًا لأميّة بن أبي الصلْت الذي أَسلَم شعرُه ولم يُسلِم فؤادُه، كما مدَح صلىٰ الله عليه وسلم بيتًا قال فيه لَبيد بن ربيعة:

ألَا كلّ شيء ما خلا اللهَ باطلُ وكلُّ نعيم لا محالةَ زائلُ

فبوَّأه أعْلىٰ مراتب الصدْق من جُملة ما قِيل في الشّعر، وأهْدىٰ صلىٰ الله عليه وسلم بُرْدَته الشريفة لكعب بن زهير حين أَنشدَه الشّعر، لتبقىٰ البُردةُ عنوانا شهيرا للقصيدة وثروةً عظيمة للوَرثة، إذ باعوها للخليفة

الأموي معاوية بن أبي سفيان نظير عشرين ألف درهم. هذا وقد أنشَد الصحابةُ الأجلّاء حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة شِعرًا بين يدي رسول الله ﷺ، وكان شعرهم أشدّ علىٰ قريْش من رمْي النِّبال ورشْق السّهام وطعْن الرّماح، كما نظَم الصِّدِّيقُ والفاروقُ شعرا وبَذَّهما في ذلك أبو الحسَن (علي بن أبي طالب) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

وعلىٰ هذا فالآية الواردة في ختام سورة الشعراء ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء]؛ ليست حربا علىٰ الشِّعر لذاته وجنسه، ولا شطْبا لفنّ رفيع مِن فنون القول، ولا قدْحا في جموع الشعراء، بل هي -كما ذكر ابن رَشِيق- تخصّ شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم بالهجاء ومَسُّوه بالأذىٰ، وهو ما جلَّاه الفقيه الحنبلي ابن قدامة في كتابه (المُغْني) حين قال: "ليس في إباحة الشعر خِلاف، فقد قاله الصحابةُ والعلماء، والحاجة تدعو إليه لمعرفة اللغة العربية والاستشهاد به في التفسير، كما تُعرَف به معاني كلمات الله تعالىٰ وكلام رسوله ﷺ، ويُستدلّ به أيضا علىٰ النسب والتاريخ وأيام العرب".

وفي ذلك رُوِي أنّ العلامة المُفسِّر الشنقيطي -رحمه الله-، صاحب (أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن)، سُأل في ختام إحدىٰ محاضراته عن آخر كتاب قرأه، فذكَر أحدَ دواوين الشِّعر، ولمّا تعجَّب بعضُهم إذْ ظنّوا أنه سيذكر لهم أحدَ أُمّهات الكتب في التفسير؛ قال الشيخ؛ إني أستعين بالشِّعر علىٰ فهم كلمات ربي، وهو ما كان عليه العالِم المُفسِّر الأديب أبو حيّان الغرناطي، صاحب تفسير (البحر المحيط)، والذي اعتبَر تَعاطِي الشِّعر والقدرة علىٰ تذوّقه؛ مِن الأسباب المساعِدة علىٰ فهم القرآن، والنفاذ إلىٰ إعجازه البلاغي.

بينما نحَىٰ إمام دعاة القرن العشرين منحًىٰ آخر، إذْ كان يقرض الشعر في صدر شبابه ثمّ توقّف، ولمّا سُئل عن ذلك في كهولته قال: لقد أبدلني الله خيرًا منه، في إشارة إلىٰ عكوفه علىٰ تفسير القرآن الذي سمّاه خواطر لا تفسير، وفيها وقف الإمام الشعراوي علىٰ قول الحقّ سبحانه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾؛ فنفىٰ الظنّ بأنّ الله لم يعلّمه الشّعر لافتقاره صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ الثقافة اللغوية والعلم بالأوزان والقوافي ورهافة الحس والأذن الموسيقيّة، وأكدّ علىٰ أنه صلىٰ الله عليه وسلم لو أراد أن يقول شعرا لقاله علىٰ أحسن وجه، ولكن ذلك لا ينبغي لرسول مهمّته خلاف مهمّة شاعر يحلّق في الخيال ويفوه بما يحلو له.

والشِّعر في ميزان الشرْع: كلامٌ حَسَنُه حَسَن وقبيحُه قبيح، قد يُجمِّل الواقع لينثر الدرّ في الأسماع، ولكنّه لا يَحيد عن كونه مرقِّقا للشعور ومعمِّقا للفكر ومحفِّزا للهمم، فلا يُجانِب الصِّدق ولا يُحلِّق في الفراغ ولا يسعىٰ لتغييب العقول وتزييف الأفهام؛ وهذا ما عناه أمير الشعراء شوقي حين قال: أساطين الفن أربعة أوّلُها شاعر سار بيتُه. فالعبرة إذَن ليست بالمعرفة ولا بالثقافة لذاتيْهما، بل بالقوة المحرِّكة والطاقة الدافِعة التي تُثمر خيرا عميما وخلُقا رفيعا في رحاب المجتمع؛ إذْ يبقىٰ العلمُ جهْلًا إلي أن يثمر عملا، كما تظلّ شجرةُ الثقافة يابسة حتىٰ تُورِق رؤية وتُثمر خطْوة. وفي هذا قال نصِير الفقراء ورحيم الضعفاء وأديب الإنسانية (تولستوي):

"الفنّ والكلمة هما آلة التقدّم البشري؛ فالفنّ يهزّ القلوب، والكلمة تهزّ الأفكار، وإذا شاب أحدَهما الشرّ؛ فإنّ المجتمعَ يَضحى مريضا".

ومنذ نشأة [1] الشعر العربي الذي يُظنّ أنه يعود إلىٰ ما قبل الميلاد بأكثر من ألف عام، نجده عاش عصورا تَلألأ فيها وصار الشعراءُ نجوم المجالس وضيوف القصور وسُمّار الأمراء، بعضهم طغتْ الغواية علىٰ شعره؛ فحفل بالمجون واحتفىٰ بالخمر وتغزَّل في النساء والغِلمان... وما بشّار بن برد وأبو نواس مِنّا ببعيد، ولا قوْلة ابن عباس في عمر بن أبي ربيعة بخافية: "ما عُصِي اللهَ بشِعر أكثر مما عُصِي بشِعر ابن أبي ربيعة".

وبعضهم كانت الهداية مُبتغاه فخلّدهم شعرُهم بحروف مِن نور... كشوقي وحافظ والرافعي، وإقبال الذي أقام دولةً علىٰ حرف القصيد، بل إنّ مِن الفُقهاء مَن مَرّ ببوّابة الشعر فنهل من جماله ورقّته وسقاه مِن فقهه ووَرعه، واقرأ في ذلك للشافعي وابن القيّم وغيرهما. ثمّ إنَّ بعضَهم قد صاغ أمّهاتِ الكتب في علوم العقيدة والنحو والفقه والفرائض والقرآن، علىٰ صورة متون اختصَرت طولَها ويَسّرَت حفظَها وسهّلَت استرجاعَها، وعُرفت بالشِّعر التعليمي، علىٰ غرار ما فعله (ابنُ الحاجب) و(أبو شجاع) في الفقه وأصول الفقه، وما خطّه (ابن مالك) و(الحريري) في النحو، وغيرهم. وقد عدَّد ابن قتيبة) في كتابه (الشعر والشعراء)

(1) جاء في جريدة المقتطف خبر قصيدة وجدت منقوشة على إحدى الخرائب اليمنية القديمة، يُظنّ أنها نقشت قبل التاريخ المسيحي بأكثر من ألف سنة.

ضُروب الشِّعر عامّة فقال: "تَدبَّرتُ الشِّعرَ فوجدتُه أربعةَ أضرب: ضَرْب تأخّر فيه اللفظُ والمعنىٰ، وضرْب جاد المعنىٰ وتأخّر اللفظ، وضرْب جاد اللفظُ وتأخّر المعنىٰ، وضرْب حسُن لفظه وجاد معناه".

والواقع أنّنا نعجز عن العدّ ونكلّ عن الحصر، حين نُحصِي القصائدَ التي نفضَت عن نفسها أغراضَ الشّعر القديمة؛ مِن مديح لا يَخلو من بهتان، وغزَل لا يَسلَم مِن فحْش، وهجاء بعضه أقْرب إلىٰ السباب، وفخْر يُترجم للعصبية والجاهلية ويُغذّي الكِبْر والبَطَر. بينما استبْقتْ وأضافتْ من الأغراض ما يَدعو إلىٰ الفضيلة وكريم الخُلُق، ويَحثّ علىٰ التفكّر في الكون وإعمال العقل، ويَدفع باتجاه تحصيل العلم والثبات علىٰ الحقّ، ويدعو إلىٰ الثورة علىٰ الفساد والظلم، ويَنشط لمحاربة الجشع والطمع وذمّ الجبن والبخل. وهذا هو الشِّعر المنشود الذي يَجني قارؤُه ومُتذوّقُه رقّةَ الطبع ولِينَ الجانب وسموّ الذوق وسماحة الخُلق، وتلك هي العلّة التي مِن أجلها حثّ الأقدمون علىٰ تعليم الأولاد الشِّعر فقال أحدُهم: رَوّوا أولادَكم الشِّعر؛ فإنه يحلّ عقدة اللسان، ويشجِّع قلب الجبان، ويطلق يدَ البخيل، ويحضّ علىٰ الخلق الجميل.

وممّا لاشك فيه، أنَّ الشِّعرَ ابنُ عصره؛ يَضعف بضعفه ويَقوىٰ بقوَّته كما يَهتدي بهدْيِه ويَغوَىٰ بغوايتِه، ففي عصور الوغَىٰ يكثر شعرُ الفخر والحماسة، وفي عصر الترف والدّعة يَغلب شعرُ النّسيب، وفي عصور الفسق والفجور يَشيع شعر الإباحية، وفي عصر المادّة والسقوط يَبرز شعر الإلحاد. وبرغم ما يُحاوله بعضُهم مِن شقّ الصفّ بين الدِّين والشِّعر، وتجريد الدّين مِن أحد الأدوات المهمّة التي يمكنها خدمته باقتدار إذا ما أُحْسِن استغلالُها وتوجيهُها الوجهة الصحيحة السليمة، فإنّ الشيخ الشرباصي في كتابه (يسألونك) قد وضَع النقاط علىٰ الحروف وقَنّن العلاقة بين الدّين ورجاله والفنّ ومُبدِعِيه فقال: "إذا تَديَّن رجلُ الفنّ وتَفنَّن رجلُ الدين، التقيا في منتصف الطريق لخدمة العقيدة القويمة والفنّ السليم".

لا ضيْر إذنْ في قراءة الشِّعر وتَذوّقه ونظْمه، ولا خوف البتَّة منه علىٰ الذائقة الإيمانية والتقوىٰ القلبيّة والحصيلة الروحيّة، وإنَّا لَواجِدون مُرادَنا وبُغيتَنا مُتمثِّلة في الأدبِ الإسلامي وجناحِه الشِّعري، ذلك الجناح الذي التزم بما يلتزم به الشعراء مِن أصول الفنّ الشعري، وزاد علىٰ ذلك التزاما طوْعيّا ينطلق مِن الأرضيّة الإسلامية، ويُطوِّع الكلمةَ لخدمة الدعوة المحمديّة ونشْر الرسالة الإسلاميّة، وهو ما الْتزم به شعراءٌ كُثر أمثال

(يوسف العظم) و(أحمد محرم) و(عمر الأميري) و(عبد الرحمن العشماوي) وغيرهم من شعراء الدعوة المعاصِرين، وبلسان حالهم عبّر العلّامةُ (القرضاوي) فوصف رسالةَ الشِّعر وأَطَّرها أدقَّ تأطير قائلا:

وقَفْتُــكَ يــا شِــعري علــىٰ الحــقِّ وحــده
فــإن لــم أَنــلْ إيّــاه لقلْــتُ حــسبي
وإنْ قــال غِــرٌّ: ثــروتي قلــتُ دعــوتي
وإنْ قــال لــي حِزبــي أقــولُ لــه ربِّــي
فعِــشْ كوكبــا يــا شِــعْرَ يَهــدي إلــىٰ العُــلا

4- صنائعُ المعروف

بعض الكلمات لا ينفكّ مجرّد ذكرها عن وقْعٍ طيِّب تَنشرح له الصدور، وأثَرٍ جميل تَهنأ به النفوس، حتىٰ لا يُباريها في ذلك الوقْع وذاك الأثر إلّا البلْسم والطِّيب، ثمّ يَتضاعف الوقْعُ وينمو الأثرُ إذا ما وجدَت تلك الكلماتُ طريقَها إلىٰ الواقع المَلموس والمشهد المَحسوس.. والكلمةُ الطيِّبة الذِّكْر والمَعْنِيّة هنا، هي التي أَطْراها الشاعر بقوله:

ولَـم أرَ كـالمعروفِ أمَّـا مَذاقُـه فحُلـوٌ وأمّـا لونُـه فجميـل

وامتُـدِح صـاحبُها فقِيـل فيـه: "صـاحبُ المعـروف لا يَـسقط، وإنْ سقط وَجد مُتّكَأ"، وقِيل أيضا: "ما ادَّخـرَت الآبـاءُ للأبنـاء، ولا أَبْقَـت المـوتى للأحيـاء شـيئا أفـضل مـن اصطناع المعروف عند ذوي الأحساب والآداب".

والمعروفُ اسمٌ لكلِّ فِعلٍ يُعرَف حُسْنُه بالعقْل والشّرْع، وعكْسه المنكَر. وهو سُوق جامعٌ لكلِّ أعمال البرِّ، وبوّابةٌ مُشرَعةٌ علىٰ كلِّ منافذِ الخير، وحديقةٌ بديعةٌ تزدان بشتّىٰ الطاعات والقُربات. وهو كذلك عبادةٌ لا غناء للحياة إلّا بها، ولا نجاةَ لنا إلّا بالقيام بحقّها، مُتأسِّين في ذلك بالأنبياء والرسُل والصحابة والتابعين ومَن سار علىٰ دربهم إلىٰ يوم الدِّين، ومُطبِّقين بذلك نصيحة الشاعر القائل:

وَاحْـرِصْ عَلَـىٰ عَمَـلِ الْمَعْـرُوفِ مُجْتَهِـدًا
فَـإِنَّ ذَلِـكَ أَرْجَـىٰ كُـلّ مُنْتَظِـرِ

وبرغم أنَّ مظاهرَ المعروف لا تقف عند حصْر، وخزائنه عامِرةٌ بلا عدّ؛ فإنّه لا يَخرج عن صنفيْن: إمّا معروف القول، أو معروف الفعل. وفي معروف القول؛ يأتي إفشاءُ السلام، وطِيبُ الكلام، وتعليمُ الجاهل، ونُصحُ العاقل، وتنبيهُ الغافل، وتذكيرُ الساهي؛ ولا يَحقرنّ هنا أحدٌ ما لِلقول مِن تأثير، عمَلا بنصيحة النبي صلىٰ الله عليه وسلم لنصير الفقراء وزعيم الغرباء (أبي ذر الغفاري) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لا تَحقرنّ مِن المعروفِ شيئا ولو أن تلقَىٰ أخاك بوجْه طليق"، فلرُبّ كلِمةٍ صادفَت قلْبا واعيا وكانت سببَ هداية، ولرُبّ قولٍ أنار عقلَ أُمّة فاستنْهض همّتَها وأصلح شأنَها

ونفَىٰ الخبثَ عنها، بما يَعني أنَّ الكلماتِ روافِع منها ما يَبني ويَرفع ومنها ما يَهدم ويخفض، وها هو (صلاح الدين الأيوبي) يُقْسِم علىٰ ذلك فيقول: "والله ما أخذْتُ البلادَ بالعساكر، بل برسائل القاضي الفاضل"، والقاضي الفاضل هو (عبد الرحيم البيساني) الذي عمل كاتبا ووزيرا وقاضيا لصلاح الدين، وأشار عليه إبّان مرضه الشديد أن ينذر إنْ شفاه الله أنْ يَصرف همّه كلّه لقتال الفرنجة وفتح بيت المقدس، وهو ما وفّاه صلاح الدين وقام به خير قيام.

وهو ما قاله ابن عباس أيضا في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1]؛ حيث ذكَر أنّ الباقياتِ الصالحاتِ هي الكلام الطيِّب. وقد قِيل لأحد الصالحين: إنك تَلقَىٰ العامّة ببِشر وتقريب! فقال: دفْعُ صنيعةٍ بأيْسر مَؤونة، واكْتسابُ إخوانٍ بأيْسر مبذول.

أمّا معروف الفعل؛ فيكون بإكرام الضيف، وعوْن المسكين، وكفالة اليتيم، وإغاثة الملهوف[2]، ونجْدة الغريق، وإسعاف المريض، وبذْل الجاه، ونصْرة المظلوم، وكذلك بسدّ رمق الفقير والتنفيس عن المَكْروب

---

(1) الكهف 46.

(2) قِيل إنَّ "أفضل المعروف معونة الملهوف".

والتيسير علىٰ المُعْسِر. وفيه رُوِي أنَّ ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كان مُعتكِفا في المسجد النبوي؛ فجاءه رجلٌ يستعين به علىٰ حاجة له، فخرج معه، فقالوا له: كيف تخرج مِن مُعتكَفك؟ فقال: لَأن أخرج في حاجة أخي خيرا لي مِن أن أعتكف في مسجدي هذا شهرا كاملا. كما وَرد أنَّ عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، كان يتعاهد بعضَ الأرامل، فيسقِي لهنّ الماءَ بالليل.

والواقع أنّ المعروف طوْق خيْرٍ نغنم به رقاب الناس، وقيد بِرٍّ نعتق به رقابنا يوم يقوم الناس لربِّ الناس؛ لأنّه يَدفع عن فاعلِه البلاء، ويَقيه مصارعَ السوء، ويُعلِي في النَّاس ذِكرَه، ويُجمِّل كذلك سيرتَه، ويُطيِّب أثرَه، ويُؤهِّله ليكون أوّل الداخلين إلىٰ الجنان. أمّا مَن أُسْدِي إليه المعروفُ؛ فلا يَعدم استقرارَ حياتِه، وكشْفَ ضُرِّه، واستقامةَ أحوالِه. وكذلك المجتمع الذي يَشيع في جنباته المعروف؛ لاشكّ يَنعم بالرخاء، ويَهنأ بالوئام، ويزداد تماسكا بفضْل روح التكافل والتضامن التي تَصطبغ بها مظاهر الحياة فيه..أبعد هذا خيرٌ وأبقىٰ من المعروف؟

وضمن هذا الإطار، صنّف الإمام الماوردي الناسَ في كتابه (أدب الدنيا والدين) حسْب إعانتهم لغيرهم واستعانتهم بالآخَرين إلىٰ أربعة أصناف؛ صنف يُعين ويَستعين وهو المُعاوِض المُكافئ المُنصِف، وصنف لا يُعين ولا يَستعين وهو متروك إذْ لا صداقة منه تُرجَىٰ ولا عداوة

فيه تُخشَىٰ، وثالث يَستعين ولا يُعين وهو اللئيم الأناني، وصنف رابع كريم الطباع طويل الباع مشكور الصنيع وهو الذي يُعين ولا يَستعين.

ولا يُعيِّرنا أحدٌ هنا بأنَّ بذْل المعروف في المجتمعات الغربية يتفوّق بمراحل علىٰ المجتمعات الإسلامية، ويدلّل بجامعاتٍ عريقة ومشاريع كبرىٰ تتكئ بالأساس علىٰ التبرّعات والهِبات، وبساحةَ السوربون التي تزدان بتمثال للفيلسوف أجوست كونت محفور عليه بخطّ بارز :"لِنحيا من أجل الغير". فالحقيقة أنّ أهلَ المعروف في مجتمعاتنا الإسلامية كُثر وأياديهم البيضاء ما زالت ممدودة، ولكن فجوة الثقة بين الشعوب والحكومات، وغياب بيت مال جامع، وعدم وجود هيئات وقْفية تتمتّع بمصداقية واستمرارية، هو ما يُحبط تلك الجهود ويُحجِّمها في أضيق نطاق، فتظلّ تدور في فلك الأفراد مع ما يُصاحبها مِن عشوائية ويَجعل مردودَها ضعيفَ الأثر محدودَ القيمة. وعطِّر ذاكرتك إنْ شئت بأخبار وقْف القطط الذي أنشأه الظاهر بيبرس في القاهرة لرعاية القطط المريضة والشريدة والضالّة، ووقْفٍ للمرضعات أقامه صلاح الدين في دمشق لتغرف منه الأمّهاتُ حليبا لهنّ ولأطفالهنّ، ووقْف آخَر للمستشفيات تكفّل بإعطاء كلّ مريض مبلغا ماليا عند خروجه من المستشفىٰ ليستعين به علىٰ شئون حياته أثناء فترة النقاهة التي يقضيها في راحة دون عمل.

علىٰ أنَّ بذل المعروف تَحوطه بعضُ محاذير وجب الانتباه إليها، حتىٰ لا يَنقص الأجرُ أو يَحبط العملُ ولا يَنال صاحبُه منه إلّا الجهد والعرق: فلا مجال لمَنٍّ أو أذىٰ؛ حفاظا علىٰ كرامة الممنون عليه، ومصداقا لقول الحقّ جلّ وعلا: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ (1). ولا حاجة للإعلان والنشْر -إلّا ما كان مِن قبيل الترغيب في المعروف وسط مجتمع شحيح- ؛ فمِن كرَم الفِعال أن تَستر ما تُعطِي حياءً ونُبلا، بينما تَنشر ما تَأخذ عِرفانا وشُكرا. ومِن جود الخِصال أن تُصغِّر ما تَبذل تواضُعا وإخلاصا، بينما تُعظِّم ما تُعطَىٰ إجلالا وإكبارا. وكذلك لا مسوِّغ للتأجيل والتسويف في البذْل؛ حتىٰ لا تنطفئ جذوة المعروف وتذهب ريحُه. ولا داعي للخجل مِن إعطاء النذْر اليسير؛ فالصغير يَعظم عند الكبير المُتعال، والحسنة يُضاعفْها الكريم إلىٰ سبعمائة ضعف. وفي الوقت نفسه، لا ينبغي أن يتكلّف المرءُ من المعروف ما لا يُطيقه؛ بل الجُود مِن المَوجود كما يقول المثل..

وفي هذا قال أحدُ الصالحين: "لا تَستحِ من القليل فإنَّ البُخل أقلّ منه، ولا تَجبن عن الكثير فإنّك أكثر منه"، ورُوِي أنَّ سعد بن أبي وقاص

(1) البقرة 264.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تَصدَّق بتمرتيْن فقبض السائلُ يدَه، فقال للسائل: يَقبل الله مثاقيل الذرّ وكَم في التمرتيْن مِن مثاقيل الذرّ، كما سمع أحدُ الصالحين رجلا يُعدِّد المعروفَ الذي أسداه ويقول لرجل: فعلتُ لك وفعلت. فقال له: لا خيْر في المعروف إذا أُحْصِي، وعمَّا يُشاع مِن ترْك بذْل المعروف في غير أهلِه الذين لا يَشكرونه ولا يُقدِّرونه مع تشبيه فاعلِه بمُجير أمّ عامر[1]، فالحقيقة أنّ البذْل لا استثناء فيه لكافر أو حتىٰ لحيوان، وهو في غير أهله أدْعىٰ للإخلاص وأبْعد للرياء وأنْقىٰ لحظوظ النفس، وإذا أخطأ أهلَه وصادف غير أهلِه ففاعلُه أهلٌ له، ودَع عنك في ذلك قول زهير بن أبي سلمىٰ:

ومَـــن يَـــصنع المعـــروفَ في غيـــرِ أهلِـــه
يَكـــنْ حمـــدُه ذمًّـــا عليـــه ويَنـــدمِ

ومِن نوادر المعروف التي لا يَقوَىٰ عليها إلّا الكِبار مِن السادات والأجلّاء مِن أهل المروءات، ما رُوي أنَّ عبدَالله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان يُصلِّي نفلاً، وكان مولاه (نافع) جالسًا بقربه ينتظر منه أيَّ أمر يَحتاج إليه

(1) أمّ عامر هي الضبْع، ومُجيرها هو الأعرابي الذي حَماها مِن المطاردة والصيد، فأكرَم وفادتها، ولكنها غدرَت به، فبقرَت بطنَه وشربت دمَه بينما هو يَغطّ في نومه.

ليؤدِّيه، وفي أثناء قراءة عبدالله بن عمر في صلاته وصَل إلىٰ قوله - سبحانه وتعالىٰ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ﴾ [1]، فأشار عبدالله بن عمر بيده، فلم يفهم نافع لِمَ يشير؟، فبَقِيَ ينتظر تسليمه؛ ليسأله: إلىٰ ماذا يشير؟ فقال عبدالله: تأمَّلتُ فيما أملك، فما وجدتُ أعزَّ لي منك، فأحببتُ أن أشيرَ إليك بالعِتْق وأنا في الصلاة؛ خوفًا أن تغلبني نفسي، فأعدِل عن ذلك بعد الصلاة، فلِذلك أشرْت، فبادر نافع - رحمه الله - وقال: إذًا الصُّحبة، فقال ابنُ عمر: لك ذلك.

(1) آل عمران 92.

(5) الغايةُ الكبرى

في كتابه الشهير (الموافَقات في أصول الشريعة)، قسّم الإمام الشاطبي رحمه الله متطلَّبات الحياة الإنسانية إلىٰ ضروريّات لا تقوم الحياة بدونها؛ إذْ عليها مدار مصالح الدين والدنيا. وحاجيّات تقوم الحياة بدونها ولكن مع وجود مشقّة وعنَت وحرج، وتحسينات هي بمثابة كماليات يمكن الاستغناء عنها وتقوم الحياة مع فقْدها. ومع تقدُّم الحياة مِن عصر إلىٰ عصر وتَفاوُت مستوىٰ المَعيشة بين بلد وآخر، تَنازَع الناس فيما هو حاجيّ وتحسينيّ، وأصبح التحديدُ فيهما محلَّ أخْذ وردّ، حتىٰ إنَّ بعض الحاجيات أصبحت ضروريات وبعض التحسينات ارتفعت إلىٰ مرتبة الحاجيات، بينما بقيت الضروريات هي الضروريات في كلّ عصر وصقْع وإن اخْتُلف في ترتيبها، كما بقي مطلب الأمْن بالاتفاق ضرورة الضروريات وكُبرىٰ الغايات؛ إذْ لا تُصان الضرورياتُ الخمْس

(الدِّين والنّفس والعقْل والمال والعِرض) التي قصَد الشارعُ الحكيم حفْظها إلّا به.

والأمْن نقيض الخوْف، ويَعني الطمأنينة والسكينة والاستقرار، ومِنه الإيمان والأمانة، وفي سياقه جاء اسم الله المُؤمِن الذي سُمِّي بذلك لأنَّه- سبحانه- واهِبُ الأمْن ومانحُه، ولأنّه –جلّ في علاه–كما قال الإمام الغزالي: "لا أمْن في العالَم إلّا وهو مُستفَاد بأسبابٍ تَفرَّدَ اللهُ بخَلْقها وهَدىٰ إلىٰ استعمالها، فهو المُؤمِن المطلَق حقّا". وفي حين عرَّفه عبد القاهر الجرجاني بأنه "عدم توقّع مكروه في الزمان الآتي"، فقد تَوسّع آخَر وعرَّفه بأنه "اطمئنان الإنسان علىٰ دينه ونفسه وعقله وأهله وماله وسائر حقوقه، وعدم خوفه في الوقت الحالي أو في الزمن الآتي، في داخل بلاده وخارجها، ومن العدوّ وغيره، وذلك وفق توجيه الإسلام وهدْي الوحي ومراعاة الأخلاق والأعراف والمواثيق والعهود".

وهو مطْلب إنسانيّ قديم؛ جَدّ في طلبه الإنسان وسلك له الدروبَ والفجاج، فحثَّ الخُطىٰ نحو الغِنىٰ لِيَأْمن مِن الفقر والعوز، وتَعلَّم ليأمن مِن الجهل والتخلّف، وعمِل ليأمَن مِن البطالة والفراغ، وتَعاطىٰ التحصينات ليأمن مِن المرض، كما وضع الحُرّاسَ علىٰ الأبواب ليؤمِّن المُنشَآت والممتلكات مِن السرقة والسطو، وصَفَّ الجنودَ علىٰ الحدود

ليؤمِّن الدولةَ ضد البغي والعدوان، ونشَر الشرطةَ في ربوع المجتمع ليحفظ الأمْن ويَعمّ السلام، وعيّن خبراءَ مختصّين ليؤمِّن معلومات حساسة وملفات خاصة تحفظ للدولة أسرارها. بل وأنشأ له العالَم مجلسا يتألّف من خمسة عشر عضوا، يتلاعب الخمسة الكبار به ويتحكّمون في مصيره عبر حقّ النقض (الفيتو)، وهم؛ روسيا، وأمريكا، والصين، وبريطانيا، وفرنسا.

والواقع أنّ مفهومَ الأمْن أشمل مما سلف ذكره بكثير؛ فهو إحساس بالسكينة وسْط العواصف، وشعور بالرضا وسْط الخطوب، ووقاية مِن ضلال الشيطان ونزغاته، وسلامة مِن سوء الخاتمة وعذاب القبر ونار القيامة. ولأنّه مِن أجلّ النِّعم وأثمنها، فقد جعله الله حصْرا وقصْرا علىٰ أهل الإيمان الخالص: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ ﴾[1]، وساقه نِعمة ومِنّة إلىٰ أهل الجنّة المُتّقين: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ ﴾[2]، وكان باكورة تضرّعات الخليل إبراهيم فيما يَخصّ البلد الحرام: ﴿ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا ﴾[3]،

(1) الأنعام 82.

(2) الحِجر 15،16.

(3) البقرة 126.

وكان مَكرُمةَ الله علىٰ قريش﴿ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ۝٤﴾[1]. كما صاغ منه النبي صلىٰ الله عليه وسلم مفتاحا لحيازة الدنيا بأسْرها فقال: "من بات آمنا في سربه معافىٰ في بدنه عنده قوت يومه فقد حِيزت له الدنيا بحذافيرها"، وثمَّنه الشيخ محمد الغزالي عاليا واشترطه للتفكير السويّ القادر علىٰ تغيير التاريخ فقال: "الأمان والعافية وقوت يوم واحد؛ قُوىٰ تتيح للعقل النيِّر أن يفكِّر في هدوء واستقامة تفكيرا قد يُغيّر به مجرىٰ التاريخ كلّه".

وهو ثمرة الإيمان بالله والثقة به والتوكّل عليه، وبه أمِن نبيُّ الله (موسىٰ) مِن فرعون، وأمِن نبيُّ الله (يوسف) في الجُبّ، وأمِن خاتمُ الأنبياء (محمّد) في الغار، وأمِن ذو النون (يونس) في بطن الحوت، وأمِن الخليلُ (إبراهيم) في أتون نار(النُّمرود بن كنعان). كما أمِن أهلُ الكهف مع كلْبهم ورَقِيمهم ثلاثمائة سنة شمسيّة[2] حتىٰ أذن الله بنصرهم وتمكينهم، وأمِن ابنُ تيمية في سجنه حتىٰ تَراءىٰ له السجنُ خلوة والنفي سياحة والقتل شهادة، وأمِن سيّد قطب علىٰ عود المشنقة فلم يَطرف له

---

(1) قريش 4.

(2) "ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعا" هذا بحساب السنين القمرية التي تزيد عن الشمسية بمقدار ثلاثة أعوام كلّ مائة.

جفن ولم تَندّ منه آه، وأمِن أهلُ بدر حتىٰ غشّاهم النّعاس﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ (1).

ويَظلّ ارتباط الظّلم بالخوْف والتصاق العدْل بالأمْن قائما علىٰ صعيد الأفراد والمُجتمعات والدّول، ومُوَثَّقا عبر تجارب الإنسانية في تاريخها المُمتدّ، حتىٰ اعتُبِر الأمْنُ والعدْلُ مرادِفيْن للماء والهواء مِن حيث ضرورتهما للحياة. وفي هذا تَروي كتبُ السيرة، أنَّ أحدَ ولاة الخليفة عمر بن عبد العزيز أرسل يطلب مالا ليقيم سُورا يُؤمِّن به عاصمة الولاية، فردّ عليه قائلا: أَمِّنْها بالعدْل ونَقِّ طرقَها من الظلم. كما تَناقل القاصي والداني شهادة رسول كِسرىٰ، حين رأىٰ خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ينام في ظل شجرة آمنا مطمئنا بلا حرس يَحرس له وبلا حاجب يَزود عنه، فقال: "حكمْتَ فعدلْتَ فأمنتَ فنمتَ يا عمر".

والحقيقة المؤلمة؛ أنّ قدْر نعمة الأمْن لا يعرفها إلّا مَن فقدها وذاق مُرّ ويْلات الخوف واكتوىٰ بِحَرِّ لهيب الفوضىٰ، فاضطربَ جنانُه واختلجَ فؤادُه وارتعدَت فرائصُه، ولم تقرّ له عيْن أو يَغمض له جفن أو يَهنأ له

(1) الأنفال 11.

عيْش أو تلذّ له حياة. أمّا علىٰ صعيد المجتمعات؛ ففقدان أمنها يعني أنّ الفوضىٰ تنتظرها، والجرائم تجتاحها، والحروب الأهليّة تطحنها، والكوارث والمصائب تحلّ عليها وحدانا وزرافات، ولا يُجدي عندها نفعا تلك القُرىٰ المحصَّنة أو الجُدُر العالية، ولا يُعيد الأمورَ إلىٰ نصابها تلك الجنود المجنَّدة أو الأبراج المشيَّدة، بل وحدها وصيّة الشاعر محمد إقبال هي العلاج، وذلك حين قال:

إذا ضـاع الإيمـان فـلا أمـان ولا دنيـا لمَـن لـم يُحيـي دينـا

ولعلّ أوضح مشهد لفقدان الأمْن، هو مشهد اجتياح التتار لبغداد عام 656هـ، وما جرىٰ فيه مِن انتشار الهلع والفزع وشيوع الهرج والمرج، وهو ما حكاه ابن كثير في (البداية والنهاية) قائلا: "كان الجماعةُ مِن النّاس يَجتمعون إلىٰ الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتارُ إمّا بالكسْر وإمّا بالنّار، ثمّ يَدخلون عليهم، فيهربون منهم إلىٰ أعالي الأمكنة، فيقتلونهم في الأسطحة حتىٰ تجري الميازيبُ من الدماء في الأزقّة، كما قُتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن، وتَعطَّلت المساجدُ والجماعاتُ والجُمُعات مدّة شهور، ولمَّا انْقضىٰ الأمدُ المقدور، بقيت بغداد خاوية علىٰ عروشها، والقتْلىٰ في الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيَّرت صورُهم وأَنتنَت البلدُ مِن جيفهم وتَغيَّر الهواء فحصل بسببه

الوباءُ الشديد حتىٰ تَعدَّىٰ وسَرَىٰ إلىٰ بلاد الشام، واجتمع علىٰ الناس الغلاءُ والوباءُ والطعْن والطاعون".

أمّا اليوم وفي ظلّ عالَم يَموج بالفتن والمحن والاضطرابات؛ حتىٰ إنّ أحدَهم أحصىٰ مائة وثلاثين حربا جرَت في القرن العشرين وخلَّفت وراءها أكثر من مائة وعشرين مليونا مِن القتلىٰ. ووسْط القلق الذي بات مرض العصر، واحتلّ المرتبة الأولىٰ في قائمة الأمراض النفسية. وبعد أن أصبح العالَمُ أصغر مِن أصغر قرية؛ حتىٰ ليؤثِّر الحدَثُ في أقصىٰ العالم علىٰ أدناه...لن تُمطرَنا سحائبُ الأمْن، ولن يَشملنا بستان الأمن بفَيْئِه ويُضمّخنا بعطرِه؛ إلّا بأداء الأمانات، وطاعة الوحي الذي وُكِّل به جبريل أمين السماء، واتّباع سُنّة الأمين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وتعظيم البلد الآمِن والحرَم الآمِن، والوفاء بحقّ النعمة وشُكْرها ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾[1].

(1 النحل 112.

ولعلّنا لاحظْنا في واقعنا المعاصر، ما قامت به قوىٰ دولية مِن هدم دول بمعاول عُرِفت بالفوضىٰ الخلّاقة تَبنّاها اليمين الأمريكي وعملاؤه، وذلك عبر زعزعة نظام قائم، وتَعمُّد خلْق حالة مِن انعدام الأمن وعدم الاستقرار، وإشاعة جوّ مِن الاحتقان والخوف والعنف، لِتنفلت الأوضاعُ وتنهار الدول، فتصبح صيدا ثمينا يَسهل صيده، وعجينة لينة قابلة لإعادة التشكيل علىٰ هوىٰ القُوىٰ المتنفِّذة. كما مرّ بنا في العديد مِن الدول، كيف كان التهديد بانعدام الأمن وشيوع الفوضىٰ، هو السيف المُسلط علىٰ رقاب الشعوب للرضوخ للطغيان وإعادتها إلىٰ حظيرة الاستبداد، علىٰ اعتبار أنّ الجماهير تَصبر علىٰ الطغيان ولا تطيق انعدام الأمان، وتَرضىٰ بالاستبداد إذا كانت الفوضىٰ هي البديل المتاح، وتَقبل بالاستقرار حتىٰ لو توسّدَت التراب والتحَفَت السماء وأكلَت ورق الأشجار.

ومِن عجيب ما رواه المؤرِّخون، أنّ حمامةً باضت في فسطاطٍ لعمرو بن العاص إبّان ولايته لمصر، فلمّا عزم علىٰ الرحيل وهَمَّ العُمّال بخلع الفسطاط، وجدوا به عشّ حمامة يحوي بيضا لم يفرخ بعد، ولمّا عرضوا الأمرَ علىٰ سيدنا عمرو قال: "لا تُزعِجوا طائرا نزل بجوارنا، وحلّ آمِنا في رحالنا، أَجِّلوا العملَ حتىٰ تفرخ وتطير"!

وتَبقى الإشارة إلى أنَّ الأمْنَ المطلَق لا وجود له إلّا في جنبات دار السلام وفي ظلّ عرش الرحمن، حيث يَأمَن فيها صاحبُها مِن الموت والفقر والمرض والهمّ والشيْطان، وكذلك مِن غضب الله عزّ وجل...وذلك لعَمْري هو الأمْن الذي لا أمْن بعده والأَمَنة التي لا تضاهيها أَمَنة.

6- التمحيص..بُدٌّ لا بُدّ منه

في عالَم الطيورِ صقورٌ ونسور ولكنّها لا تعدِم الدّجاجَ والبُغاث، وفي عالَم الحيوانات أسودٌ ونمور ولكنها لا تَخلو مِن الكلابِ والجرذان، وفي عالَم الحشراتِ نحْل وفراشات ولا يَغيب عنها البعوضُ والذباب...ولا يَشذّ عالَمُ الإنس عن تلك القاعدة المُطّردة؛ ففيهم مَن سما عقلُه ونَبُل خُلُقه وكَرُم فعلُه، وفيهم مَن شبّ البدنُ وترعرع بينما جمُد العقلُ في مرحلة الطفولة وانتكس الخُلُق إلىٰ طباع الغابة وارتدّ الفعلُ إلىٰ صنيع الأبالسة؛ فكانوا بغالَ الجسمِ عصافيرَ العقْل وحوشَ الخُلُق.

ولا تثريب هنا البَتَّة علىٰ الطيور والحيوانات والحشرات، باعتبارها مخلوقات مُسَيَّرة لا ناقة لها في الأمْر ولا جمَل، ومُتّسقة في ذلك تمام الاتِّساق مع طبيعتها التكوينية؛ إذْ لا ضميرَ يُنبِّه ولا عقلَ يُدرك ولا بصيرةً تَهدِي. أمّا علىٰ السّاحل الإنسيّ الذي وهبه اللهُ فِطرةً أبيض مِن الثلج وأنقىٰ مِن الغمام، ومنحَه عقلا يُميِّز سخيفَ القول مِن حكيمِه ويُفنِّد كريمَ

الخِصال مِن دنيئها، ثمّ أَرسل إليه رسُلا مُبشِّرين ومُنذِرين...فلا مُرتقَىٰ لعُذر ولا مناص مِن التشريب.

وبالنظر إلىٰ عوالم الطيور والحيوانات والحشرات؛ فإنَّ التمييزَ يَسهُل بيْن الوحشيّ منها والأليف، وبين الجارِح منها والمُسالِم؛ لأنّها في الغالب تفتقِر إلىٰ الحيلةَ والخديعة، وتفتقِد المكْرَ والدّهاء، ولم يَتناهىٰ إلىٰ أسماعها اختراعٌ يُسمَّىٰ النفاق وابتكارٌ يُعرَف بالمداهنة وداءٌ يُطلَق عليه الطابور الخامس. أمَّا فيمَن يَدبّ مِن البَشر؛ فيَصعب التمييز بين ذوي المعدن الكريم والمعدن الوضيع، ويَشقّ التعرّف علىٰ الباطن الطيّب مِن الباطن الخبيث، ويَحتار اللبيبُ في فرز الأصيل مِن الدخيل. ولهذا جاء التمحيص ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾[1]، فكانَّ سُنَّة ربانيّةً كونيّةً ماضية إلىٰ يوم الدِّين، ويكأنّه غربال يفصل الوليَّ عن العدوّ، ونار تكشف الثمينَ مِن الرخيص والذهبَ مِن الحديد. وفي ذلك – ولا ريب– صحّة الحياة وتمام عافيتها؛ لأنّ أوّل الإيمان–كما قال إبراهيم الشملان– أن تُفتن فتَصبر وتَصدُق، ولأنَّ المنافقَ ليس أهْلا لمشاركة المؤمن بهجةَ النصر وحلاوته علىٰ حدّ تعبير الشيخ محمد صالح المنجد.

(1) آل عمران 114.

والتمحيص يَعني الابتلاء والفتنة والاختبار، ويَأخذ صورا عديدة وهيئات شتّىٰ، ويكون بالمنْع والحرمان تارة، وبالعطاء والإغداق تارة أخرىٰ. والواقع أنَّ التمحيصَ بالعطاء -علىٰ خلاف ما يعتقده البعض- هو الأشدّ والأنكىٰ؛ لأنّه لا يُدركه إلّا أهلُ النُّهىٰ وأرباب البصيرة، علاوة علىٰ أنَّ الغفلةَ عادةً تَصحب العطاء، حتىٰ ليحسب بعضُهم أنّ كلَّ عطاءٍ مِن الله رضا ومحبَّة، وأنَّ كلَّ إغداق هو جائزة وليس استدراجا. وذلك علىٰ النقيض من الحرمان الذي يَكسر جمودَ القلوب، ويهزّ بواطنَ النفوس، ويُوقظ مكنونات الضمير، فيصبح المُبتلىٰ أقرب إلىٰ النجاح منه إلىٰ الفشل. ولهذا نجد أنَّ السقوطَ مع العطاء أكثر، والاحتراز منه أَوْلىٰ وأَوْجب؛ وانظر في ذلك حال قارون حين أغواه المال، وفرعون الذي أعْماه الجاه، والنمرود حين غرَّتْه القوّة، وأصحاب الجنّة الذين أرْداهم الطّمع، وإبليس الذي سقط في فخّ العنصريّة والعنجهيّة.

ومع هذا يبقىٰ التمحيص بالمنْع أشهَر وبالحِرمان أكثر؛ ونجده ماثلًا في أتون المحنة وصدمة البأساء وحيرة الضرّاء وغياهب البلاء، وحاضرًا في طيّات الخوْف والجوع ونقْص الأموال والثمار، ومتجسِّدًا في سوْط جلّادٍ وديْجور سجنٍ وتَجبُّر سلطان. وعلىٰ وقْعه يَنقشع الضبابُ ويَنجلِي الغبار؛ فيَبرُز الفارسُ ويَفِرُّ الجبان، ويتفاضل البشرُ إلىٰ عدّة أصناف:

فمنهم مَن ينسلخ مِن إنسانيته؛ حين يبادر إلىٰ السرقة في العتمة ويُذكي نارَ الفتنة ويَملأ كنانةَ الظّلم ويَشدّ قوسَ الفُجْر؛ فيَثْرَىٰ علىٰ حساب الفقراء ويَرقَىٰ علىٰ أكتاف الضعفاء ويَكتب مجدا زائفا بدماء الأبرياء. ومنهم مَن ينكشف حالُه[1] ويفتضح أمرُه، فيعرِف القاصِي والدّاني أنّه لم يَكن إلّا بهلوانا يُجيد اللعبَ علىٰ الحبال، يرتدي مسوحَ الورع بينما يُضمر ما يَستحي منه إبليس، ويَبتسم في العلَن بينما يَلدغ كالثعبان في الخفاء. ومنهم مَن يَجبُن فيَقف علىٰ الأعتاب ولا يَقوَىٰ علىٰ اقتحام العقبة، مُكتفيًا بلعْن الظلام وذرْف الدموع والوعيد بالثبور، بعدما غاب عنه أنَّ الأوطانَ تُميتها الدموع وتُحييها الدماء، وأنَّ الذهبَ لا يُشترىٰ بالتراب، وأنّ الدِّين دونه الرّقاب.

أمّا ملح الأمّة وركنها الركِين وأملها الوثَّاب من العلماء الربّانيين والقادة الحقيقيين؛ فهم أولئك العُصبة التي صنعها اللهُ علىٰ عيْنه، فاجْتازت وحْلَ الفتنة واسْتمسَكَت بحبل الله، ثمّ تقدّمَت الرّكْب لتسكب الزيتَ في القنديل وتوقد فتيلَ الشموع وتنير مصابيحَ الهدىٰ وتذود عن

(1) يقول (الفضيل بن عياض) رحمه الله: "الناس مستورون ما داموا في عافية، فإذا نزل بهم بلاء صاروا إلى حقائقهم؛ فالمؤمن يصير إلى إيمانه، والمنافق يصير إلى نفاقه".

الثغور وترفع رايةَ الحقّ، لتُنهِض الأمّةَ مِن وهدتها وتوقظها مِن سباتها، وشعارُهم ما قاله شاعرُ الخضراء أبو القاسم الشابي:

سأعيش رغم الدّاءِ و الأعداءِ

كالنِّسرِ فوق القمّة الشمّاء

ولو نظَرْنا في مسيرة بناء الأُمم ودقَّقْنا في أضابير تاريخنا الإسلامي؛ لوجدْنا صفحاتٍ تَقطر بالتمحيص، وأحداثا تَعجّ بفرْزٍ يلي مرحلة التكوين والتأسيس ويسبق مرحلة الظفر والتمكين والغلَبة. ولرأيْنا كيف تَمايزت الصفوفُ وزالَت المساحيقُ وتَساقطَت الأقنعة؛ حتىٰ أَسفرَت الوجوهُ القبيحة عن حقيقتها، وظهر جليًّا أصحابُ الحقّ مِن دُعاة الضلال، وتَبيّن الخيطُ الأبيض مِن الخيط الأسود؛ فهل ظهرَتْ خيانةُ ابن العلقمي إلّا عند نكبة التتار التي أَحرقَت البلادَ والعباد؟ وهل تَجلَّتْ علمانيّة أتاتورك البغيضة إلّا مع الإجهاز علىٰ الخلافة وتَفرُّق شمل الأمّة وانفراط عقْدها؟ وهل برَزتْ عمالة الجلبي ومَن علىٰ شاكلته إلّا مع قدوم دبابة أمريكية حوّلت بغداد العروس إلىٰ أرْمل؟ وهل تأكّدت زعامةُ ابن سلول للمنافقين إلّا مع رجوعه بثلث الجيش في أُحُد؟ وهل افتضحَت سوءُ طويّة بني إسرائيل إلّا مع فِتن البقرة والنّهر والعِجل وغيرها مِن

الاختبارات التي تَعهَّدهم اللهُ بها؟ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾ وفي المقابل، فإنَّ أبا بكر لم يُصبح صِدِّيقا إلّا بعد أن مَحَّصتْه معجزةُ الإسراء والمعراج، واجتازها بنجاح واقْتدار بعد قولته المشهورة: "إن كان قال فقد صدق". وكذلك الإمام أحمد ابن حنبل الذي محَّصتْه محنةُ خلْق القرآن، فثبَت فيها ثبوت الشمّ الرواسي، وصدح في أُذن الزمان قائلا: "القرآن كلام الله غير مخلوق"، واستحقّ بذلك إمامةَ أهْل السنّة والجماعة. والشهيد سيّد قطب، الذي وضع رأسَه علىٰ المشنقة ثمنا لدعوة التوحيد ورفضا للظلم والطغيان قائلا: "إنَّ إصبع السبّابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة ليرفض أن يكتب حرفا واحدا يُقِرّ به حكم طاغية". وكذا السلطان عبد الحميد، الذي وقف في وجه الأطماع والرشاوَىٰ اليهودية قائلا: "لِيحتفظ اليهود بملايينهم، فلا أستطيع الموافقة علىٰ تشريح أجسادنا ونحن علىٰ قيد الحياة، وإنَّ عمل المبضعَ في بدني أهون عليّ مِن أنْ أرىٰ فلسطين قد بُتِرت من الدولة الإسلامية". وغير هؤلاء كثيرون ممَّن ضربوا أروع المِثال، فمَا لانَت لهم قناة ولا حادوا عن جادّة الصراط.. فللّه دَرّهم وعنده سبحانه أجرهم.

ولا يُظنَّ ظانٌّ أنَّ التمحيصَ يُنافي عِلمَ الله ببواطنِ الناس وخباياهم؛ فعِلْمه سبحانه قديمٌ سابِقٌ علىٰ الخلْق، وشامِل لكلِّ ما عظُم ودقّ، ولا يَعزب عنه مثقال ذرة في سماءٍ أو أرض. وإنَّما ينبغي فهم هذا التمحيص علىٰ أنّه مِن قبيل إقامة الحجّة وسوْق الدليل ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ﴾[1]. كما يجب الانتباه إلىٰ أنَّ الابتلاء في حقّ أنبياء الله إبراهيم وموسىٰ ويعقوب ويوسف ومحمد وغيرهم -عليهم أفضل الصلاة والسلام- ليس فرزا وتصنيفا، بعد أن اصطفاهم اللهُ وعصَمهم؛ وإنَّما هو تعبيرٌ عن محبَّة الله لهم، وتأكيدٌ علىٰ بشريّتهم، وبغرض ضرْب المثَل وتجسيد القدوة علىٰ مَرأىٰ ومسمع مِن أتباعهم؛ فرسل الله عامّة، ورسولنا صلّىٰ الله عليه وسلم خاصة، ليسوا مجرّد "سعاة بريد"، ولكنهم -كما قال د. محمد عمارة- معلّمون ومربّون وحكماء وقدوات وقضاة وشارعون أيضا[2].

ولأنَّ بنيانا يَختلط فيه الغثُّ بالسمين والصالحُ بالطالح والأمينُ بالخائن، لَهو بناءٌ هشٌّ رخْو، يَحمل بذورَ فنائه بين طيّاته ويَكتب تاريخَ وفاته قبل ولادته؛ فإنَّ مرحلة التمايز وفترة التمحيص، وإنْ طال زمانُها أو

---

(1) الأنفال 42.

(2) الإسلام هل هو القرآن وحده؟ ص 12، 13.

غلا ثمنُها وفدحتْ تضحياتُها، لَهي مِن السّهم بمكان الكنانة ومِن الثمرة موضع البذرة ومِن الشفاء بمثابة الدواء. وفي هذا، ورد ضمن كتاب (الفوائد) لابن القيّم رحمه الله، أنَّ رجلا سأل الإمام الشافعيّ قائلا: "يا أبا عبد الله، أيّهما أفضل للرجُل أن يُمَكَّن أو يُبتلىٰ؟ فأجاب: لا يُمَكَّن حتىٰ يُبتلىٰ". والحقّ، أنَّ الابتلاءَ ليْس شوطا منتهيا ينال بعده المُبتلَىٰ شهادة ضمان مدىٰ الحياة، وإنّما هو سلسلة متّصلة الحلقات وكتاب متعدّد الفصول، فيلازمنا ملازمةَ الروح للجسد ويرافقنا مرافقة الظلّ للشجر، ولهذا علَّمنا النبيّ ﷺ أن نردِّد دوما: "يا مقلِّب القلوب والأبصار ثبِّت قلوبَنا علىٰ طاعتك". ورغم قسوة التمحيص وتكلفته العالية؛ فإنَّ نشوةَ الظفَر وعِزّ التمكين كفيلان بمحو الآلام وإذابةِ اللأواء، حتىٰ لتبدو تلك القسوة والتكلفة مجرّد طيف حُلم وسحابة صيف ووخز إبرة لا غير.

7- العبادةُ المَنْسيّة

كثيرةٌ هي جوانب النقص في علاقتنا مع الله، وعديدةٌ هي الثغرات التىٰ يُداهمنا مِن قِبَلها الشيطان.. ومِن كمال الإيمان أن نعترف بتقصيرنا ونقرّ بعيوبنا[1]؛ فنُفتِّش عن هذه النقائص ونتلمَّس تلك الثغرات، ثمّ نبادر برتْق الفتْق وإصلاح الخَلل. ومِن بين المَثالب التي بَرزَت مع تَسارُع وتيرة الحياة، حتىٰ بدَت كثورٍ هائج وبحرٍ مائج وريحٍ عاصف؛ ما نلحظه مِن قلّة ثنائِنا علىٰ الله كما يَنبغي ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[2]..هذا في الوقت الذي تتضخَّم يومًا بعد يوم قرابينُ ثناء وعرائضُ مدح تُساق جبْرًا أو طوْعًا بين يدي الحكّام والوزراء والكُبراء؛ فهذا صاحب السعادة والفخامة، وذاك صاحب السموّ والعظمة، وذلك صاحب الجلالة والرِّفعة، فضلا عن

(1) يقول أحدُ السلف: "أنفع الصدق أنْ تُقِرّ للهِ بعيبِ نفسك".

(2) الأنعام 91، الزمر 67

الكثرة الكاثرة ممّن يُقال لهم: سيادتك أو فضيلتك أو سماحتك أو حضرتك، وأغلبها ألقاب لا يقف وراءها حقٌّ معنوي نالوه بجهدٍ علمي سكبوا فيه عَرق الجبين وأنفقوا له سهر الليالي، بل إنّ جُلّها مجرّد أوصافٍ لا تَخلو من تَزلُّفٍ وتَملُّقٍ وتَصنُّع، خاصّةً حين تُطلب بصلَف يبلغ حدّ الإصرار؛ كما حدث في الدوائر السياسية لإحدىٰ الدول العربية، حين أَعادت رسالةً دبلوماسية لأنها خلَت مِن لقب "صاحب الفخامة" أو "صاحب الجلالة"!..وأظنّهم لم يَسمعوا عن عُتبة بن غزوان الذي رأىٰ مدْح النّاس له، فخشي علىٰ نفسه الغرور وقال: "اللهمّ لا تجعلني عندك صغيرا وعند الناس عظيما". ولم يقرؤوا عن شريعة للمغول خطَّها جنكيزخان وحرّم فيها تفخيم الألفاظ ومنْح الألقاب، ودعا إلىٰ مخاطبة السلطان ومَن دونه باسمه المجرّد!

والثناء هو المدْح والتقريظ والتبجيل والتقدير، وهو في حقِّ الله مِن أوجب الواجبات وأشرف الغايات؛ لأنّه سبحانه هو الخالِق المالِك الرازِق المُتصرِّف المُدبِّر المُحْيي المُميت. وهو لازمٌ في كلِّ وقتٍ وعصْر، وحَريٌّ بنا أن نستحضرَه في الشدّة والرخاء وفي السفَر والحضَر وفي سائر مناحِي الحياة، وله مِن الصيَغ ما حفلت به دفّتا المصحف الشريف

وأضابيرُ السنّة المطهَّرة مِن تسبيح وتهليل وتحميد وتكبير وغيره، وذلك منَعا للابتداع والغموض الذي خاض فيه بعضُهم فأَلبَسوا الباطلَ ثوب الحقّ، وخلطوا دلو ماءٍ بدلو طين، وخرجوا مِن غير الباب الذي دخلوه.

وهو عبادة مَنسيّة أَصّل حُكمَها الشرعيّ الإمامُ يحيىٰ بن شرف، المُلقَّب بالنّووي نسبة إلىٰ بلدته (نوىٰ) بشمال الشام، فقال: "أجمعَ العلماءُ علىٰ استحباب ابتداء الدعاء بالحمد لله تعالىٰ والثناء، ثمّ الصلاة علىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، وكذلك يُختَم الدعاءُ بهما"، وكأنّ الثناءَ للدعاءِ بمثابة المقدِّمة والخاتِمة للكتاب، وبمكانة الطَّليعة والمؤخِّرة للجيش، وبمقام المُقبِّلات السابقة علىٰ الطعام والحلوىٰ التي تليه (هذا إن جاز التعبير). وهو كذلك ممَّا يُحبّه اللهُ كما جاء في الحديث الشريف الذي رواه الشيخان: "ليس أحدٌ أحبَّ إليه المدْحُ مِن الله، مِن أجل ذلك مدَح نفسَه". ولنتذكّر أنّ الزَّبور الذي أُنزل علىٰ نبيّ الله داوود، لم يكن إلّا تحميدا لله وثناء عليه، دونما أيّة أحكام.

وأفضل الثناء هو ما أثنىٰ به اللهُ علىٰ نفسه بأفضل كلامٍ في أفضل كتاب وهو القرآن العظيم؛ فأعظم سور القرآن وهي سورة الفاتحة افتُتحت بالحمد والثناء والتمجيد، وأعظم آيةٍ في الكتاب وهي آية الكرسي كلّها ثناء، بل وما كانت كذلك إلّا لِما فيها من الثناء الجميل. وبما أنَّ الحمْد

ثناء فقد تكرَّر في أكثر مِن عشرين موضعًا قرآنيا، وافتُتحت به خمس سور، وجاء كلُّ رُبع مِن أرباع القرآن الأربعة مُتوَّجا بتاج الحمد لله؛ فالرُّبع الأوّل افتُتح بسورة الفاتحة "الحمد لله رب العالمين"، والثاني بسورة الأنعام "الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض"، والثالث بسورة الكهف "الحمد لله الذي أنزل علىٰ عبده الكتاب"، أمّا الرُّبع الرابع فافتُتح بسورتَي سبأ "الحمد لله الذي له ما في السماوات والأرض" وفاطر "الحمد لله فاطر السماوات والأرض".

وكذلك التسبيح الذي يَعني التنزيه والتعظيم ويتضمَّن الثناء علىٰ المُنزَّه والمُعظَّم؛ نجده قد تَكرّر في سبعةٍ وثمانين موضعًا قرآنيّا، وافتُتحت به سبعُ سور، هي الإسراء والحشر والصفّ والجمعة والحديد والتغابن والأعلىٰ. أمَّا التبريك بلفظة تبارك، والتي فسَّرها أهل العِلم بأنَّها كلمة تعظيمٍ وثناء لم تُستعمل إلّا للهِ وحده؛ فقد جاءت في ثمانية مواضع وافتُتحت بها سورتا الفرقان "تبارك الذي نزّل الفرقان علىٰ عبده " والمُلك "تبارك الذي بيده الملك". وقد قدّم الإمام ابن رجب الحنبلي في كتابه (جامع العلوم والحِكم) التحميدَ علىٰ التسبيح بقوله: "التسبيح دون التحميد في الفضل، وسبب ذلك أن التحميد إثبات المحامد لله، فدخَل في

ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال. أمّا التسبيح فإنه تنزيه الله عن النقائص، والإثبات أكمل من السلْب".

والواقع أنَّ اللهَ سبحانه وتعالىٰ غنيٌّ عن ثنائنا، سواء كان هذا الثناء بلسان الحال أمْ بلسان المقال؛ إذْ لا يَنفعه -تَنزَّه اسمُه وجَلّ جاهُه- مدحُنا ولا يُضيره قدحُنا، بل في الثناء مصلحةٌ للعباد لأنّهم يُثنون فيُثابون ويَنتفِعون. أضِف إلىٰ ذلك أنّ الثناء علىٰ الله ذِكْر، ومَن ذَكَر اللهَ ذكَره﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾، وشتّان بين ذِكْر الربِّ للعبد وذِكر المخلوق للخالق، وما أبعد البوْن بيْن مَلَأ الطُّهْر مِن ملائكة أبرار يذْكُرنا اللهُ عندهم، وبين ملَأ مِن القوم يشهدون أو يسمعون ذِكْرنا. فضلا عن أنَّ الثناءَ علىٰ الله جِوار وأَكرِم به مِن جوار، وهو به لُواذ ومَن لاذ به أُجِير وأُكرِم، وفيه كذلك رضا وتسليم ومَن رضِي عن الله رضِي عنه، كما تُرفَع به الأعمال وتُجاب الدعوات ويَذهب الخوف ويتلاشىٰ الجزع. وهو مِن عبادات الرقائق التي تَفيض لها الدموعُ وتَلين القلوبُ وتَتعافىٰ الأرواح، ومِن أمارات الحُبّ للمعبود، وأدب المثول بين يدي ملِك الملوك.

ولهذا كان الثناءُ والتمجيدُ ديْدن الأنبياء والرسل ونهْج الصحابة والتابعين؛ فقد أَنكر النبيُّ ﷺ علىٰ مَن دعا ربَّه دون أن يَسبق بالتمجيد والثناء فقال ﷺ "عَجِل هذا"، بينما أثنىٰ علىٰ نقيضِه فخاطبَه قائلا "ادْعُ

تُجَب وسَل تُعطَ"، كما كان مِن دعائه ﷺ في أقرب اتصال بينه وبين ربه عند السجود: "اللهم إني أعوذ برضاك مِن سخطِك وبمعافاتِك مِن عقوبتِك وأعوذ بك منك لا أُحصي ثناء عليك كما أثنيْت علىٰ نفسك"، وهو ما شرحه إمام دار الهجرة (مالك بن أنس) رحمه الله فقال: "معناه لا أُحصي نعمتَك وإحسانَك والثناء بها عليك وإن اجتهدتُ في ذلك"، بمعنىٰ أنَّنا لا نوفِّي الحقّ ولكنّنا نسدِّد ونقارِب، وحسبنا ما قاله الشاعرُ الذي أَسلم شعرُه ولم يُسلِم قلبُه (أميّة بن الصلت):

أأذكُر حاجتي أمْ قد كفاني ... حياؤك إنَّ شيمتَك الحياءُ

إذا أثنىٰ عليكَ المرءُ يوما ... كفاه مِن تَعرُّضه الثناءُ

وقد فضَّل الزاهدُ العارفُ يحيىٰ بن معاذ الرازي أهلَ الثناء علىٰ أهلِ الزهد، فقال: "همُّ العارف الثناء، وهمُّ الزاهد الدعاء، لأنَّ همَّ العارف ربّه، وهمَّ الزاهد نفسه". وجاء عن أحدِ السلفِ مِن أهل الثناء قولُه العاطِر: "سبحان الذي في السماء عرشه، سبحان الذي في الأرض حُكمه، سبحان الذي في القبر قضاؤه، سبحان الذي في البحر سبيله، سبحان الذي في النار سلطانه، سبحان الذي في الجنة رحمته، سبحان الذي في القيامة عدله، سبحان الذي رفع السماء، سبحان مَن بسط الأرض، سبحان الذي

لا ملجأ ولا مَنجىٰ منه إلّا إليه". كما نُقل عن أحدِ الصالحين مناجاةٌ جليلةٌ قال فيها: "يا مَن لا يشغله شأنٌ عن شأن ولا سَمْعٌ عن سمْع، فلا تَشتبه عليه الأصوات ولا تختلف عليه اللغات، ويا مَن لا يُبرِمه إلحاح المُلِحِّين ولا تُضجِره مسألةُ السائلين"، أمّا الشيخ ناصر الزهراني فقد نظَم أبياتا تزخر بالثناء والتمجيد لله نقتطف منها قولَه:

يـا مُحِـبّ الثنـاء والمـدح إنِّـي ... مِن حيـائي خـواطري في شتاتِ

لـو نقـشْنا ثناءَنـا مِـن دِمانـا ... أو بـذلْنا أرواحَنـا الغاليـاتِ

مـا أَبَنَّـا عـن همـسةٍ مِـن معـانٍ ... في حنايـا نفـوسٍ ماكنـاتِ

وفي تعظيمِ الله والثناء عليه، وأثرِه في ترقيق القلوب؛ روَى أديبُ الدعوة وداعيةُ الأدباء الشيخ محمد الغزالي، أنَّ أحد أساتذته في المرحلة الابتدائية، طلب منه أن يعرب "رأيتُ اللهَ أكبر من كلّ شيء"، فأجاب بقوله: رأيتُ فعل وفاعل، والله منصوب على التعظيم. وعندها ذرفَت دموع الأستاذ لالتزام الطالب الأدب والاحترام حيال إعراب لفظ الجلالة، فلم يقل إنّه مفعول أوّل!

ولله درّ الإمام الزمخشري القائل: ألا إنّ حقّ الثناء، لِمَن له حقّ السّناء. ولا أعلىٰ من رب العرش وأسْنى، ولا أحْسن من أسمائه الحُسْنىٰ. فاسْتفرغ في تمجيدهِ طوقَك، واجْتهِد أن لا يكون ممجّدٌ فوقك.

8- البطاقة الذكيّة

لا تُخطيء العينُ أرتالًا مِن المحن المتلاحِقة التي تضرب العُمْق الإسلامي، في محاولةٍ عابثةٍ بائسة مِن سَدَنتها ومُدبِّريها لحجْب نور الهداية وإخراس صوت الحقّ وتجفيف منابع الخير؛ تارةً بالجرأة علىٰ مقدّسات وثوابت استوىٰ عليها وعيُ الأمّة، مِن خلال خطابٍ إعلاميٍّ سُلطويّ ممجوج. وتارةً بالتضييق علىٰ منابر الدعوة، عبر تغييبها وتكميم أفواهِها، أو إلجامها ولَيّ أعناقِها. وتارةً أخرىٰ بتَبنِّي منظومة الظلم والاستبداد لسياسة الإرهاب، التي تدقّ رأس كلّ مَن يدعو إلىٰ استعادة مجدٍ زاهرٍ عنوانه كلمة التوحيد وسبيله إصلاح الفرد والمجتمع.

وكم يُثلج الصدرَ ويُقرّ العينَ ويُنعش الروح، أن ترقب وسط هذه المِحن ضوءًا أو قبسًا ينشد إعلاء حقيقةٍ من حقائق هذا الدّين العظيم؛ فيُحيي سُنّةً ويُذكِّر مؤمنًا وينبِّه غافلا، وكأنّه طاقةُ وردٍ تتصدّق بأريجها، وقارورةُ مسكٍ تَنثر عبيرَها، وسماءُ خيْرٍ تُهدِي غيثَها...

(صلِّ علىٰ محمّد).. بطاقةٌ بارزةٌ علَّقها أحدُ مرتادي المسجد علىٰ مقدّمة صدره وفي جوار قلبه، حتىٰ بدَت كالنِّيشان والوِسام، فلَفتَ ذلك انتباهي وأثار فضولي وأهاج سؤالي؛ فكان جوابه: أنّها بدأت كفكرةٍ دعويّة لم يُسبَق إليها إبّان دراسته الجامعية، وطوّح به التردّدُ حينًا بين الإقدام والإحجام، حتىٰ انعقد عزمُه عليها مِن أربعة أعوام خلتْ، فكانتْ لصيقته التي لم يغادرها في حَلّه[1] وترحالِه، وفي سوقِه وعملِه، حتىٰ صارتْ له علامةً مسجَّلة وشارةً مميّزة.

والرائق في تلك البادرة؛ أنّها دعوةٌ متحرّكة بلا أقدام وناطقة بلا لسان؛ فيها مِن التلميح والرّقّة واللّطف ما ينفذ بها إلىٰ سويداء العقل ويُلامس شغاف القلب، بعيدًا عن الضجيج الذي تملّه الأسماع، والصخب الباعث علىٰ النفور، والتعقيد الذي يثقل الكواهل ويكدّر الخواطر. ذلك التلميح الرّهيف الذي يُشابه ما تَلقّاه مالكوم إكس في بداية طريقه الدعوي علىٰ يد معلِّمه الذي نصحه قائلا: "إذا رأيتَ أحدا يحمل كأسَ ماءٍ متَّسِخة، فلا تُدِنْه، ولكن أَرِه كأسك النظيفة، ولن يكون عليك حينذاك أن تقول له أي الكأسيْن أفضل". كما أنّ في تلك اللفتة مِن الأناقة والبكارة؛ ما يفتح لها

(1) جاء في مقالات العلّامة الطناحي: الحَلّ بفتح الحاء، وكثير من الناس ينطقه بكسر الحاء، وهو خطأ.

مجال القبول، ويسلك بها سلّم الوصول، وتلك لَعَمري هي البطاقة الذكيّة؛ التي تُدِرّ الحسناتِ لا الأموال، وتَرفع المقامَ لا الرصيد، وتَفتح الجنانَ لا الخزائن...ولِم لا وقد قال الله تعالىٰ في محكم التنزيل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦ ﴾[1]، كما رَوىٰ أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنّ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم قال: "مَن صلّىٰ عليّ واحدةً، صلَّىٰ الله عليه عشرا".

والمُبهِج في ذلك السلوك؛ أنّه صدر مِن شابّ عِشريني؛ يُزيّن بعضُ أقرانِه -للأسف- جيادَهم بالسلاسل الفضية والذهبيّة، ويُسوِّرون معاصمَهم بالحلقات الملوَّنة، ويُشوّهون سواعدَهم بالوشْم، بينما اختار هو الزينةَ الأرقَىٰ والأنقَىٰ؛ فلم يُبالِ بنظرات الاستغراب والاستهجان، ولم يَعبأ باستفسارٍ يُغلِّفه الاستنكار والتسفيه، ولم يُقعِدْه اتّهامٌ بالرياء والمَظهريّة...فمَن استحضر حلاوة الظفر هان عليه الخطْب، ومَن كانت همّته السحاب لم يُعِقْه تلٌّ مِن تراب؛ إذْ لم يكن لهذه البطاقة أن تجدَ مكانها علىٰ مقدّمة الصدر، إلّا بعد أن امتلأ القلبُ بعاطفة الحبّ وحرارة

(1) الأحزاب 56، في هذه الآية قال صاحب الحِكَم (ابن عطاء الله): "الصلاة مِن الله صلة، ومن الملائكة رفعة، ومن الأمّة متابَعة ومحبّة". وقال غيره بأنها من الله ثناء ومن الملائكة استغفار ومن المؤمنين دعاء.

الوَجْد، ثمّ فاض علىٰ العقلِ بفكرة حملها ساعدُ العزم إلىٰ نور الوجود، ومشت بها ساقُ الهمّة صوب بؤرة الفعل. وهو في ذلك قدوةٌ ومثَل، وخليقٌ بكلّ شابّ –أو شابة– أن يحذو حذوه، فيَستدرّ قلبَه ويَستفزّ حيّز عقلَه، لينسج أفكارًا عدّة ويعلِّق بطاقاتٍ شتّىٰ؛ علّها تَسدّ الثغور وتُعلِي البناء وتُعيد الأمجاد، ولِيصْدق فيهم قول الشاعر هاشم الرفاعي:

شبابٌ ذلَّلوا سبُلَ المعالِي ... وما عرفوا سوىٰ الإسلام دينا

تَعهّدَهم فأنبتَهم نباتا ... كريما طاب في الدنيا غصونا

ومحبّةُ النبي صلىٰ الله عليه وسلم أصلٌ في الدِّين، ودعامةٌ للإيمان، وواجبٌ لا نفْل فيه؛ إذْ به أنقذَنا اللهُ مِن الضلال فهدانا إلىٰ الإسلام، وأخرجَنا مِن الظلمات إلىٰ النّور فعصَم لنا الدماء والأموال والأعراض، وبواسطته منحَنا اللهُ قرآنًا عليه مدار سعادتنا في الدنيا والآخرة، وبجَنابه يَشفع اللهُ لنا يوم الفزع الأكبر. وهو بذاته ﷺ خليقٌ بالحبّ؛ لأنّه أحَبّ أمّتَه كما لم يُحِبّ نبيٌّ أمّتَه قبله، ولأنّه اتّصف بصفات الكمال والبهاء والجمال؛ فكان محمّدًا اسمًا ورسما أي كثير الخصال المحمودة الطيّبة، وكان كما وصف نفسَه عليه أفضل الصلاة: "أنا حبيب الله ولا فخْر، وأنا حامل لواء الحمْد يوم القيامة ولا فخْر، وأنا أوّل شافِع ومشفَّع ولا فخْر،

وأنا أوّل مَن يحرّك حلقَ الجنّة فيفتح اللهُ لي فيُدخلنِيها ومَن مَعي مِن فقراء المؤمنين ولا فخْر، وأنا أكرم الأوّلين والآخِرين ولا فخر"، وفيه قال الحسَن بن الفضل: لم يَجمع اللهُ لأحدٍ مِن الأنبياء اسميْن من أسمائه إلّا للنبي محمّد ﷺ؛ فإنّه سبحانه قال فيه:﴿بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾[1]، وقال جلّ في علاه عن نفسه: ﴿ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾[2]. هذا فضلًا عن أنّ محبتَه ﷺ كأسٌ مَن شربها ذاق حلاوة الإيمان، ودربٌ مَن سلكها ضَمن رفقتَه في رياض الجنان. ويكفي لمحبّته أنه كان محطّ الوحْي وخبَر السماء.

والمَحبَّة تعني التوقير والتعظيم، وهي كما قال ابن القيّم: "المَحبّة لا تُحَدّ -أي لا يُذكر لها تعريف- إذْ هي أمرٌ ينبعث بنفسٍ يَصعب التعبير عنه"، ولأنّها في حقّ النبي صلىٰ الله عليه وسلم محبّةٌ قلبيّةٌ وعقليّةٌ وحِسيّة؛ فلا مجال للتعبير عنها بالورود الحمراء وكلمات الغزل وقصائد الهيام وآهات العشق، كما هو الحال في المحبّة التي تلهث وراء اللذّة وتتحرّىٰ المنفعة فتفترش الهوَىٰ وتلتحف الشهوة، بل إنَّ المحبّة هنا

(1) التوبة 128

(2) البقرة 143

لُحمتها التخلّق بأخلاق النبيّ السامية، وسُداها الاقتداء بما جاء به وسَنَّه وشَرَعه؛ فعلامة الحبّ الاتّباع. ولا يتأتّىٰ ذلك إلّا بدراسة سيرته التي تزخر بالفضائل والتضحيات علىٰ كافة الصّعُد وفي شتّىٰ المواقف، إذْ الحُبّ[1] ثمرة الإدراك والمعرفة، وكلما تَمَّت المعرفةُ قَوي الحُبّ والعكس صحيح. أضِف إلىٰ ذلك أنَّ كثرةَ الصلاة عليه، وتعظيمه وتوقيره، وعدم رفع الصوت عند سماع حديثه، وزيارة مدينته، والدعاء له بالوسيلة والدرجة الرفيعة، ومحبّة الصحابة وآل البيت؛ هو مِن مُقتضيات ذلك الحبّ ودلائله، مع الأخْذ في الحسبان أنّه صلىٰ الله عليه وسلم غنيٌّ عنّا؛ فلا حبّنا يزيده رفعة ولا جفاؤنا -والعياذ بالله- يُنقصه درجة.

ولقد ضرب الصحابةُ الكرام والتابعون الأجلّاء المثلَ الأعلىٰ في الحُبّ المحمّدي؛ فكانوا كما أمرهم الله سبحانه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ﴾[2]، وكان حبّهم لنبيّهم كحال أبي الحسن (علي بن أبي طالب) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ الذي قال: "كان واللهِ أحبّ إلينا مِن أموالِنا وأولادِنا وآبائِنا وأمّهاتِنا، ومِن الماء البارد علىٰ الظمأ"؛ فهذا خبيْب حينما خرج به المشركون ليصلبوه، تقدَّم منه أبو سفيان وقال: يا خبيب؛ أتحبّ أنّ

(1) يُعرَف الحبُّ عموما، بأنه ميل القلب فطرةً أو إدراكًا ومعرفةً إلى ما يُوافقه ويَستحْسنه.
(2) الأحزاب 6.

محمّدا في مكانك الآن تُضرَب عنقُه وأنت في أهلك؟ فقال خبيب: والله ما أُحبّ أنّ محمّدا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيتُ أحدا يُحبّ أحدا كحبّ أصحاب محمّدٍ محمّدا. وهذه امرأة أنصارية قُتل زوجُها وأبوها وأخوها في غزوة أحد، فلما أُخبِرت بذلك، قالت: ما فعل رسول الله؟ فقالوا هو بحمد الله حيّ كما تحبِّين، فقالت: أَرونيه أنظر إليه، فلما رأتْه قالت: كلّ مصيبة بعدك جلل، أي صغيرة بسيطة. وذاك الإمام مالك الذي كان لا يُحدِّث عن النبي صلىٰ الله عليه وسلم إلّا وهو طاهر متوضِّئ، وكان علىٰ ضعفه في أخريات أيّامه لا يركب دابّة في المدينة؛ إجلالا لأرض مَشَىٰ عليها النبي وثوىٰ فيها جسدُه الطاهر! وهذا سعيد بن المسيّب الذي سأله زائروه إبّان مرضه أن يَذكر لهم شيئا مِن أحاديث الرسول صلىٰ الله عليه وسلم، فقال أَجلسوني. قالوا: أنت مريض. قال: أَيُذكر صلىٰ الله عليه وسلم، وأنا مضطجع؟! وهذا ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي كان لا يذكر النبي إلّا وترقرقت عيناه بالدموع. أمّا خادمه الأمين (أنس) فقد حدّث عن نفسه أنه وبعد وفاته صلىٰ الله عليه وسلم لم تمرّ عليه ليلة إلّا ورآه في منامه.

وقد ذَكر عمر فرّوخ في كتابه (غبار السنين) أنّه كان يقرأ فصلا مِن رسالته العِلمية علىٰ أستاذه الكاثوليكي، فمرّ ذِكرُ "محمّد رسول الله"،

فقال الأستاذ: أنتَ تكتب رسالةً علميّةً وتقول محمّد رسول الله! فطويتُ أوراقي ونهضتُ قائما، فقال: لِم فعلتَ ذلك؟ قلتُ: لا أريد أن أدرس علىٰ أستاذ يَضيق صدرُه إذا أنا قلتُ "محمّد رسول الله"، بينما هو يعتقد أنّ المسيحَ هو الله بالذات. أمّا الشاعريْن (إلياس فرحات) و(رشيد سليم الخوري)، فكانا أشدّ إنصافا من هذا الأستاذ الجامعي، وذلك حين نظما قصيدتيْن في مدح النبي صلىٰ الله عليه وسلم، مع كونهما يدينان بالدِّين المسيحي!

وكما تَطاول أعداءُ الملّة علىٰ المقامِ الرفيع للنبوّة، وذلك عبر الرسوم الكاريكاتورية البذيئة والأفلام المسيئة؛ تحت زعمٍ مهترِئ من حريّة الرأي وستارٍ مفضوح من حقّ التعبير! فقد أقدَم بعض المنتسِبين إلىٰ الإسلام علىٰ التشكيك في السُنّة والطعْن في سِفرها الصحيح الذي وضع فيه الإمام البخاري حشاشة قلبه وخلاصة عقله ونور روحه، بينما غالَىٰ بعضُ الشيعة والمتصوِّفة[1] فأخرجوا النبيّ صلّىٰ الله عليه وسلم من بشريّته وزعموا أنه خُلق من نور! وأنه أزليّ الوجود! وأنَّ الكونَ خُلق من نوره! وغير ذلك من الهرْطقات التي مال إليها الأغرارُ من العوام وزعموا

(1) أبرز هؤلاء المتصوّفة الغلاة؛ (الحلّاج) الذي قال بالحلول، و(ابن عربي) الذي قال بوحدة الوجود.

أنّ ذلك مِن قَبِيل الحُبّ والتعظيم. والحقيقة أنّ هذا الغلوّ وجهٌ آخر للجفاء، وكلاهما-أي الغلوّ والجفاء- خرج من عباءة الغيّ والضلال والابتداع الذي لا يرضاه العزيز الحكيم القائل في كتابه المبين: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1]، والقائل ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[2]، كما يَبرأ منه النبيُّ الكريم الذي نهىٰ عن إطرائه كما أطْرت النصارىٰ سيدَنا عيسىٰ عليه السلام، فأكّد بشريّتَه واعتزّ بعبوديّتِه قائلا: "إنّما أنا بشر مثلكم أذكر كما تذكرون وأنسىٰ كما تنسون" ومردِّدا: "أنا محمّد بن عبد الله، عبد الله ورسوله". وقد ذكَر العلماء أنَّ في دعوة الخلْق للصلاة علىٰ جنابه الكريم، حمايةً له مِن أن يدّعي أحدٌ من الناس فيه الألوهية، كما ادُّعيت في بعض الأنبياء وغيرهم، خاصة حين يرَوْن فضائله البارزة ومعجزاته الباهرة؛ فإظهار احتياجه لله تعالىٰ بطلب صلاته وسلامه عليه مانعٌ من ذلك.

وغنيٌّ عن القولِ هنا؛ أنّ وسائلَ التعبير عموما تندرج تحت اللفظ والإشارة والخطّ والحال، وفي حين تطير الكلمات وتبقىٰ الكتابة علىٰ حدّ تعبير دفين الكتب (الجاحظ)، فإنّ الفعلَ وحده هو الأقْوىٰ أثرًا والأجْدىٰ

(1) آل عمران 31.

(2) الكهف 110، فصلت 6.

نفعًا والأطْول عمرًا مِن بين تلك الوسائل قاطِبة، وعلىٰ الداعية أن يسلك كلّ دروب التعبير وفِجاجه؛ فينهل من جميع الوسائل؛ واضعًا نصْب عينيْه أنّ الحالَ يغني عن كلِّ مقال وأنَّ عملَ رجُلٍ في ألف رجُلٍ خيْرٌ من قول ألف رجُلٍ في رجُل، وقابضًا بكلتا يديه علىٰ النصيحة الثمينة التي أسداها أبو الأعلىٰ المودودي في ثنايا قوله: "اسمحوا لي أن أقول لكم، إنكم إذا خطوتم علىٰ طريق هذه الدعوة بعاطفة أبرد من تلك العاطفة القلبية التي تجدونها في قلوبكم نحو أزواجكم وأبنائكم وأمهاتكم، فإنكم لابد أن تبوؤوا بالفشل الذريع".

أمّا مِسك القول وزبدة الحديث؛ فهو ما ذكره القاضي عياض في كتابه (الشِّفا بتعريف حقوق المصطفىٰ) والذي قرّظه أهلُ العلم بقولهم: "لولا الشِّفا لَما عُرف المصطفىٰ"، وذلك حين قال -رحمه الله- : "الصادق في حبّ النبي ﷺ مَن تظهر علامةُ ذلك عليه، وأوّلها الاقتداء به، واستعمال سنَّته، واتّباع أقواله وأفعاله، وامْتثال أوامره، واجْتناب نواهيه، والتأدّب بآدابه في عُسْره ويُسْره، ومَنْشَطه ومَكْرَهه".

(9) إنْ شاء الله

ضَرب لي أحدُهم موعدا مختوما بقوله (إن شاء الله)، فانتظرتُه في الدقيقة والثانية المضروبة، فلم تبزغ شمسُه ولم يهلّ هلالُه!

ولَمّا عاتبتُه -والعتاب سليل الودّ- ضحك حتىٰ بدتْ نواجذُه واختلج عارِضاه[1]، ثمّ أَرْدف: لقد قلْتُ (إن شاء الله) تعليقا لا تحقيقا...في إشارة إلىٰ مقولة الإمام ابن تيمية، عندما همَّ التتارُ باجتياح الشام عام 702هـ، فبادر إلىٰ تحميس الجُنْد، وحثَّ الناسَ علىٰ الجهاد، وبشَّرهم بالنصر وأَقْسم لهم علىٰ ذلك، ولمَّا ذكّروه بأن يقول: إن شاء الله، قال: إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا.

ومِن لُطْف القدَر بي، أنّني لم أكُنْ وحيدا ضمن حالِمين كُثُر تمَّ تعليقهم علىٰ شمّاعة (إن شاء الله)، فها هي الشاعرة العراقية نازك الملائكة ترصد تعليقا آخَرَ فتقول:

---

(1) العارِض هو جانب الوجه وصفحة الخدّ.

"ســــــــــــــــــألتُه أن ألقـــــــــــــــــاه
فتطلّـــــــع فيّ وقـــال: أجَـــــــل (إن شـــــــاء الله)
بـــــــــضعة ألفـــــــــاظ ثـــــــــمّ مَـــــــــضىٰ
وتـــــــــألّقَ حـــــــــولي ألـــــــــفُ قمَـــــــــر
وأنـــــا مـــــا زلـــــتُ أعـــــيش وأحلـــــم أن ألقـــــاه
فمتـــىٰ يُـــشرق لـــي فَجْـــرُكِ يـــا(إن شـــاء الله) ؟"

وهكذا بيْن تعليق وتحقيق؛ تُهدَر الأوقات وتَضيع الأعمار، ثمّ تتعالىٰ الضحكات علىٰ نبلاء أوفياء يحترمون العهود وينتصرون لنفاسة الوقت وقيمته؛ فينصتون إلىٰ دقّات الساعات علىٰ جدار الزمن، ويقيسون العمر بالأنفاس لا بالساعات، ثمّ يلبّون عند الطلب، ويهرعون قبْل الميعاد، حتىٰ يَحسبهم الجاهلون بعضا من بقايا قبيلة عُكْل التي يُضرَب بها المثلُ في الاستغفال والحُمْق، فيقال للمرء: (عُكْليّ)، من باب الإهانة والتعبير عن حمقه وغبائه. وكما في الناس مَن هو كالغد القريب، يَعد ويَفي؛ فإنّ هنالك مَن هم كالأمس البعيد، يَعدون وأبدًا لا يأتون!

ولا أُجاوز الحقيقة إذا قلت أنّ هؤلاء المُعلِّقين تعْوزهم الشجاعة الكافية للإجابة ب (لا) حين يَقتضي الأمرُ ذلك، وتنقصهم الحكمة حين يظنّون أنهم بصنيعهم هذا يَحفظون ودًّا ويَصونون وصْلا، كما يَخونهم

المنطقُ حين يعتقدون أنّ مجرّد كلمة فصيحة تُغلِّفها الملائكية الزائفة والورع الكاذب كفيلة بالعفو عمّا سلف وإصلاح ما فسَد، وربما هم مَن قال فيهم الفيلسوف ابن رشد: "إذا أردتَ أن تتحكّم في جاهل فعليك أن تُغلِّف كلَّ باطلٍ بغلافٍ ديني".

أمّا الحقيقة التي لا تغيب شمسُها ولا يأفل نجْمُها، فكونهم بهذا الصنيع يفقدون مصداقيتَهم وينفد رصيدُ الثقة فيهم؛ فتصبح مواعيدُهم قبض ريح وبخار ماء، وتصير أيمانُهم بعض لغْو ومحْض سراب، ويَغدو (عُرقوبُ) تلميذا لهم في خُلف العهود ونكْص الوعود، إذْ إنّ المشيئة كما تقول المعاجم هي الإرادة، ويَأتي ذكرُها عند الوعْد بفعل الشيء.

مِن المُخجل أن نُحمِّل مقولةً بذاك الجلال وتيك الرِّفعة ما لا تحتمله، ونضعَ علىٰ عاتقها أوزارا هي منها براء، ونلوي عنقَها لنواري بها خُبْث طويّتنا وقصور همّتنا وفتور إرادتنا...فما كانت مشيئة الله لِتصادر نيّة صادقة، أو تحبط عزيمة مشبوبة، أو تَحُول دون أسباب مَبذولة؛ بل هي المُسدِّدة والمُوفِّقة والمُعِينة، واقرأ في هذا ما قاله ميخائيل نعيمة في كتابه (البيادر): "لو تَعوَّد الإنسانُ قول: "إن شاء الله" بقلبه لا بلسانه؛ لسكبَت المعرفةُ نورَها في قلبه، ولآزرَت المشيئةُ العامّةُ مشيئتَه فأَسعدتْه".

ومِمّا يُزيد الطينَ بلّة ويُجرِي الدمعَ بحورا، أن تتفاقم العدوىٰ وتفوح رائحتُها، حتىٰ يَستقرّ في أذهان أبنائنا أنّ (إن شاء الله) لا تعني سوىٰ الضحك علىٰ الذقون والتنصّل مِن الوعود والتزلّج بلا جليد، وإلّا فماذا تقول عن واقعة حقيقية تطلب فيها طفلة من أبيها شراء حلوىٰ، فيَعِدها ويُعقِّب بمشيئة الله (تحقيقا لا تعليقا)، فإذْ بها تقول: لا أريد (إن شاء الله)، ولكنّي أريد الحلْوىٰ!

زدْ علىٰ ذلك أنَّ التعدِّي علىٰ (إن شاء الله) قد تَجاوز القول إلىٰ الكتابة، فعلىٰ مواقع التواصل الاجتماعي، وفي إعلانات عدّة تَعلو الجدران؛ تَجد مَن يُسطِّرها هكذا والعياذ بالله (إنشاء الله)، فيَتغيّر المَعنىٰ كُلِّيًّا وتذلّ قدم بعد ثبوتها وندخل في محاذير شرعيّةٍ مِن العيار الثقيل، ولولا أنَّ كاتبَها معذورٌ بالجهل؛ لقِيل فيه شرعًا ما قاله ابنُ حنبل في الخمر وابن عبدالوهاب في الأضرحة.

ومِن دقائق الفقه، ما قاله العلماءُ بعدم تعليق الدعاء علىٰ المشيئة، بمعنىٰ النهي عن القول: اللهم اغفر لي إنْ شئت. أو قول: غفر الله لك إن شاء الله. إذْ إنَّ اللهَ عظيمٌ لا يَعظُم عليه شيء، وقادِرٌ لا مُكرِه له حسبما ورد في الحديث الشريف الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أنّ رسول الله ﷺ قال: "لا يَقولنّ أحدُكم: اللهمّ اغفر لي إن

شئت، اللهم ارحمني إن شئت. ليَعزم في الدعاء، فإنّ اللهَ صانعٌ ما شاء لا مكره له"، وبهذا؛ علىٰ الداعي لنفسِه أو لغيرِه أن يَعزم في مسألتِه ويَجزم في دعوتِه ويَحزم في طلَبِه ويقطع في مبتغاه.

أمّا (إن شاء الله) الواردة في دعاء دخول المقابر "السلام عليكم أهل الديار مِن المؤمنين والمسلمين، وإنّا إن شاء الله بكم لا حقون، أسأل الله لنا ولكم العافية"؛ فهي مِن قبيل التبرّك بذكر الله الذي يُرطِّب اللسانَ ويُطَمْئن القلبَ ويُبارك الرزق، إذْ إنّ الموتَ كأس وكلّ الناس شاربُه لا محالة.

ومِن المضحك أنَّ جحا قد وعَىٰ الدرسَ وأَقرّ بالخطأ وتَعَلّم متىٰ يقولُ (إن شاء الله)، بعدما سُرِق مالُه وغُلِب علىٰ أمره وقفل مِن السوق بلا حمار ولا أتان؛ بينما نحن الساخرون مِن جحا ليل نهار؛ سُرِقتْ أوقاتُنا التي هي أعمارنا وكَسدتْ بضاعتنا في سوق التقدّم والعِلم والانضباط، ومازلنا سادرين في غَيّنا مُكتحِلين بإثمد أخطائنا، فنردّد (إن شاء الله) تعليقا لا تحقيقا...فقد رُوِي أنّ جحا استيقظ باكرا وتَأهّب للخروج، ولمّا سألتْه زوجتُه عن وجهته، أجاب بأنّه ذاهبٌ إلىٰ السوق في البلدة المجاورة لشراء حمار، فقالت الزوجة: قلْ إن شاء الله، فقال: ولماذا إن شاء الله! النقود في جيبي والحمار في السوق علىٰ بعد بضع خطوات. ثمّ خرج جحا ووصل

السوق الغاصّ بروّاده، فانتقىٰ حمارا أبيضا جميلا بعد أن جادل البائعَ في ثمنه حتىٰ أتعبه، ولمّا حانت لحظة الدفْع ومدّ جحا يدَه في جيبه، اكتشف أن نقوده قد سُرقت مِن جيْبه، فغضب البائعُ وضحك السّوقُ مِن غفلة جحا، ثمّ قفل عائدا إلىٰ بيته بلا مال ولا حمار، وما إن طرق الباب، حتىٰ قالت زوجتُه: مَن بالباب؟ فردّ قائلا: افتحي، أنا جحا إنْ شاء الله.

وعلىٰ ذِكر (إن شاء الله)، يُروَىٰ أنّ صاحبَ حلَب (بن مرداس)، أمَر كاتبَه أن يكتب كتابا إلىٰ صديقٍ له؛ يَتشوّقه فيه ويَستعطفه ويَستدعيه إليه، ولكنَّ الكاتبَ كان يعرف أنَّ سيّدَه نصب للصديق فخّا وأراد به شرّا، فكتَب ما أَمْلاه عليه سيِّدُه، إلىٰ أن بلغ آخِرَ الكتاب، وكان قوله (إنْ شاء الله)، فشدّد الكاتبُ نون (إنْ) وفتحَها، فصارت (إنَّ)، في إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ في سورة القصص "إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك"، ففهم الصديقُ مراد الكاتب بعد أن وصله الكتاب، ولم يأتِ (حلَب) ونَجا بذلك مِن شرِّ مكْر صاحبها وسوء تدبيره، وصارت بعد ذلك مثلا سائرا بين الناس، فكانوا إذا شكّوا في أمْر، قالوا: هذا أمْر فيه إنّ.

أمّا حديثا، فقد استرعتْ ظاهرة (إن شاء الله) هذه مديرَ مكتب جريدة النيويورك تايمز الأمريكية في القاهرة، وكتَب مقالا عن جريانها علىٰ ألسنة الناس مع كلّ جواب، حتىٰ إنّك إذا سألتَ شخصا عن اسمه ذكره لك

معقِّبا (إن شاء الله)، ثمّ خلُص -في تقديره- إلىٰ أنّ ذلك علامة مِن علامات التديّن الشكلي التي تُكمِّل الحجاب عند النساء والزبيبة عند الرجال. أمّا الناشِط الحقوقي الأمريكي مالكوم إكس والذي تَسمّىٰ بعد إسلامه بالحاج مالك الشباز؛ فقد عبّر في مذكِّراته عن قصور همّة العرب في دعوة غير المسلمين إلىٰ الله، وسوء استخدام (إن شاء الله) بقوله: "العربُ لا يفهمون نفسية غير العرب ولا يذكرون أهمية العلاقات العامة، إنهم يقولون: (إن شاء الله) ثمّ ينتظرون أن يأتيهم الناس مسلمون".

ألَا ما أسْوأ الفعل وأقْبح السلوك، حين نمتطِي الدِّينَ فننتهك قداستَه، ونتّخذ منه ستارا ننفذ به إلىٰ فضاءاتٍ وتأويلات لا يُطيقها ولا يَرتضيها، ثمّ نضعه عنوانا للتسويف والإرجاء ومرادِفا للسّلبيّة والتدليس؛ فاقتران الوعْد بالمشيئة توجيه قرآني وأدب سماوي نُلزم به أنفسَنا، ونُعلّمه أولادَنا، ونصْطحبه في كلّ ما عظُم ودقّ مِن أمورنا﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1]، علىٰ أن تكون نيّة الفعل معقودة وطاقة العزم موفورة ودروب الأسباب مطروقة، وبعدها ما شاء الله كان

(1) الكهف 23،24.

ومالم يشأ لم يكن﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾[1]، أمَّا أن يُنزع الكلامُ في غير قوسِه؛ فتصبح المشيئةُ حقًّا يراد به باطل ورداءً فضفاضا بلا حدّ يحدّه أو دلالة تحصره، فهو بلاء فشا وسلوك طمّ وقول يُنكر ويُخَطَّل. ولعل أيْسر وأوضح تفسير ورَد في مشيئة الإنسان ومشيئة الله، هو ما قال به الشيخ راتب النابلسي:

"مشيئةُ الإنسان مشيئة اختيار، ولكن مشيئةَ الله عزّ وجل مشيئة فحْص واختبار، فالإنسان يختار، والله سبحانه وتعالى يتفحّص اختياره، فإن كان صادقا في اختياره، ودفَع ثمنَ اختياره، يشاء الله له ما شاء مِن طلب الخير"...

ألَا كَم مِن الخطايا تُرتكَب باسمكِ يا (إن شاء الله).

(1) الإنسان 30.

10- الحياةُ الطيِّبة

ضعيفٌ مَن يُبصر الحياةَ بعيْن الموت، وقويٌّ مَن يُبصر الموتَ بعين الحياة، وأقوىٰ منهما مَن يملك الموتَ والحياة؛ وليس ذلك إلّا لمَن بيده المُلك وخالِق الحياة والموت: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ (1).

وفي طبيعة الحياة وفهْم حقيقتها، تَشعَّبت الآراءُ وتَضاربَت الأقوال واحتدَم الجدال، وذلك لأنّ هذا الفهم هو ما يُحدِّد طبيعة النشاط الإنساني ويُوجِّه مقودَ السلوك البشري، سواء علىٰ المستوىٰ الفردي أو المستوىٰ الجماعي. وقد ظلَّ هذا المبحث سؤالا فلسفيا كبيرا أدلىٰ فيه الألماني شوبنهاور بدلوه فقال بأنَّ الإرادة هي الحياة، بينما رأىٰ ابنُ جلدته جُوتة أنَّ القوّةَ هي الحياة. وفي هذا رؤية أُحاديّة الجانب؛ تماما كما لا ترىٰ الأمُّ

(1) تبارك1، 2.

الحياةَ إلّا طفلًا يبتسم، وكما لا تراها النحلةُ إلّا زهرة تفوح، ولا يَراها المطرُ إلَّا أرضا جُرُزا، ولا يَراها الأَسدُ إلَّا غابة وفريسة. أمَّا حُجّة الإسلام الغزالي أو الشافعيّ الثاني كما يُلقَّب؛ فقد كال بمكيال سماوي يقدِّم الحياةَ علىٰ طبقِ الحياةِ لا طبقِ الموت، ووَزن بمنهج رباني يتميّز بالكمال والشمول، ثمّ قال بأنَّ الحياةَ مَحبّةٌ وعبادة... والواقع أنَّ العبادةَ نصفها محبّة، ونصفها الثاني خضوع يُراوِح بين الخوف والرجاء، بما يَعني أنَّ الحياةَ هي العبادة بعدما انضوت المحبة تحت جناح العبادة، وفي هذا كان الوحيُ القرآني الذي حدَّد غايةَ الخلْق وحقيقة الحياة فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾[1].

علىٰ أنَّ العبادة -التي هي الحياة- أكبر ممّا يتصوّرها البعض فيختزلها في الشعائر كالصلاة والصوم والزكاة والحجّ[2]، إذْ هي اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبّه الله ويرضاه مِن أقوالٍ وأفعالٍ ظاهرةٍ وباطنة، أو هي كما عرَّفَها

---

(1) الذاريات 56

(2) في كتابه (الحياة والموت) يقول فضيلة الشيخ الشعراوي رحمه الله: "إننا حين نقصر أعمالنا على أسس الإسلام الخمسة؛ نحرم أنفسنا من 90٪ من الثواب الذي أعدّه الله لنا على حركة الحياة".

الشيخُ النابلسي: "طاعة طَوْعيّة مَمزوجة بمحبّة قلبيّة، أساسها معرفة يقينيّة تُفضِي إلىٰ سعادة أبديّة"، وكما وصفها الشيخ محمد الغزالي بقوله: "العبادة كما هي ضراعة وتسبيح، هي قدرة امتلاك الحياة وتسخيرها لله".

بما يَعنِي أنَّ كلَّ حرَكة وسَكِنة في ميدان الحياة، هي عبادة تُجزَىٰ بها في الدنيا وتُثاب عليها في الآخرة، ويَعني أيضا أنّ الحياةَ جديرة بالحبّ وخليقة بالاحترام ليس لذاتها ولكن لعِلّة فيها. ولعلَّ في ذلك دافعا قويّا لنُقبل عليها ونحتفي بها ونتغمّدها برعايتنا، لا أن نحتقرَها ونركلَها وراءَنا ونبصق عليها، فالوسائل تَشرُف بشرَف الغايات، ولن نصل إلىٰ غايةِ العبادة إلّا إذا عِشنا وسيلةَ الحياة بكل حواسّنا، وعقدْنا معها معاهدة حبّ وصداقة، واستنفدْنا فيها قوانا وأَفْرغْنا طاقاتِنا وقدراتِنا، ولن يكون ذلك إلّا بمغادرة شطآنها والنزول إلىٰ معتركِها والتفاعل مع مفرداتِها، مع تشمير السواعد وتغبير الأقدام واسْتحضار قوانا الداخلية العقليّة منها والروحيّة، وهو ما عاشه العقّاد واقعا ونظَم فيه قائلا:

قالوا الحياةُ قشورٌ ... قلنا فأين الصميمُ
قالوا شقاءٌ فقُلنا ... نعَم فأين النعيمُ
إنَّ الحياةَ حياةٌ ... ففارِقوا أو أَقِيموا

وإذا كانت أفضلُ هِبات الحياة ما ليْست بأشياء، وكانت أثمنُ الفرص هي التي لا تَلوح إلَّا مرّة واحدة، فإنَّ الحياةَ هديّةُ الله لنا وفرصةٌ لا يَتكرّر مجيؤها، وعلينا أنْ نحقِّق معناها لتكون اسما علىٰ مُسمَّىٰ، ونَخطو في دروبها خطواتٍ واسعةً بقدر حقيقتها، وقويّةً بحجم أهميتها؛ فنتواصل مع الكون الفسيح ونكتشفه وفق نواميس الله فيه، وندلف إلىٰ أنفسِنا فنطهّرها ونزكّيها، وإلىٰ أولادِنا فنصنع منهم رجالا صالحين ونساءً مؤمنات، وإلىٰ إخوتنا في الآدميّة والإنسانيّة فنتعارف معهم ونُحسن إليهم ونَودّهم...وساعتها لن يكون هناك مجال لمقولة جلال الدين الرومي: "كلّنا سنذوق الموْت ولكن القليل منّا مَن يذوق الحياة"، ولن نتأسّف علىٰ ماضينا ونمضغ حسراتنا كما فعل الروائي جابريل ماركيز حين كتَب مِن علىٰ فراش الموت قائلا: "آه لو منحني الله قطعة أخرىٰ من الحياة!! لاستمتعتُ بها-ولو كانت صغيرة- أكثر ممّا استمتعتُ بعمري السابق الطويل، ولَنمتُ أقلّ، ولَاستمتعتُ بأحلامي أكثر، ولَغسلتُ الأزهار بدموعي، ولَكنت كتبتُ أحقادي كلّها علىٰ قطع من الثلج، وانتظرتُ طلوع الشمس كي تذيبها، ولَأحببتُ كلّ البشر، ولَما تركتُ يوما واحدا يمضي دون أن أبلّغ النّاس فيه أني أحبّهم، ولَأقنعتُ كلّ رجل أنّه المفضّل عندي".

والواقع أنّ الحياةَ تتّسم بالخِصب والسّخاء؛ إذْ لا تلبث أن تتحفَنا بجوائزَ ثمينةٍ نلقاها في تجْوالنا، وتغمرَنا بقبُلات حانية نَسعَد بها ونَهنأ معها؛ وكأنّ الحياة في مُجمَلها انتظارٌ قبل الفرج.. وفي انتظار الفرج عبادة. وبمثابة الجسر قبل العبور.. وما أروع العبور فوق الجسور. وعملٌ يُغلِّفه أمل.. وما أهون العمل المعجون بالأمل. وهي كذلك بَصرٌ يَرنو إلىٰ الفرح.. ومَن مِنّا لا يَخفق قلبُه للفرح. وفي هذا رقَص مهدي الموسوي مع الحياة، عبر كتاب صدَّره بعبارة جميلة تقول: "طلبتُ مِن اللهِ كلَّ شيء لأستمتع بالحياة، فأعطاني الحياةَ لأستمتع بكلِّ شيء"، بما يعني أنَّ الخاسِر علىٰ وجه الحقيقة؛ هو مَن يمرّ بمعجزة الحياة نعسان العقل، مُغمض العينيْن، وَقِر الأُذنيْن، مُقيّد اليديْن، مُصفّد الرّجليْن!

ولا ننسىٰ أنَّ الخوض في غمار الحياة واقتحام لُجّتها واجتياز تجاربها، هو أساس بنياننا ولبنات تكويننا؛ ففي الوقت الذي تتفضَّل علينا صفحات الكتُب بتعليمنا السباحة علىٰ الشاطئ، وتتصدّق علينا نصائحُ الخبراء فتعلِّمنا القيادة قبل الجلوس إلىٰ المقود؛ فإنَّ تجاربَ الحياة تُعلِّمنا السباحة في عرض البحر، وتُعلِّمنا القيادة وأيدينا علىٰ المقود، بما يَعني أنَّ تجارب الحياة هي أستاذنا الحقيقي، ومعلِّمنا علىٰ وجه المُطابَقة لا المُقارَبة، وحكيمنا بلسان الحال لا المَقال.

مع التأكيد علىٰ أنَّ الحياةَ التي نَبتغيها ونُبشِّر بها ونَدعو إليها؛ تَخضع لقانونٍ صارم يَجِب علىٰ مَن يَطلب قُربَها تنفيذه، وتقع تحت طائلة ناموسٍ يُلزِم مَن يَخطب ودَّها الالتزام به والانصياع لأمرِه، والقانون والناموس هنا ليس مالًا يُدفَع ولا ذهبًا يُنقَد، ولكنّه إيمانٌ وعملٌ صالح نضمن بهما حياةَ طيِّبة وعدَنا بها ربٌّ لا يُخلف الميعاد، فقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾[1]. وصلاح العمل هنا منضبط بإطار شرعي لا يَخرج عن مُحكَم القرآنِ ومُتشابهِه، وعن السُنَّةِ الصحيحة وإجماع الأُمَّة وقياس العلماء والفقهاء. والمؤمِن ذكَرا كان أو أنثىٰ؛ هو مَن يعتقد اعتقادا جازما بأنَّ اللهَ ربّ كلِّ شيء ومليكه وخالقه، والمُستحِقّ وحده للإفراد بالعبادة مِن صلاة وصوم ودعاء ورجاء وخوف وذُلّ وخضوع، والمُتّصِف بصفات الكمال المنزَّه عن كلِّ نقص.

أمّا الحياة الطيِّبة؛ فتشمل وجوهَ الراحة من أيّ جهة كانت علىٰ قول ابن كثير، وتعني الرزق الحلال الطيّب عند ابن عباس، وتُساوي القناعة عند أبي الحسن (علي بن أبي طالب)، وتعني راحة القلب عند العلّامة السعدي الذي قال: "راحة القلب وسروره وزوال همومه وغمومه، هو

(1) النحل 97.

المطلب لكلّ أحد، وبه تحصل الحياة الطيبة، ويتمّ السرور والابتهاج، ولذلك أسباب دينية، وأساب طبيعية، وأسباب عملية، ولا يمكن اجتماعها إلّا للمؤمن"، مع التأكيد علىٰ التلازُم الوثيق بين الإيمان والعمل؛ فعملٌ بلا إيمانٍ نفاق، وإيمانٌ بلا عملٍ زيف وادِّعاء.

وبالإضافة للثمار الإيمانيّة العَشْر التي عدَّدَها مجدي الهلالي في كتابه (هيا بنا نؤمن ساعة)، وهي؛ المبادَرة والمسارَعة لفعل الخير، والورع، والزهد، والتأييد الإلهي، وإيقاظ القوىٰ الخفيّة، والثقة في الله، واختفاء الظواهر السلبية، والتأثير الإيجابي في الناس، وسهولة اتخاذ القرارات الصعبة، والشعور بالسكينة والطمأنينة...فإنَّ أهمَّ ثمار الإيمان في حياة الفرد، وأوّل ركائز الحياة الطيّبة التي ننشدها جميعا، هو ما عرَّفه عبد الله ناصح علوان بأنّه: "قوّة إيمانيّة تدفع صاحبَها بعد جذبٍ وشدٍّ إلىٰ التجرّد مِن المصالح الشخصية والترفّع عن الغايات الذاتيّة، فيَقصد مِن عملِه وجهَ الله، ولا يبغِي من ورائِه جزاء ولا شكورا"، ونقصد هنا (الإخلاص) الذي يُعدَّ بمثابة حجر الأساس لقبول الأعمال﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾[1]، ومِن علاماتِه التي ينبغي أن نتفقَّدها في أنفسِنا دوْما: اتهام

(1) الأعراف 29

النفس بالتقصير، والخوف من عدم القبول[1]، والحرص علىٰ رضا الخالِق لا رضا المخلوق، مع مزاولة طاعات خفِيّة وقُربات سرِّيّة يَنتفي عنها الرياء وتترفَّع عن بريق الشهرة ووهج الأضواء. وفي هذا قال ضرار بن مرّة وهو أحد أبرز البَكَّائين الأربعة بالكوفة: "إنَّ إبليسَ إذا استمْكن من ابن آدم ثلاثا أصاب منه حاجتَه: إذا نسي ذنوبَه، واستكثر عملَه، وأُعجِب برأيِه."، أمّا الحسن البصري الذي يُبكِي وعظُه القلوبَ ووعْظ غيره يُبكِي العيون؛ كان يُعاتب نفسه ويوبّخها قائلا: تتكلّمين بكلام الصالحين القانتين العابدين وتَفعلين فعلَ الفاسقين المُرائين، والله ما هذه صفات المخلِصين!

والحقيقة أنَّ الحياةَ الطيِّبة في ظلِّ الإيمان هي الجنّة العاجلة والروضة الزاهرة والرحلة الماتِعة؛ فالعادة فيها عبادة والعبادة فيها سعادة، ودقّات الساعةِ علىٰ جدار أيّامها مَرقَىٰ إلىٰ الفلاح ومِعراجا صوب الفوز، والعُمْر في لُجّة محيطها سفينةً شراعها العمل الصالح ووجْهتها رضا الرحمن. وقد وصف صاحب قصة الحضارة (ويل ديورانت) الإيمانَ بأنّه ضرورة حضارية، وسمّاه ابن تيمية جنّة الدنيا فقال: "مَن لم يدخل جنّة الدنيا لن

(1) يقول (علي بن أبي طالب) رضي الله عنه: "كونوا لقبول العمل أشدّ اهتماما بالعمل"، ويقول (مالك بن دينار)رحمه الله: "الخوف على العمل أن لا يُتقبَّل أشدّ من العمل".

يدخل جنّة الآخرة"، وعدّه صاحب الظلال مكسبا حقيقيا في ذاته بينما الأجر عليه فضلٌ مِن الله وزيادة. بينما وصفه الشيخ القرضاوي بأنّه" قوة الخُلُق وخُلُق القوّة، وروح الحياة وحياة الروح، وسرّ العالَم وعالَم الأسرار، وجمال الدنيا ودنيا الجمال، ونور الطريق وطريق النور"، ثمّ زاده وصفا علىٰ وصف، وميّز بين أربعة أصناف له، فقال:

"والإيمان الذي عنيتُه هو إيمان الإسلام في شموله وتوازنه وعمقه وإيجابيته، إيمان القرآن والسنّة، إيمان الصحابة والتابعين لهم بإحسان: معرفة ونية واعتقادا وعملا. لا الإيمان العقلي الخالِص الذي أراده المتكلّمون، ولا الروحي المحض الذي أراده المتصوّفون، ولا الشكلي الجاف الذي عني به المتفقّهون الجامدون".

أمّا علّامةُ الهند أبو الحسن الندوي فقد عبَّر عنه باليقين[1] ورسم للحياة في رحابه أجمل لوحة فقال: "العالَم كلّه مدينة الأوهام، والمؤمن وحده هو صاحب يقين لا يزول وعقيدة لا تتحوّل، وهو بيقينه في عالَم

(1) قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "اليقين الإيمان كلّه".

الأوهام؛ كمصباح الراهب في الغابة المظلِمة ومنارة النور في بحر الظلمات والجزيرة التي يأوِي إليها البائسون والطّوْد الذي لا تُزحزحه السيول ولا تُزلزله العواصف، وقد يتمسّك بيقينه ولا يوافقه ولا يصدِّقه أحد، فلا تخور عزيمتُه ولا تلين عريكتُه، والناس له بين معارِض منتقِد ومطيع كارِه أو مخالِف معتزِل، وهو لا يَحفل بذلك ويَمضي كالسيف، حتىٰ يَهزم بيقينِه ألْفَ جندٍ من الشكّ وينقشع سحابُ الأوهام ويظهر يقينُه مثل فلق الصبح".

وعن هذا الوهم الذي يقصده الندْوي، سُئِل أحدُ مشاهير لاعبي البيسبول بعدما لامَس قمّة الشّهرة واعتلىٰ سنام النجوميّة، عمَّا كان يودّ معرفته عندما بدأ ممارسة هذه الرياضة، فأجاب: وددتُ لو أنّ أحدَهم قد أخبرني من البداية، أنّه عندما أصل إلىٰ القمّة فإنّني لن أجد شيئا هناك!...وصدق العليُّ الحكيم إذْ يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾

الفصل الثالث

نفَحاتٌ للروح

1- غذاء الرّوح

لا جديد في قولنا: إنَّ الإنسانَ خُلِق مِن جسد وروح، وحياةَ الجسدِ تتطلَّب طعاما للغذاء وشرابا للسُقيا وهواء للتنفّس ورياضة للقوّة ودواء للعلاج...ولكنّ الجديد الذي يَغيب عن أذهان الكثيرين؛ أنّ أكداسًا من الطعام نحشو بها بطونَنا ليل نهار، وصنوفا من الشراب نُمطر بها أحشاءَنا علىٰ مدار الساعة، قد تَكفل لنا العيْشَ والنموّ والتناسل، ولكنّها لا تَهبنا الحياة. أقصد الحياة بمعناها الحقيقي التي بالتأكيد لا تقطن جوفَ المعدة وتلافيف الأمعاء، ولا تسكن الكبدَ أو الطِّحال؛ بل تقطن ثنايا الأرواح، وتنتظر خُبزا ليْس كهذا الخبز وماءً ليس كذاك الماء.. فالروح- كما قال علي بيجوفيتش-هي موضوع الدِّين والفنّ والأخلاق، بينما الجسد ليس إلّا حاملا للروح وموضوعا للعلوم.

وبيْن غذاء الروح وغذاء الجسد سقطَت أُمَمٌ وضلَّت مِللٌ وزاغت نِحَل، وذلك حين غالَت وأَفرطَت في جانب بينما أَهملَت وفرَّطت في

الجانب الآخَر؛ فاليهود تَعرَّفوا إلىٰ الله ولم يَتعاملوا معه، وعلِموا ولم يعمَلوا، وأُشرِبوا في قلوبهم العجل، وغلَّبوا المادَّة علىٰ الروح، حتىٰ ضُرِب بهم المثلُ في حبّ المال بعد تَبنِّيهم لشعار: "قارون لا هارون"، فاستحقّوا بذلك جام الغضبَ واللعْن الإلهي. والنَّصارىٰ كذلك عملوا خارج إطار العِلم؛ فغالُوا في جانب الروح، وابْتدعوا رهبانيّةً ما أنزل الله بها مِن سلطان، فكَتبهم اللهُ ضالِّين في قرآنٍ يُتلىٰ إلىٰ يومِ الدين. بينما حثَّت رسالةُ الإسلام علىٰ الوسَطيّة والتوازن والشمول؛ فلم تهضم للبدنِ حقّا ولم تسحق للغريزة وجودا ولم تبخس للروحِ نصيبا، وفي هذا كانت نصيحة سلمان الفارسي لأخيه أبي الدرداء: "إنَّ لِجسدك عليك حقّا ولِربِّك عليك حقّا ولِأهلِك عليك حقّا، فأعْط كلَّ ذي حقه"، وكان التوجيه القرآني لعامّة المسلمين في شخص (قارون): ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[1].

وقد روَىٰ أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: "جاء ثلاثةُ رهط إلىٰ بيوت أزواج النبي ﷺ يَسألون عن عبادته، فلما أُخْبِروا كأنّهم تَقالوها، فقالوا: أين نحن مِن النبي صلىٰ الله عليه وسلم؟، قد غفر اللهُ له ما تَقدّم مِن ذنبه

(1) القصص 77.

وما تأخّر، قال أحدُهم: أمّا أنا فأصلِّي الليل أبدا، وقال آخَر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخَر: أنا أعتزل النساءَ فلا أتزوّج أبدا، فجاء رسول الله ﷺ فقال: "أنتم الذي قلتم كذا وكذا؟ أمَا والله إنّي لَأخشاكم لله وأتقاكم له، لكنّي أصوم وأفطر، وأصلّي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنّتي فليس مِنّي".

والروح قوّة غير ماديّة، تُدرَك بالعقول ولا تراها العيون، فتَمنح الأبدانَ حياتَها وحركتَها، وتنقلنا مِن طور الجَماديّة إلىٰ طور الحيوانيّة، وذلك فور نفخها بواسطة الملَك الموكَّل مع نهاية الشهر الرابع مِن الحمْل، وحتىٰ خروجها حين يَدقّ جرسُ الموت ويُغلَق بابُ العمل. وهي آخِر ما يدخل الإنسان عند خلْقه، وأوّل ما يخرج منه عند موته، لِتذهب بعدها إلىٰ حيث كانت قبل أن تُشرق فينا الحياة. وهي موضع التزكية والتربية، ومحطّ اهتمام علماء السلوك والأخلاق، وفيها قال سعيد حوّىٰ في معرض تنظيره للتربية الروحيّة: "الإحياء الروحي هو المقدِّمة للتجديد الإسلامي كلّه"، وأضاف ابن القيّم: "مَن لم تُولَد روحُه وقلبُه، ويَخرج مِن مشيمة نفسه، ويتخلّص مِن ظلمات طبْعه وهواه وإرادته، فهو كالجنين في بطن أمِّه الذي لم يَرَ الدنيا وما فيها"، وفي موضع آخر ذكر -أي ابن القيّم- أنّ للروح في هذا العالم نشأتين؛ إحداهما النشأة الطبيعية المشتركة، والثانية نشأة قلبيّة

روحانيّة، يُولد بها القلب وينفصل عن مشيمة طبْعه، كما وُلد البدن وانفصل عن مشيمة بطْنه. أمّا الطبيب المفكِّر مصطفىٰ محمود؛ فيقول: "لو كانت الأشياء الماديّة أهمّ من المعنوية؛ لَما دُفن الجسدُ في الأرض وصعدَت الروحُ إلىٰ السماء".. وليس بخافٍ أنَّ الجسدَ يَبرد عند فراق الروح له؛ بما يَعني أنَّ الروحَ منبع الدفء وينبوع الأمان، وأنّنا بدون الروح لسنا سوىٰ أشباح، وأحمقٌ مَن يُطعم الأشباح ويَحرِم الأرواح.

وإذا كان الحديثُ عن ماهيّة الروح وكُنْهها قد قَصُر عنه عِلمُنا القليل، واختصّ اللهُ به ذاتَه العَليّة ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾[1]، فإنَّ الحديثَ عن غذاء الروح هو حديث الساعة وواجب الوقت؛ وذلك نظرا لطغيان المادّة علىٰ مجريات الحياة المعاصرة، حتىٰ بات شعارُ اللاهثين في مضمارها "لا صوت يَعلو علىٰ صوت المادّة"، مُخالِفين بذلك الفيلسوف الإغريقي فيثاغورث الذي انحاز إلىٰ صفّ الروح؛ فقال: "اخْتَرْ قوّةَ الروحِ علىٰ قوّة الجسد"، وضاربِين عُرض الحائط بخلاصة تجربة نابليون؛ الذي أَعملَ سيفَه في الشّرق والغرب علىٰ السواء، ثمّ أدرك مؤخَّرا أنّ الروح أقوىٰ من السيف،

(1) الإسراء 85.

فقال: "ليس في العالم سوىٰ قوّتين: الروح والسيف، ولا بد أن تنتصر الرُّوح في النهاية".

والواقع أنّ الحديث عن غذاء الروح هو مِن الأهمية بمكان؛ بالنَّظر إلىٰ تَمدُّد مطالب الجسد بفعل تكنولوجيا حديثة تُتحفنا يوميّا بكلِّ جديد في نطاق المُتَع الماديّة والمباهج الحِسيّة، وذلك علىٰ حساب الروح التي تَتعقّد كلّما تَرفَّه الجسدُ علىٰ حدّ تعبير الشيخ ابن عثيمين. وكذلك في ظلِّ إحصاءات مقلقة تُومِئ إلىٰ انتشار الأمراض النفسيّة، وتُنبِّه إلىٰ ما اعْترىٰ الجانب الرُّوحي مِن ضعْفٍ ووهَنٍ وصل في بعض المجتمعات إلىٰ حدٍّ لم يَعُد فيه قاصرا علىٰ الغرب المادّي، بل زحف إلىٰ الشرق الذي اشْتُهِر بالروحانيات باعتباره مهبطا للأديان الثلاثة قبل أن تنتشر خارجه. وليس بخافٍ أيضا غلَبة النزعات الشيطانية والميول الحيوانية في تصرّفات بعض البشر، معبّرة عن نفسها في هيئة حوادث عنف وجرائم أخلاق تعجّ بها الأوراق والشاشات، وهو ما حذَّر منه الشاعرُ أبو الفتح البستي حين قال:

يـــا خـــادمَ الجـــسمِ كـــم تَـــشقىٰ بخدمتِـــه
أَتطلـــب الـــربحَ فيمـــا فيـــه خـــسران؟
أَقبِـــل علـــىٰ الـــنّفسِ واسْـــتكْمِل فـــضائلَها
فأنـــتَ بـــالروحِ لا بالجـــسمِ إنـــسان

والواقع أنَّ الالتفاتَ إلىٰ غذاء الروح هو مِن صميم الإنسانيّة الراقية؛ لأنّ غذاءَ البدن يشترك فيه الحيوان والنبات وربّما الجماد أيضا، ولأنّ الغفلة عن تغذية الروح تُفضِي إلىٰ ضلال النفْس وتَبلّد الإحساس وقساوة القلب وتَحجُّر الدمع، كما تُؤدِّي إلىٰ تصلّب مفاصل الإيمان وترهّل عضلات التقوىٰ وتمزّق أربطة الخشْية. وبهذا فإنَّك ترىٰ الغافلَ عن حياة الروح عاجزٌ أَقْعده ثقلُ الفتور وكَبّلتْه أغلالُ الشهوات، وقلِقٌ حتىٰ كأنَّ الأرضَ ضاقت عليه بما رحبت، ونكِدٌ كأنّ روحَه تَصَعّد في السماء أو كأنَّ الريحَ تهوِي به في مكان سحيق، وهو كذلك شَقيٌّ حتىٰ لو سكَن القصور واكْتسىٰ بالحرير واغْتذَىٰ بالكافيار وتَداوىٰ علىٰ يدِ ابن البيطار[1]، إذْ لا معنىٰ لحياةٍ لا تُحلّق فيها الروحُ كالطيْر وتُشرق عليها كالشمس وتَلمع في سمائها كالنّجوم.

والناس في حالِهم مع الأرواح كحال المصابيح مع الإضاءة، فمِنهم المُظلِم كمِصباح محترِق، ومنهم خافت الإضاءة كمصابيح غرف النوم

(1) يُعتبَر (ابن البيطار) عالم عصره في الصيدلة وشيخ العشَّابين في زمانه حتى لُقِّب بالنباتي والعشّاب، وقد عاش في النصف الأول من القرن السابع الهجري، وخلَّف وراءَه مؤلَّفات علمية عديدة منها: (ميزان الطب، المُغنِي في الأدوية المفردة، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية).

ومِصباح الجوال. ومنهم الساطِع المتوهِّج كمصابيح السيارات والواجِهات؛ وهؤلاء -علىٰ حدِّ تعبير الشهيد سيد قطب في رسالته (أفراح الروح)- هم أصحاب الطاقات الروحية الفائقة الذين يوجِّهون الحياةَ ويختارون للبشرية طريقَها؛ فيَحملون شعلة مقدَّسة تنصهر في حرارتها كلُّ ذرّات المعارف وتنكشف في ضوئها طريقُ الرحلة نحو الهدف السامي البعيد...وإذا اعتبرْنا غذاء الروح هو كهرباء المصباح وزيت السراج، فإنَّ كلًّا مِنّا بوسعه الدخول ضمن دائرة المصابيح المتوهِّجة؛ خدمةً لنفسِه، وصدَقةً علىٰ غيرِه، وقربانا للحياةِ بأسْرها، فالخيْر يَدور ويَعود علىٰ فاعلِه، وكذلك الشرّ، وعلىٰ الحصيف الأريب أن ينحاز دوما للخيْر.

ولأنّ الرّوح أَلطف ما في الوجود مِن كائن، وأَخْفي ما في الحياة مِن سِرّ. ولأنّ سِرَّ الصلاح يكمن في صلاح السرّ؛ فإنَّ المروءة تقتضي أن نكون رُفقاء بهذا اللطف، وأُمناء علىٰ هذا السِرّ؛ فلا نُثقل كاهلَ الروح بهَمّ، ولا نَطمس ضوءَها بذنْب، ولا نُطفِئ نورَها بيأْس، إذْ ما أَشبَهَها ببيت زجاجي شفّاف نستنبت فيه خمائل السعادة، أو بشمس داخلية مشرِقة نستمدّ منها الضوء والدفء والطاقة، أو بفرشاة ألوان زاهية نرسم بها علىٰ جدار الحُبّ وننقش علىٰ لوح السعادة.

ومَهما بذلْنا مِن غالٍ ونفيس في سبيل الارتقاء بسُبُل العيْش وتيسير الحياة الماديّة، فلن يطيبَ للرّوح غذاء ولن تهنأَ لها حياة إلّا في معيّة الله وحِماه، وذلك لأنّها كائنٌ عُلويٌّ سماويّ لا يَقنع سوىٰ بغذاءٍ مِن جنسِه وكساءٍ مِن لونِه ودواءٍ مِن مادّته وشرابٍ مِن عالَمِه وطبيعتِه، وهو ما لا يَتحقَّق إلَّا بالقرآن والذِّكر والصلاة[1] والدعاء والصوم، ولا يتأكّد سوىٰ ببذل الخيْر ومدّ يد العطاء وصفاء القلوب ونقاء النفوس. مع التفكّر في مصائر الأمم البائدة والحضارات التالدة، والاعتبار بمَن سبقنا علىٰ آلة حدْباء وسكَن اللحودَ والقبور، والتأمُّل في أحوال العجَزة علىٰ فرُشهم والمَرضىٰ فوق أَسِرّتهم. ثمّ الالتفات إلىٰ وصْفة الأديب البرازيلي باولو كويلو القائلة:

"الـرّوح تتعـذّب عنـدما نجبرهـا علـى العـيْش علـى نحو سطحي، لأنَّها تُحـبّ كـلَّ جميـل وعميق".

(1) يقول (الحسن البصري): تَفقَّدوا الحلاوةَ في ثلاثة؛ الصلاة والذكر وقراءة القرآن.

والعجيب أنّ للروح حُمّىٰ ترتجف منها كما يرتجف البدن، وتنتفض لها انتفاضة العصفور حال البلل؛ وتَنتج مِن مخالطة الثقلاء والسفهاء الفارغين مِن كلِّ جميل ونبيل. كما يُصيبها المللُ حتىٰ لتبدو كخرقةٍ بالية تلعب بها رياحُ الشهوات، وبئرٍ بَلْقع لا نفْع فيه ولا رجاء. ويَعتريها الجفافُ؛ فلا تنفعل لوعْظ، ولا تستجيب لنصْح. وتُصاب بالشيخوخة؛ فتتجعّد، وتَنحنِي، وتصبح في مسيس الحاجة إلىٰ إكسير الإيمان وعكّاز التقوىٰ. وتَعتورها الجروحُ والخدوشُ والكدمات، التي لا يُداويها إلّا التوبة، ولا يُضمّدها إلّا الاستغفار. بل إنَّ شللَ الروح وتخثُّر دمائها وانسداد شرايينها، هو ما يَدفع الشخصَ إلىٰ نحْر نفسه وقتلها عبر القفز من فوق الجسور، أو الشنْق بأحبال السراويل، أو ابتلاع السموم، أو إطلاق النار علىٰ مقدّم الرأس والصدر. وفي كلّ تلك الأوجاع والأسقام الروحية؛ لا مناص مِن العلاج في عيادة السماء لا عيادة الأرض، ولا مَفرّ من الاستعانة بطبّ الأديان لا طبّ الأبدان، ولكن لا مانع من الخلود إلىٰ فترة نقاهة يَتخلّلها التنزّه أو السفر أو القراءة أو الكتابة أو الخلوة[1] أو الطرفة، أو نحو ذلك مِن ترفيه مباح وترويح حلال يَضخّ في عروقِ الروحِ

(1) يقول (ابن عطاء الله السكندري): "ما نفَع القلبَ شيءٌ مثل عزلةٍ يدخل بها ميدانَ فكرة".

الدماء، ويُذهِب عنها الكدر، ويَفكّ عنها الآصار، ويُضفِي عليها مسحةَ جمال قال عنه الشاعر:

جمالُ الروحِ ذاك هو الجمالُ تَطيبُ به الشّمائلُ والخِلال

مع التنويه بأن قافلةُ الروح لا تمرّ فوق رفات البدن، وليس حتْما لكي تحيا الروح أن يَموت الجسد، وذلك علىٰ غرار ما فعله الفيلسوف ديوجين بلبس المرقّع وافتراش الحصىٰ وسكنىٰ البراميل والتبول في العراء، أو علىٰ نهج أبي العلاء المعرّي حين أدار الرّحىٰ علىٰ المباحات؛ فحرّم علىٰ نفسه ما حلّل اللهُ من طيِّبات، واكتفي بما علىٰ الأرض من نبات، ولبس خشن الثياب، وطلّق مباهج الدنيا ثلاث...فسادات الرّوح من الصحابة والتابعين؛ أكلوا وشربوا، وحَلّوا وارتحلوا، وتَزوّجوا وتناسلوا، وضحكوا وابتهجوا؛ وما طغىٰ ذلك علىٰ حرارة أرواحهم، ولا انتقَص مِن عافيتها أو أَخلّ بسلامتها.

(2) الجَمال الحقيقي

يُحكَىٰ أنّ الرسّامَ الفرنسي أوجست رينوار أُصِيب بالتهاب في مفاصل يده، وبينما كانت يدُه تؤلمه والألمُ يعتصره، كان يمسك الفرشاةَ بأطراف أصابعه ويُواصل الرسمَ رغم الألم! وفي أحد الأيام سأله صديقُه عن السبب الذي يَجعله مُصِرًّا علىٰ الرسْم واحتمال عذابات الألم؟ فأجاب: سيَذهب الألمُ ويَبقىٰ الجَمال.

ويبدو أنّ الجمالَ هو الذي ذهب وما بقي سوىٰ الألم، ودَقِّق اللحْظَ في مظاهر الحياة المختلفة حولنا وما يكتنفها مِن عُنف وقُبح وسُوء، يأتيك الخبرُ اليقين، ويرتدّ إليك بصرُ الجمال خاسئا وهو حسِيرٌ كسيف. ومن هذا المنطلَق بات الحديث عن الجمال فرْضًا لا نفْلا، وعيْنًا لا كفاية، وضرورةً لا ترفا، وواقعًا لا خيالا، حتىٰ لو بلغ بنا الحالُ حدّ التوسُّل مع جميل الكلمة ورقيق المشاعر جبران خليل جبران الذي قال: "مَن يَبيعني فكرًا جميلًا بقنطارٍ مِن الذهب، ومَن يُعطيني عيْنا ترىٰ الجمالَ ويأخذ

خزانتي؟"، خاصة إذا علمنا أنّ مفردة الجمال قد شغلت البشريّةَ عبر سيْرها الطويل، وكانت ثالث ثلاثةٍ في منظومة القِيم (الحقّ-الخير-الجمال)، وثالث ثلاثةٍ في بنيان الإنسانية (المعرفة-الأخلاق-الجمال).

وفي لغة الضاد التي تَجمَّلت بالقرآن، ووصفها شوقي بأنها لغة الجمال فقال:

إنَّ الـذي مـلأ اللغـاتِ محاسِـنا جعـل الجمـالَ وسِـرَّه في الـضاد

يأتي الفعلُ جَمُل بمعنىٰ حَسُن، ويُجمَع الجميلُ علىٰ جُمَلاء، بينما تُجمَع الجميلةُ علىٰ جَمائل. وقد فرّق البلاغيُّون بين الحُسْن والجمال، فقالوا بأنّ الحُسْن في الأصل للصورة ثمّ اسْتُعمل في الأفعال والأخلاق، بينما الجمال في الأصل للأفعال والأخلاق ثمّ اسْتُعمِل في الصورة، بما يعني أن المحصّلة واحدة ولا مشاحّة في إحلال أحدهما محلّ الآخَر.

والجمالُ اسمٌ علىٰ مُسمًّىٰ، ومعناه مُتّسقٌ تمام الاتّساق مع مَبناه. وهو حاجةٌ كونيّةٌ فِطريّة[1]، ومُفردةٌ أساسيةٌ بارزةٌ في صنع الله الذي أتقن كلّ شيء، حيث أَنْطق به سبحانه صفحاتِ الكون في البرّ والبحر والجوّ؛ فهذه

(1) يقول الأستاذ (سيد قطب): "الجمال في الكون فطرة عميقة لا عرَض سطحي"، ويقول أخوه وصنو روحه (محمد قطب): "الجمال حقيقة كونية والحق ذروة هذا الجمال".

سماء علىٰ قدْر اتّساعها وتَرامِي أطرافها؛ لا فروج فيها ولا عُمُد لها، علاوة علىٰ ما بها مِن شمسٍ تسطع ونجومٍ تلمع وقمرٍ ينير وكواكبَ كالمصابيح تضيء. وتلك أرضٌ بها حدائق ذات بهجة؛ فتُطرِب العينَ بلوْنها، والأنفَ بعَرْفها، والأُذنَ بشدْو طيْرها. وقِس علىٰ ذلك بحرًا يزخر بمخلوقاته العجيبة ودُرَرِه الثمينة. بل إنَّ جمالَ ما لا نبصره، يَفوق جمال ما نُبصره أضعافا مضاعَفة.

وبرغم أنَّ اللفظ يَعجز عن وصف الجمال الكونيّ؛ فقد اجتهد محمد قطب في كتابه (منهج التربية الإسلامية) ووصَف جماليّة الكون المَقرونة بالمنفعة والفائدة، فقال: "الجبالُ لا تكتفي بأن تكون جبالا ولكنها تكون جميلة ورائعة مكسوّة بالثلوج أو الغابات، والسحابُ لا يكتفي بأن يكون سحابا يحمل الماء ولكنه كذلك يكون جميلا بأشكاله وألوانه حيث ينتشر عليه في بعض الأحيان طيفُ الشمس في منظرٍ رائعٍ جميل، والنباتُ لا يكتفي بأن يكون نباتًا بل يُورق ويُزهر فيستمتع الإنسانُ بزهره الأريج وشكله البهيج، والطيرُ لا يكتفي بأن يكون طيرًا ولكنه يُسقْسِق ويُغرّد ويَلعب ويَقفز وتزهو منه الألوان، والحيوانُ لا يكتفي بأن يكون حيوانا ولكنه يَقفز ويَمرح ويَتخابث في لُطف ويُستألَف للإنسان".

ويَكفي الجمالَ جمالٌ؛ أنّ اللهَ وُصِف به علىٰ لسان مَن لا ينطق عن الهوىٰ حين قال: "إنَّ الله جميلٌ يُحبُّ الجمال"، فكان -سبحانه- جميلًا في ذاته وأسمائه وصفاته وفعاله. وقد جاء الجمالُ في الذِّكرُ الحكيم بلفظ (جميل) و(جمال) في ثمانية مواضع؛ فقرَنه بالصبر في ثلاثة منها ليَنأىٰ به عن الجزع والسخط، وضرَب لنا أنصع مثالٍ في ذلك حين حكَىٰ صبر أيوب ويعقوب عليهما السلام. ثمّ قرَنه بالصفح لِيكون خالصًا لوجه الله دون مَنٍّ وأذىٰ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾[1]، وبالهَجْر لِيَستبْقي البِرَّ والوُدّ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾[2]، وبالسَّراح لِيخلو مِن الغُبن والبغْي، ثمَّ كان وصْفًا للأنعام في الرّواح والسّروح لتكتمل العدّة ويَتمّ الوصف ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾[3]...ولم يكن ذلك كذلك؛ إلّا بحسبان الجمال دليل عبقريّة الطبيعة ووقودَ الحياة الطيِّبة ويدها الكريمة الحانية؛ تلك اليد التي تُذكِي نورَ الخير وتُطفئ نارَ الشرّ، وتُشعل فتيلَ الأمل وتُخمد جذوةَ اليأس، وتَفتح الباب واسعًا لتحقيق العبوديّة الخالصة.

---

(1) الحجر 85.

(2) المزمل 10.

(3) النحل 6.

ولأنَّ الإنسانَ[1] هو نواة الكون وغاية الخلْق؛ فلا غرو أن يكون الجمالُ أَلْزمَ به وأَلصق، وأَدْعَىٰ له وأوْجَب، بدءا مِن الجمال الحِسّي الذي يُبهج العين؛ ويتمثّل في استقامة القدّ، وتناسُق الأعضاء، ومرونة الحركات، وحُسْن الهيئة، وتمام الصورة، وتعدّد الألوان، بل وفي ترتيب الأحماض الأمينية داخل المادة الوراثية ترتيبًا حلزونيًّا بديعا. مرورًا بجمالِ العقلِ؛ الذي يُثرِي الحياةَ فكرًا واعتقادا. وجمالِ النفس، الذي يشيع الأمن ويزرع الأمل. وجمالِ القلبِ؛ الذي يفيض بالحبّ ويشعّ بالدفء. وانتهاءً بجمالِ الرُّوحِ؛ الذي يَصل بنا إلىٰ مرفأ الخُلد ودار السلام. وفي هذا قِيل إنَّ الحضارة ليستْ إلّا إنسانًا جميلا، والجمال ليس إلّا وعدًا بالسعادة، وشيئًا من الجمال هو فرحٌ إلىٰ الأبد. وقد عبّر القرآن الكريم عن الجمال الإنساني، فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[2]، وفسَّره الإمام الثعالبي في تفسيره المُسمَّىٰ (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) بقوله: حُسْن التقويم يشمل جميع محاسن الإنسان الظاهرة والباطنة.

---

(1) في كتابه (عقيدة المؤمن) يصف الشيخ أبو بكر الجزائري الإنسانَ؛ بأنه ذلك الكائن الحي المنتصِب القامة البادي البشرة، ذو العقل والتفكير والأخلاق الفاضلة والعواطف الجياشة والإحساسات الصادقة والمنطق السليم والكلام الفصيح المبين.

(2) التين 4.

وإذا ذُكر الجمالُ في الإنسان؛ ذُكر سيدنا يوسف-عليه السلام- الذي أُوتي شطْر الحُسْن، ففُتِنت به امرأةُ العزيز وراودتْه عن نفسه، ثمّ ذُهِلت أمام حُسنه النّساءُ فقطّعنَ أيديهنّ حين أقبل علىٰ مجلس غدرهنّ ومكرهنّ. وذُكر جرير بن عبد الله البجلي؛ الذي وصفه عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بأنّه يوسف هذه الأُمّة. وكذلك الصحابي دِحية الكلبي؛ الذي نزل أمينُ الوحي جبريل علىٰ صورتِه وهيئتِه.

ومع أنَّ الجمالَ قريبُ التداول وشائعُ الاستعمال، إلّا أنَّه يُفهَم ولا يُعرَّف، ويُحَسّ ولا يُوصَف، وتَدلّ عليه آثارُه لا ذاتُه؛ وذلك لارتباطه بالوجدان والإحساس أكثر مِن ارتباطه بالعقل والمنطِق. وربّما في ذلك تكمن العِلّةُ التي مِن جَرّائها كثرت تعريفاتُه واتّسعتْ مفاهيمُه، بعد أن تَفرّق دمُه بين الفلسفة والفنّ والدِّين والشِّعر. فتارةً يَجرِي تعريفه علىٰ أنّه القدرة علىٰ مقاومة النفس الأمّارة بالسوء، وتارةً يكون هو التكوين الذي يجعل الحياة موضعًا للإعجاب والحُبّ، وتارةً يكون عِلْمًا يَتمثَّل فيه الإنسان العالَمَ تَمثُّلًا جماليًّا مَحكومًا بالقانون، وتارةً يكون شعورًا بالبهجة والمتعة عبْر إثارة الحواس أو الوجدان. ولكنه في كلِّ الأحوال؛ يبقىٰ غير قاصرٍ علىٰ تناسق اللون وأناقة الهندام وبريق النظافة، وغير محصورٍ في أدوات الزينة ومستحضرات التجميل التي وصل الصرفُ فيها

حدّ السفه والبذخ[1]، وحتىٰ ذكَر المثل الصيني بأنّ المرأة مَدينة بثلاث أعشار جمالها للطبيعة، وبالسبعة الأعشار الأخرىٰ للزينة!. كما يَظلّ –أي الجمال– مُخاصِمًا ألدّ الخصومة، وبعيدًا غاية البُعد، عمّا جرَىٰ ابتذاله وأُسيء استخدامه في مسابقات ملكات الجمال؛ التي ذبحت الحياءَ بسكّين التبرّج، وشنقت الأنوثةَ علىٰ أعواد التحرّر، وطالتْ الفتيات والحوامل والبدينات والمُسنّات، ووصلتْ إلىٰ ما يُسمَّىٰ بملكات جمال السجون وملكات جمال المُتحوِّلات جنسيّا!...وسقىٰ الله ترابًا علق بنعال مَن مدحها القرآن الكريم بقوله: ﴿ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ ٢٥ ﴾[2]..

إذْ لا يكون الجَمالُ جمالا حقيقيا؛ إلّا إذا تَجاوز المَظهَر إلىٰ المَخبَر، وتَعدَّىٰ الشكلَ إلىٰ المضمون؛ فالتصق بالحقّ، وتَرافَق مع الصدق، واقترن بالجلال، وارتقىٰ بنا درجة في سلّم الإيمان؛ ليصبح جمالُ الحاكِم

---

(1) ذكرَت جريدةُ الشرق الأوسط؛ أنّ حجم استهلاك السيدات السعوديات في الطبّ التجميلي ومنتجاته، تَجاوز 60 مليار ريال في عام 2011م، كما ذُكر في موضع آخَر أنّ أمريكا صرفَت على عمليات التجميل في عام 2016م ثلاثة عشر مليار دولار، وأنّ بين كلّ خمس نساء كوريات جنوبيات أجْرَت واحدةٌ منهنّ عملية تجميل!

(2) القصص 25.

في صلاحِه، وجمالُ القاضي في عدْله، وجمالُ العِلم في نفْعه، وجمالُ الفنّ في معناه، وجمالُ الغَنيّ في كرَمه، وجمالُ الفقير في سعْيه وعِزّة نفسه، وجمالُ النّساء في التزام الشرف والتَّحلِّي بالفضيلة، وجمال الرّجال في المروءة وحُسْن القِوامة، وجمالُ الأدب في تهذيب الأخلاق وترقيق المشاعر. وفي هذا ما يُشير إلىٰ أنّ الجمالَ ملكيّة عامة، يَتشاركه الجميعُ صياغةً وتَذوّقًا وتَأثُّرا، وأنَّ الشيء لا يستحقّ الوصفَ الجمالي إلّا إذا خلا مِن العيوب وسلم مِن النّشاز وامْتلك ثلاثيةَ القوّة والوفْرة والذكاء التي اشترَطَها الكاتب أحمد حسن الزيات في الجمال بقوله:

"لو أنكَ ذهبتَ تَستقرِي مفاتنَ الجمال في الطبيعة، أو في الفنّ، أو في الأثر الذي ينشأ من ائتلاف الطبيعة والفنّ؛ لما وجدتها في غير ما يُعلن القوّة والوفرة والذكاء مجتمِعة أو متفرِّقة".

وبرُغم ما قِيل عن نِسبيّة الجمال الحِسّي، باعتبار تفاوت الآراء والأذواق. وعن أنَّ الجمال يَزول باعتياد رؤيته؛ نظرا لخاصيّة المَلل الملازِمة للإنسان التوَّاق دوْما إلىٰ التغيير والتجديد ولو علىٰ حساب الجمال. فإنَّ المنطقَ يَشهد بأنَّ الأشياءَ ترانا قبل أن نراها، وتقتبس جمالَها

مِن جمالِنا، وتُبادلنا عطاء بعطاء. ثمّ يؤشّر علىٰ أنَّ الجمالَ طاقةٌ يَسرِي عليها قانونُ عدم الفناء الذي يَحكم جميع أنواع الطاقات في الكون، وعلىٰ أنّ رؤيتَنا نحن هي ما فنيتْ وبليتْ بعدما أصبحت رؤيةً مُسطّحةً، زالتْ عنها الدهشة، وغاب فيها العُمق، وفارَقها الصفاء والنقاء، وصارت بصرا بلا بصيرة ورؤيةً بلا رَويّة. هذا مع التأكيد علىٰ أنّ الجمالَ المعنوي؛ هو الأَجْدر بالحرص، والأَحقّ بالأَخْذ.

وبنظرة استقرائية، نجد السجون والمعتقَلات يَتصدَّق فيها الحكّامُ علىٰ قاطنيها بالعفْو، وفي جائحة الفقر يَتصدّق المحسنون علىٰ المعوزين بالمال، وعند حلول الدَّيْن يتصدّق الدائنون علىٰ المُعسِرين فيعفونهم مِن ذُلّ النّهار وهَمّ الليل.. أمَّا في عصرنا الذي خيّم فيه القبح وارتدىٰ ثوب التهارشات السياسية والنزاعات الطائفية والخلافات الزوجية؛ فلا أرىٰ صَدقة أثمن مِن كلمة جميلة وموعظة جميلة وفعل جميل وفكر جميل وصبر جميل وصفح جميل، أو حتىٰ هجْر جميل وسراح[1] جميل؛ علىٰ أمل هزيمة القُبح الذي تَوحَّش حولنا؛ فدهس القيَم، وزيّف المبادئ،

(1) في السَّراحِ الجميل؛ يُحكى أنَّ زوجا أراد أن يُطلِّق زوجتَه بعد أن نغَّصت عليه عيشَه وصَعُب عليهما مواصلة الحياة، فلما سُأل عن سبب تطليقه إياها، قال: ما كنتُ لأفشي سرّ زوجتي، فلمّا طلقها سُأل ثانية عن سبب تطليقها، فقال: لَم أكن لأغتاب امرأةً مسلمة!

وهدم الدول، واستعْبد الشعوب، وأهان الشيوخ، وقتَل الرجال، وشرَّد الشباب، وما سلم مِن جريرته النّساء ولا الأطفال!

وقياسا علىٰ أنّ الظمأ الذي لا يَنجو منه حيّ هو أكبر دليل علىٰ وجود الماء، وأنّ توْق الإنسان وشوْقه إلىٰ الخلود لهو أقوىٰ حجّة علىٰ أنّ الخلودَ حقيقةٌ لا خيال؛ فإنَّ القُبحَ الذي يطلّ برأسه مِن كلّ نافذة لهو دليلٌ أكيدٌ وبرهانٌ دامغٌ علىٰ أنّ الجمال حقيقةٌ تَلفّنا وكيانٌ ماثل بيننا، ولكنّنا لا نقدِّره حقّ قدْره ولا نبذل له المهْر الذي يستحقّه. وفي هذا رُوي أنّ العقادَ اشترىٰ ريحانا بخمس جنيهات كانت في زمنها تساوي مبلغا كبيرا، فتعجَّب من صنيعه رجلٌ، وسأله كيف تدفع مبلغا كبيرا كهذا في ريحان؟ فأجابه العقاد بأنَّ الإنسان لا يَستغْلِي الجمال. أضف إلىٰ ذلك، أننا قليلا ما نُوجِّه مَرايانا العقليّة والقلبيّة نحو الجمال لِينعكس علىٰ صفحة حياتنا أمْنا وسلاما وسعادة، وربَّما هذا ما عناه شاعر الخمائل والجداول (إيليا أبو ماضي) في قصيدته (فلسفة الحياة)، والتي قال فيها:

والــذي نفــسه بغيــر جمــال لا يَرىٰ في الوجود شيئا جميلا

ثمَّ ختَمها بقوله: "كُن جميلا ترَ الوجودَ جميلا"، وهو ذات المعنىٰ الذي ساقه أحدُهم نثْرا فقال: "بالنسبة إلىٰ الشاعر كلّ شيء رائع،

وبالنسبة إلىٰ القدِّيس كلّ شيء قدسيّ، وبالنسبة إلىٰ البطل كلّ شيء عظيم؛ أمّا بالنسبة إلىٰ صاحب الروح الوضيعة والخسيسة فكلّ شيء زريّ، وبائس، وقبيح وسيِّء".

ولكي لا نحرث البحرَ ولا نرسم في الهواء؛ فإنّ علينا ألّا نبحث عن الجمال الحقيقي في غير سُوق الدِّين، وألّا ننتظر الجمالَ إلّا مِن المُتديّنِين بحقّ، فالدِّين عنوان الجمال البارز وقلبه النابض وروحه المُشرِقة وجذْوته المُتَّقِدة، ولا تغرنّك مظاهر تديّن يُبديها البعض ولكنها تَفتقر إلىٰ الجمال وتُحرِّض علىٰ القبْح وتُسيء إلىٰ الدِّين؛ مِن حيث خشونة اللفظ وتَجهّم الوجه وكآبة الخاطر وقساوة الطبْع، وكأنّ أحدَهم عائدٌ لتوِّه مِن جنازة أو مُتأهِّبٌ لخوض معركة، متناسيا أنَّ أخا الدِّين مَن عادىٰ القبيح وذلك علىٰ حدّ تعبير التوحيدي أبي حيان، وغافلا عن أنّ الدِّين الحقّ – كما يقول الكاتب أحمد أمين– هو: (حجَر الفلاسفة) تَضعه علىٰ النّحاس والفضّة والرصاص فتكون ذهبا. فضلا عن أنّ التديُّنَ الحقَّ؛ ينبع من الروح وينطبع به السلوك، قبل أن يَتمظْهر في جلباب أو لحية أو سواك أو نحو ذلك.

(3) بيوت الله

في أواخر تسعينيات القرن الماضي، عبَّر الزعيم التركي رجب طيّب أردوغان عن انتمائه لمدرسة المسجد، واعتزازه بالدور الريادي الذي يَلعبه في حفظ بيضة الأمّة والزوْد عن هويّتها، فردَّد أبياتا مِن نظْم الشاعر التركي ضياء غوك ألب تقول: "مساجدنا ثكناتنا. مآذننا رماحنا. قبابنا خوذاتنا. المُصلُّون جنودنا" فاتّهمتْه السلطاتُ التركيّة العلمانيّة آنذاك بالتحريض علىٰ الكراهية الدينيّة، وساقتْه إلىٰ المحاكمة والسجن، وعزلتْه مِن رئاسة بلديّة اسطنبول! هذا قبل أن يردّ لهم الصاع الصاعيْن عام 2020م، عبر استعادته لمسجد آيا صوفيا ذي المكانة التاريخية العريقة.

وذات يوم، سَألتُ أحدَ حمائم مسجدنا عن أحواله، وذلك إبّان ابْتعاثه للدراسة في بريطانيا، فأجاب ببيتٍ غزير المعني أنيق العبارة وارف الحِسّ يُنسَب إلىٰ شاعر يَمنيٍّ قديم يقول:

لا يَعرف الشوقَ إلّا مَن يُكابده ولا يَعرف الصبابةَ إلّا مَن يعانيها

وبصرف النظر عن المعنىٰ الذي خبّأه الشاعر في بطنه وطواه في قرارة نفسه؛ فإنّ شوق صديقي حمامة المسجد، ليس إلىٰ حبيب فرّقتْه الأيام، ولا عزيز غيّبه القدَر، ولا ذكرياتٍ غالية طواها بساط الزمن. بل إلىٰ مَسجد تَعلَّق به القلْب واكْتوت بنار حُبّه الروح وخلَّىٰ بينهما بلدٌ أجنبيّ فرغ مِن نور المآذن، فانْقطع الوصْلُ وطال الفراق، ولم يَبقَ سوىٰ حرارة الشّوق ولهيب الصّبابة وفتات أُمنيات تهتف: ليت العُمرَ مسجدٌ وأيّامه ركعات.

وحمائم المساجد هم أوتادها، وسمَك مائها، وملح طعامها؛ أمثال الربيع بن خيثم الذي قال: إني لَآنس بصوت عصفور المسجد أشدّ مِن أُنسي بزوجتي، وأمثال الذي قال: إذا أذّن المؤذِّن ولم تجدوني بالمسجد فاطلبوني في المقبرة.. وهؤلاء هم المغاوير الذين إذا رحلوا بَكَتْهم عيونُ المآذن، ورَثَتْهم أَلْسنُ المحاريب، وانْثلَمت من غيابهم صفوفُ المُصلِّين.

أمّا المسجد؛ فمكانٌ موقوفٌ علىٰ المسلمين كافّة لأداء الصلاة، اشْتُقّ اسمه مِن السجود الذي هو أشرف حالات المُصلِّي وأمْيز ما تتفرّد به صلاةُ المسلمين، وتكرّر ذكرُه في القرآن ثمانٍ وعشرين مرّة؛ اثنتان

وعشرين بالإفراد وستّ مرات بالجَمع، جاء أكثرُها في أطول سور القرآن وهي البقرة بعدد ستّ مرات. ومع أنَّ العبادةَ غايةُ الخَلْق، والأرضَ كلّها مسجدٌ وطهور؛ إلّا أنّ المسجدَ يظلّ حياة المسلمين، وركيزة الإسلام، ومَصنع المُوحِّدين، وبيْت ربّ العالَمين؛ إذْ هو -علىٰ قول الرافعي في وحي القلم- تصحيحٌ للعالَم الذي يموج مِن حولِه ويضطرب، وهو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهِرة المُصحِّحة لكل ما يزيغ به الاجتماع، ومِن ثَمّ فهو حلٌّ واحد لكلّ المشاكل، وكما يُشَقُّ النهرُ فتقف الأرضُ عند شاطئيْه لا تتقدّم، يُقام المسجدُ فتقف الأرضُ بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخل.

وقد كانت هذه المعاني بعض ما تسرَّب إلىٰ نفس وعقل السياسي والصحفي الهندي (كوفهي لال جابا)، فوضعَت قدمَه علىٰ عتبة الهداية، وعرجت بروحِه إلىٰ السماء، فأسلم وتَسمَّىٰ باسم سيف الله المسلول خالد، ثمّ أوْجز تفاصيل تلك الرحلة قائلا: "كنت كلّما مررتُ بأحد المساجد للمسلمين في الهند، أُفعِم قلبي بالإحساس بعظمة هذا المكان وقدسيته، كان قلبي يريد الانضمام إلىٰ جماعة المؤمنين في المسجد، وكان النداء والدافع قويًّا إلىٰ درجةِ أنّني لم أتمالك نفسي من الدخول إلىٰ

المسجد والوقوف في صفّ المصلّين، والحقيقة أنّني لم أستطع مقاومة ذلك، وظللْتُ أفعله فترةً طويلة من الزمن". ولله درّ ابن عبّاس الذي وصف المساجد بأنها: منارات مضيئة تتراءىٰ لأهل السماء كما تتراءىٰ النجوم المضيئة لأهل الأرض.

وللأهميّة المركزيّة للمساجد بحسبانها للقِيم حارسة وللرجال غارسة؛ جاء بناء الكعبة كأوّل بيتٍ وُضع للناس علىٰ يد سيدنا آدم عليه السلام، فأصبح قِبلة المسلمين الخالدة. وجاء بناء المسجد الأقصىٰ[1] بالقدس علىٰ يد سيدنا سليمان -عليه السلام-؛ ليمثّل واسطة العقد في رحلة الإسراء والمعراج. وكان بناء مسجد قباء والمسجد النبوي، كركيزة لإنشاء الدولة في المدينة بعد الهجرة. كما حثّ القرآن علىٰ إعمار المساجد ﴿ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ١٨ ﴾[2]، ورتَّبت السُنَّة المُطهَّرة عظيمَ الأجْر علىٰ بنائها " مَن بنىٰ لله مسجدا ولو كمفحص قطاة بنىٰ الله له بيتا في الجنة"، ثمَّ سار الفاتحون الأوائل في

(1) سُمّي المسجدُ الأقصى كذلك؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى سمّاه هكذا في سورة الإسراء، ولأنّه الأبْعد مقارنةً بباقي المساجد الثلاثة التي تُشدّ إليها الرحال في مكة والمدينة.

(2) التوبة 18.

مشارق الأرض ومغاربها علىٰ ذات النهج؛ إذْ كان المسجد أوّل ما يَبدؤون به بعد انقياد الأمور لهم واسْتِتْباب دعوتهم، حتىٰ بلغ عدد المساجد[1] الآن حسب إحصائية حديثة حوالي 3.6 مليون مسجد حول العالَم، بما يُعادل مسجدًا لكلّ حوالي 500 مسلم، واشْتُهرت بعضُ المدن بكثرة مساجدها ومآذنها فأُطلق لقبُ مدينة الألف مئذنة علىٰ مدينتَي القاهرة في مصر واسطنبول في تركيا.

ولم يكن ذلك كذلك؛ إلّا لإيمانهم التامّ بأنَّ المسجد هو قلب الحياة النابض، وشريانها المُتدفِّق، وعقلها المُتوهِّج، وروحها الوثّابة؛ إذْ جعلوا منه معهدًا شرعيّا يُتدارَس فيه القرآن والفقه والحديث، ودارَ فُتيا تُرشد الناس في شئونهم وما يَعرض لهم، ومنصّةَ قضاءٍ تَفصل بين المتخاصمِين، وبيتَ مالٍ تُخزَّن فيه الأموال وتُقسَّم الأنفال[2]، ودارَ ضيافةٍ تأوي الفقير وابن السبيل، ومركزًا لإرسال السّرايا وتسْيير الجيوش، ومُلتقًىٰ عاما للاجتماع والتشاور، بل ودارَ حُكْمٍ تُلقَىٰ مِن علىٰ منبره خطبة العرش وما

(1) ذُكر أن عدد المساجد التي بنيت في حياة النبي صلى الله عليه وسلم تسعة مساجد لا غير.

(2) ثبت في صحيح البخاري أنَّ مالا أتى النبي صلى الله عليه وسلم من البحرين، فقال: انثروه في المسجد، ثمّ قسّمه بين الناس.

يَستجدّ مِن أمورٍ فاصلة، إضافة إلىٰ فتْح المجال وإفساح الصدر لنصف المجتمع مِن النساء حتىٰ يَرتدْن المساجد[1] فيَتفقّهْن في الدِّين ويَنهلْن مِن صنوف العِلم.

وفي رواق تلك المساجد ولقرون عدّة؛ أَسند العلماء ظهورَهم إلىٰ عُمُدها، وتَحلّق الطلّابُ كالفراشات حولها، فاستمعوا إلىٰ دروس الشافعي في الفقه ودروس الطبري في التفسير، وشهدوا المناظرات ونشوء المذاهب والتيّارات، حتىٰ تبوَّأتْ بعضُ المساجد منزلةَ الجامعات في العِلم والمحاضِن في التربية والمدارس في الفِكر؛ كالجامع الأزهر في مصر، وأمّ القرويين في المغرب، والزيتونة في تونس، والجامع الأموي في دمشق، ومسجد المنصور في بغداد، وغيرها مِن المنارات المتلألئة في شتّىٰ ديار المسلمين، دون إغفال مسجد قرطبة العظيم؛ الذي بناه عبد الرحمن الداخل، وكان أكبر المساجد في أوروبا، وقام العالِم المُسلم عباس بن فرناس بإجراء أوّل محاولة طيرانٍ له في تاريخ البشرية قفْزًا مِن فوق مئذنته، هذا قبل أن تغرب شمس المجد ويَتحوّل إلىٰ كنيسة كاثوليكية تصدح الأجراسُ في جنبات مآذنها!

---

(1) من دقيق ما قاله أهلُ العلم: إنّ الذَّهاب إلى المسجد مشْيا على الأقدام أقرب إلى الخضوع والتذلّل.

وبإطلالةٍ علىٰ واقعنا المعاصر؛ نجد العمارة الماديّة للمساجد قد تطوّرت كثيرا وبلغت شأوًا عظيما، حتىٰ وصلت في بعضها حدّ الزينة والفتنة التي حذّر منها عمر ابن الخطاب حين قال لِبنَّائي المساجد آنذاك: "إيّاك أن تُحمِّر أو تُصفِّر فتفتن الناس". فبعد أن كان المسجد الأوّل أرضه الحصباء، وسقفه سعف النخيل، وجدرانه من الجريد، وبابه لا يَردّ كلْبا ولا يحجز حشرة؛ باتت مساجد اليوم -ولله الحمد- مزوّدةً بسجّادٍ تغوص فيه الأقدام، وستائر تُجمِّل النوافذ، وثُريّات أشبه بالكواكب، ومكيّفات تُنسِّم الهواء، ومُعطِّرات[1] تُطيِّب بأريجها الأجواء. علاوة علىٰ برّادات ماء الشُّرب، وسخّانات ماء الوضوء، وحمّامات تناسب الكبار والمعاقين، وأدوات تنظيف ذات تقنية حديثة.. وكلّها لَعَمْري ممّا يَبعث علىٰ الراحة والطمأنينة، ويُساعد علىٰ الخشوع والعروج في مدارج العرفان، ويَدلّ علىٰ العناية ببيوت الله وتعظيمها.

وعلىٰ مرّ الأزمنة، نجد تَسابُق الحكّامُ في تخليد أسمائهم -وعلىٰ نيّاتهم يُرزَقون- عبر تشييدهم لأفخم المساجد وأفسحها، كمسجد الحسن الثاني في مدينة الدار البيضاء المغربية، ومسجد السلطان قابوس

(1) ورد في صحيح مسلم أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمر بعبير فطُيِّب به المسجد.. في دلالة على أن مساجد صدر الإسلام كانت متواضعة المبنى ولكنها نظيفة الحاشية ذكيّة الرائحة.

بالعاصمة العُمانية مسقط، ومسجد الملك فيصل بمدينة إسلام آباد الباكستانية، ومسجد الشيخ زايد بإمارة أبي ظبي الإماراتية، ومسجد الصالح الذي بناه علي عبد الله صالح بمدينة صنعاء اليمنيّة. علاوة علىٰ التوسُّعات المُتتالية التي تمّت في الحرم المكّي؛ والذي يُعدّ أكبر مساجد العالَم، ويَسع ما يَقرب من مليوني مصلِّي، بعد أن بلغت مساحته حوالي 400ألف متر مربع. وكذلك المسجد النبوي، ثاني أكبر المساجد قاطبة، ويَسع في حدّه الأقصىٰ نحو مليون مصلّي. أمّا أكبر الدول الإسلامية (إندونيسيا)؛ فتضمّ بين جنبات العاصمة جاكرتا، أكبر رابع مسجد في العالم، وهو مسجد الاستقلال الذي بُني عام 1961م علىٰ مساحة عشرة هكتارات، ويَسع ما يزيد علىٰ مائة ألف مصلّي، وذلك ضمن 800ألف مسجد تزخر بهم الأرض الإندونيسية!

وبقدْر تطوُّر العمارة الماديّة للمسجد، فقد تأخّرَت –للأسف– العمارةُ المعنوية كثيرا؛ وذلك بعدما صُودرت أوقافُها، وأُمِّمت وظائفُها التعليمية والاجتماعية والقضائية لصالح مؤسّسات أخرىٰ مدَنيّة! وبعدما حُدِّدت سويعاتٌ لفتحها بدعوىٰ الأمْن، وأُسكِتت مُكبِّراتُها بذريعة الإزعاج، وجُرِّم المعتكِفون فيها باعتبارهم نواة للإرهاب! وكذلك بعد أن قام علىٰ شؤونها موظّفون رسميّون يأكل بعضُهم الدنيا بالدِّين، فيأتمر بأمر

الحاكم والأمير، ويُردِّد ما يُملَىٰ عليه كالببغاء! حتىٰ تَقزَّم دور المسجد مِن دارٍ للحياة إلىٰ زاويةٍ للصلاة، ومِن شمسٍ ساطعة إلىٰ شمعةٍ ذابلة، وفي ذلك-ولا ريب- الخُسران والخُذلان؛ إذْ مِن أين يأتي الرجال إذا كانت مصانعه قد غُلِّقت وعُلِّقت، ومِن أين يأتي الضياء إذا أُطفئ السّراج؟!

وقبل سِتِّين عاما تقريبا، رصد الكاتب أحمد أمين حال وزارة الأوقاف -وهو ما يظلّ وصفًا ساريا حتىٰ اليوم- فقال: "وزارة الاوقاف عَدَّت المساجدَ آثارا؛ فهي تَسير في تعيين أئمّتها وخطبائها ورقبائها سيْر القرون الخالية كأنّ الزمن لا يسير، وكذلك الأئمّة والخطباء يُعاملونها-أي المساجد- معاملة الآثار؛ فهم يقرأون غالبا الخطَب التي أُلِّفت في القرون الماضية، فلا تُحرّك نفسا ولا تُحيي همَّة".

وقد أبدع جمال الدين القاسمي الدمشقي في كتابه (جامع الآداب في أخلاق الأنجاب)، حين سطّر وصْفا بارعا لرسالة المسجد وواجب المسلمين تجاهه، فقال: "هو مَسكَنٌ مِن مَساكن الأبرار، ومَجلِسٌ مِن مَجالس الأخيار، وحِصنٌ من حصون المسلمين علىٰ الكفّار، وجِسرٌ بين الجنّة والنّار؛ لا يَأوِي إليه كافر ولا يَقربه إلّا طاهر. دخوله عبادة والمقام به سعادة والاعتكاف به سُنّة، وهو أحقّ الأماكن بأن يُصان ولا يُهان،

وأَوْلاها بأن يُنحَّىٰ عن مدْرجة الاختلال ويُرفَع عن أن تتناوله يدُ الابتذال، فصيانته صيانةٌ للإسلام والمسلمين وكبْتٌ للكُفْر والكافرين".

أمّا الحسَن بن عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد أحصىٰ فوائد الوفود علىٰ المسجد قائلًا:

"مَن أدام الاختلافَ إلى المسجدِ أصاب ثماني خصال: آيةً مُحكَمة، وأخًا مُستفادا، وعِلمًا مستطرَفا، ورحمةً مُنتظَرة، وكلمةً تَدلّه على هُدى أو تردعه عن رَدى، وتَرْك الذنوب حياءً أو خشْية".

ومسك الختام ما قاله الشرباصي في كتابه (يسألونك): "ما أشبه المسجد بقطعة مِن السماء، تَنزّلَت لتُعلِّم أبناءَ التراب كيف يَنسون شرعةَ الذِّئاب لحظاتٍ في كلّ نهار"..وبالطبع لن يكون المسجد كذلك؛ إلّا إذا خلعْنا علىٰ عتباته الدنيا بأدرانها جنبا إلىٰ جنب مع النعال بأوحالها.

وهنا أودّ التنبيه علىٰ أنّ سيْر الحياة سيْرها المعتاد رغم إغلاق المساجد لعدّة شهور مطلع العام 2020م جرّاء جائحة كورونا، لا يعني ثانويّة دور المساجد؛ بل يعني أنّ دورها جرىٰ تقزيمه علىٰ نحو مخيف، ويؤشّر علىٰ تغييبها عن الواقع بشكل شبه كامل؛ فلو كانت المساجد

تؤدّي دورها الكامل كمنارات إيمانية وتربوية وتعليمية واجتماعية، لَما طاق المجتمع المسلم إغلاقها ولو ليوم واحد، ولَعَدّها كماء وهواء لا تستقيم بدونها الحياة..ولله الأمر من قبل ومن بعد.

4- حُلم الخلود

عاش سيدُنا نوح عليه السلام أكثرَ مِن ألف عام، ولمّا سُأِل عن رؤيتِه للحياة قال: "رأيتُها كبيْت له بابان، دخلْتُ مِن هذا وخرجْتُ مِن ذاك"، بمعنىٰ أنّ أطولَ حياة هي أضْيق مِن طُرْقة بين بابيْن وأقْصر مِن مسافة الفِتْرِ والفِترَيْن؛ فبيْن رحِم الأمّ ورحِم القبر تكاد تنعدم المسافات، وتتلاشىٰ من قِصَرها الأزمان، وتنادينا الأنفاس والخَلَجَات: البِدار البِدار..

وبين الباب الأوّل الذي هو الميلاد والباب الثاني الذي يُمثّله الموت، صفحة من القِطْع الكبير أو الصغير حسبما يُقدّر الله ويَشاء في لوْحه المحفوظ؛ فيَخُطّ فيها كلُّ امرئ ما يَحلو له مِن نيّات وأقوال وأفعال، لينكشف عند الميزان المستور، وعلىٰ مَرأىٰ ومَسمع مِن كلّ الخلائق يُتلىٰ المنشور، وساعتها تَتجلّىٰ الفضيحةُ أو يَعمّ الحبور.

فمِنَّا –ولله الحمد والمنّة– مَن يُولد ولا يموت؛ بل تبقىٰ ذكراه حاضرة لا تَغيب، ونبْته أخضرٌ لا يَشيب، وتظلّ صحائفُه عامرة بزخّات الحسنات بينما هو راقدٌ في عالَم الذرّ؛ هنا مالٌ حلال وصدقةٌ جارية، وهناك تلامذةٌ برَرة تَلهج ألسنتُهم بالثناء، وعِلْمٌ نافع يسيرُ بلا أقدام، وهنالك بنون أتقياء وبنات أخيار ترتفع أكفُّهم بالضّراعة والدعاء، تصديقا لقول أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، قال: "إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلا مِنْ ثَلاثٍ :صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ".

ومِنَّا –ويا حسرتاه– مَن وُلِد؛ فأكَل حتىٰ سَمن، وشرب حتىٰ كرع، ولبس حتىٰ بطر، وكان مجرّد رقم في عداد المليارات التي تزخر بها الكرة الأرضية؛ فلا خيرًا قدّم ولا شرًّا دفَع، ثمَّ رحل عن الحياة كهشيمٍ ذَرَتْه رياحُ العواصف، ورَسْمٍ علىٰ صفحة نهرٍ جارٍ، وغثاءٍ حمله سيلٌ جارف.

الصنف الأوّل نادر الوجود ...عليهم نتّكئ في المسِير، وبِهم نلتمس الدفء، وإليهم نغذّ المسير، وفيهم نرىٰ صورة القمر ليلة التمام والعروس ليلة الزفاف؛ وذلك لأنهم برحوا طوْر الأشخاص إلىٰ طوْر الأفكار وارتقوا من هيئة المادّة إلىٰ هيئة الطاقة وخرجوا من طبيعة الفيزياء إلىٰ طبيعة الكيمياء، ومنهم نَستحضِر الإمام الشافعي الذي نشأ يتيما ولم يُعمَّر سوىٰ خمسين عاما، ومع هذا كان مجدِّدا للمئة الثانية ومازال كالشمس

للدنيا والعافية للناس كما وصفه تلميذه الإمام أحمد بن حنبل، ونَستعيد ذكْرىٰ علي بن عبد الله بن عباس الذي لُقِّب بالسَّجَّاد لأنه غرس خمسمائة شجرة زيتون في ضيْعته و حرص علىٰ تعفير وجهه بالسجود تحتها كلِّها، كما نتذكّر الإمام النووي الذي عاش نيفا وأربعين، ولكنه اعْتصر الزمن وجعل مِن التحصيل تصنيفا ومِن التصنيف تحصيلا، حتىٰ خلَّف وراءه عِلما ينوأ بإنتاجه العُصبة أولي العِلم والعُمر، وبذلك دخل في عِداد مَن عناهم الشّاعر القائل:

كُـــــنْ للعلـــــوم مُـــــصنِّفا أو جامِعـــــا
يَبقـــىٰ لـــك الـــذِّكرُ الجميـــلُ مُخلِّـــدا
يَنـــــسىٰ أواخرُنـــــا الأوائـــــلَ كلّهـــــم
إلّا أخـــا العِلْـــم الـــذي جـــاز المـــدىٰ

أمّا الصنف الثاني؛ فما أكثرهم ...الهوىٰ سيّدهم، والدنيا همّهم، والأمل خادعهم، و الأنا مرفأهم، والخيبة والحسرة والندامة جزاؤهم، وفيهم بُحّ صوتُ أحمد شوقي حين نصحهم قائلا:

فارفع لنفسِك بعد موتك ذكرها فالذّكر للإنسان عُمرٌ ثاني ششش

بينما وصفهم ابن عطاء الله السكندري في حكمته التاسعة والخمسين بعد المائتين فقال: "رُبَّ عُمْرٍ اتّسعَتْ آمادُه وقلَّت أمدادُه".

ومنذ بدْء الخلْق؛ تقرَّر في عِلم الله الأزلي، أنّ الخلودَ بمعنىٰ أبديّة الحياة الدنيا واندثار الموْت هو حُلْم المستحيل ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۝٣٤﴾[1]؛ وهو ما غَوىٰ به إبليسُ أبانا آدم ومَنّاه به إنْ أطاعه وأكَل مِن الشجرة المُحَرّمة، فكانت النتيجة طردًا لآدم ولعنًا لإبليس، أَضِف إلىٰ ذلك أنَّ الإنسان بخلقته غيْر مهيّأ للخلود، ولو أمكنه ذلك -علىٰ سبيل الفرضية لا غير- لكان هذا الجسدُ الضعيف هو أوّل مَن يعترض ويَصرخ طالبا الراحة بالموت، وهو ما نراه يوميا حين يكلّ الجسم وتَنهدّ قواه فيخرّ في فراشه مُستسلِما للموت المؤقَّت الذي نسميه نوما...علىٰ أنّ هذا الطرح الذي يُعضّده الشرعُ والعقل لم يحذف ذلك الحُلم، بل ظلّ حاضرا في مُخيِّلة بني آدم[2]لارتباطه بغريزة حبّ البقاء ومُلازمته لها، فكان أنْ سعَىٰ لإشباعه بوسائل شتّىٰ تَفاوتَت في الشكل وتَوافقَت في الغرَض؛ فذَوو الحظوة والنفوذ يُخلّدون ذكراهم بنحت التماثيل وإطلاق

---

(1) الأنبياء 34.

(2) يقول الشاعر إيليا أبو ماضي في قصيدة بعنوان (الخلود):

"نَعشق البُقْيا لأنّا زائلون والأماني حَيّةٌ في كلِّ حَيّ".

أسمائهم علىٰ الشوارع والميادين، وذوو الثراء يَجِدُّون في بناء الملاجئ والمدارس والمستشفيات، وأصحاب القرائح يُؤلّفون الكُتب والمراجع، وأهل الحُبِّ يتناكحون وبالأولاد يَتناسلون، بينما يكتفي الفقراء بوضْع صورة فوتوغرافيّة مُكَبَّرة ضمن إطار يُعلِّقونه علىٰ حائطهم المُهترئ. ومثْل ذلك ينطبق علىٰ قصائد الرثاء وحفلات التأبين، وينسحب أيضا علىٰ طقوس الموت التي مارسها ملوك الفراعنة وسخر منها (أميل لدفج) في كتابه (علىٰ شواطئ البحر الأبيض) قائلا: "لا أشعر بشيء من الإجلال في مدافن الفراعنة، ولا أستطيع إلّا أن أضحك زاريا من عقل ذلك المَلِك الذي يُخيَّل إليه في حياته أنه قادر علىٰ أن يخدع الموت بما يتأهّب به من الأهبة النيرونية في ضريحه، فمَن كان علىٰ خبرة بأمر الموت؛ لا يَسعه إلّا أن يشيح بعِطفه عن تلك العقيدة التي سوّلت لأصحابها أن يَطمعوا بتحنيط أجسادهم في وراثة الخلود".

والحقيقة أنَّ الخلودَ بمعنىٰ استمرار وجودنا العمَليّ بعد فناء الجسد والرحيل مِن بوابة الدنيا، هو حُلم مُباح ومُتاح ومُيسَّر لمَن أراد ووُفِّق، خاصة بعدما تمّ تنقية ذلك الحُلم مِن الهرْطقات الوثنيّة والشوائب الفلسفيّة، وبعد استقامته علىٰ الفهم الإسلامي الصحيح الذي علَّمَنا أنّ الموتَ نقلةٌ مِن حياةٍ عاجِلةٍ فانية إلىٰ حياةٍ آجِلة خالدة، فلم يُصبح أشياءً

نُخلِّفها وراءنا، ولا مجرّد سيرة يَتناقلها النّاسُ بعد زوالنا، ولكنّه بات بصماتٍ نَضمن بها البقاء، وآثارا نحفرها عميقة في جبين الزمَن؛ لتَدلّ علينا، وتَتبعنا حيث كنّا، ولا يَنقطع بها وصْلُنا إلّا مع البعْث والنشور والحساب والميزان والصراط، واتْلُ في ذلك قول الحقّ سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾[1]، ثمّ اقْرأ تفسير الشيخ السعدي في كتابه (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان) حين قال: "أَيْ: نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم علىٰ الأعمال، ونكتب ما قدَّموا مِن الخيْر والشرّ وهي أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم، ونكتب آثارَهم وهي آثار الخيْر والشرّ التي كانوا هم السبب في إيجادها في حالِ حياتهم وبعد مماتهم"، ولا غضاضة أيضا في الأخْذ بما قاله المؤرِّخ الألماني فرديك شيلر: "مَن يبذل قصارَىٰ جهده لاستغلال وقته وإمكاناته في زمنه؛ سيبقىٰ خالدا في أذهان الجميع علىٰ مرّ الأزمان والعصور".

وهنا، ومِن ميراث الحكمة الفيّاض، نقطف قولَهم: "اثنان لا تدْعهما؛ زرْع الشجَر وترْك الأثر"، والواقع أنَّ زرع الشجَر[2] المَقرون بالنيّة هو مِن

(1) يس 12.

(2) ينقسم النبات إلى شجر ونجم، فالشجر كلّ ماله ساق، بينما النّجم هو كلّ نبْت ليس له ساق صلب مرتفع كالحشائش البرِّية ونحوها.

قَبِيل ترْك أثَرٍ وأيّما أثَر؛ فالشجرة التي استوىٰ عودُها وورف ظلُّها وأيْنع ثمرُها، بعد أن كانت بذرة مطمورة في حفنة تراب ثمّ أَنعشَها النسيمُ وروَىٰ ظمأَها الماء، باتت استراحةَ المسافِر ومأوىٰ الغريب وظلّ الكادح، وأضْحت عشّ الطائر وكلأ الحيوان ومَطعم الجائع، وصارت جمالا للكون وصِحّة للأبدان وبهجة للأنظار، بل وربّما أَعملَ فيها الصانعُ يدَه فشكَّل منها بابا لمسجد أو مقعدا لعالِم أو سواكا لعابِد، وفي ذلك خلود لغارسِها أيّما خلود، حتىٰ لو تَحلّل بدنُه واهترأَت عظامُه والْتهم الدُّودُ أحشاءَه، وذلك علىٰ رأي المفكِّر الطبيب "مصطفىٰ محمود" الذي ربط الخلود بالعطاء فقال: "نصيبنا مِن الخلود هو ما نُضيفه إلىٰ وعاء الكُلّ، أمّا شخوصنا وأفرادنا فمصيرها إلىٰ العدم".

وبهذا يُمكننا القول أنّ العُمْر عُمران؛ عُمر مجازيّ مسطور في البطاقة الشخصية؛ يَبدأ بلحظة الميلاد ويَنتهي بخروج الروح حين الوفاة، وعُمْر فِعليّ مَسطور في صحائف الأعمال؛ يُولَد مع سنّ التكليف ويَدوم حتىٰ قيام السّاعة، وفي الوقت الذي يَكفيك نظرة علىٰ روزنامة الحائط أو ساعة اليد لتدرك أبعاد العُمر المجازي وتَسبر أغوارَه، فإنّ العمرَ الفعليّ لا يَعلم مداه إلّا علّام الغيوب، ولا تَنكشف لنا حجُبه وتُفَضّ أختامُه إلّا علىٰ بِساط يوم الدِّين. وفي حين نقف عاجزين مكتوفي الأيدي عن زيادة العُمر المجازي ولو لثانية واحدة ، فبإمكاننا الزيادة في العُمر الفعلي دون أمَد يَحدّنا، أو عقارب ساعة تُطاردنا، أو ملَك موت يَقبضنا ويَستلّ روحَنا.

كما يمكننا القول أيضا، بأنّ لكلِّ فقْد قِيمَتَيْن لا قيمة واحدة؛ قيمة ماديّة يمكن حصْرها حسابيا وحِسِّيا، وقيمة معنوية لا حسيّة ولا حسابيّة، وكلّما زادت القيمة المعنوية للمفقود كان الفقْد أفدح وأصعب وكانت الخسارة أَنْكىٰ وأشدّ، لأنّ كلّ ماديّ يمكن أن يُعوَّض أو يُستبدَل، بينما يَبقىٰ المعنوي غصّة في الحلق لا دواء لها ووخْزة في القلب لا شفاء منها. والحقيقة أنّ القيمة المعنوية لا تَكبر إلّا في فئام النّاس الذين أخذوا مِن الحياة أقلّ ممّا منحوها، وزرعوا فيها أكثر ممّا جنوا منها، بخلاف غيرهم الذين أَخذوا قدْر أو أكثر ما أَعطوا، وفي هذا تجسيد للعدل الإلهي؛ فما يَضيع عند الناس لا يَضيع عند الله، وما يَنساه البشَر لا يَغفل عنه ربُّ البشَر.

وقد لخَّص أبو الحسن (علي بن أبي طالب) رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ رحلةَ الخلود الإنساني عبْر مراحلها المتعدِّدة فقال:

"إنّما خُلِقتم للأبد ومِن دارٍ إلى دار تَنتقلون؛ مِن الأَصلاب إلى الأرحام، ومِن الأرحام إلى الدنيا، ومِن الدنيا إلى البرزخ، ومِن البرزخ إلى الجنّة أو النّار".

5- موْكِبُ النّور

حينما نودِّع السّويْعات الأخيرة من شهر ذي الحجّة كلّ عام، ويَلوح في الأفق هلالُ شهر الله المحرَّم[1]؛ يَحين موعد حديث الهجرة كرواية تُروَىٰ، وقصّة تُحكَىٰ، وتاريخ يُلاك! ولا نذهب أبعد من عقد النّدواتُ، وإقامة الحلقاتُ، ومصْمصة الشفاهَ، وطأطأة الرؤوسَ..وما هكذا تُورَد الهجرة!

والهجرة: من الهجْر بمعنىٰ الترْك، وفيها ينتقل المرء من أرض إلىٰ أخرىٰ، وتختصّ هنا بانتقال نبيّ الهدىٰ والرحمة من مكّة مهبط الوحي إلىٰ المدينة مأوىٰ الأنصار، ويعود زمنها إلىٰ مطلع القرن السابع الميلادي (13 سبتمبر 622م الموافق غرّة شهر ربيع الأوّل آنذاك)؛ حين كشّرَت

---

(1) يقول الشاعر وحيد الدهشان:

"لله في أيـــامِنـــا نفحـــات عِبَر تنير دروبَنـــا وعظـات
شهرُ المُحرَّم حين يقبل نحونا تنساب من أعماقنا الزفرَات"

قريش عن أنياب كفرها وأَبانت عن مخالب غدرها، لا سيّما بعدما نما إلىٰ سمعها خبر بيعة أهل المدينة ونيّة النبيّ في اللحاق بهم، فرسمَت خطّتها في دار الندوة[1] عاقدةً العزم علىٰ استهداف رأس الدعوة والقضاء المبرَم علىٰ رسالته! غافلين عن معيّة الله الحاضرة ونصْرته المتحقِّقة. ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

وكان صلىٰ الله عليه وسلم قد أَمضىٰ بين ظَهرانيهم ثلاثة عشر عاما بعد الوحي والرسالة، تَذرَّع خلالها بالصبر الجميل، وارتدىٰ لهم ثوب الخُلق العظيم؛ فكانوا يَقطعون ويَصل، ويَمنعون ويُعطي، ويُغلِظون ويَلين، ويَجهلون فيَحلم! ولكنه لمّا رأىٰ أنّ هؤلاء القوم تُودِّع منهم، وناداه جبريل حيّ علىٰ الرحيل؛ غادر أَحبَّ البقاع وأقدسَها، وخلَّف مسقط الرأس وديار الأهل ومهْد الصِّبا، وقطع علىٰ راحلته المُسمّاة الجدعاء أو القصواء نحو أربعمائة ميل في طريق وعرة مُوحِشة غير لاحبة ولا مطروقة، قاصدًا دار هجرة كانت سبخة ذات نخل بين لابتيْن، وديارا

(1) دار الندوة كانت دارا لقصيّ بن كلاب تقع في الجانب الشمالي من الكعبة المشرَّفة، ودأب عظماءُ قريش على الاجتماع فيها لمناقشة عظائم الأمور واتخاذ ما يلزم من قرارات، وهي أشبه ما تكون ببرلمانات اليوم، وقد صارت الآن جزءا من المسجد الحرام!

عامرة مدّ أهلُها يد البيعة وعاهدوا علىٰ الفداء والنّصرة؛ وذلك ليؤسِّس للإسلام دولة ترفع لواء الحقّ في ربوع المعمورة، ويُشيِّد للإنسانية مجتمَعا يُقرّ بحريّة الاعتقاد. إذْ قضَت سُنّة الإصلاح علىٰ مرّ الزمان، أنّه لا بدّ للحقّ -أي حقّ- مِن تربة خصبة يَنمو بها ويُثمر، ولا مناص له من قلعة حصينة يأرز إليها وينطلق منها. وقد رافقَه صنو روحه أبو بكر[1] الصدِّيقُ ليضرب -مع آله الكرام- أروع مثال في الصُّحبة، ولحِقهم الفاروقُ مُتحدِّيا جهابذة الكفّار في وضَح النهار، وتبِعهم الصحابةُ والتابعون ومَن سار علىٰ هديهم، مهاجرين في سبيل عقيدةٍ كالجبال راسخة، وإيمانٍ كغابةَ سِنْديان لا تهزمه عواصفُ الأفكار ولا قواصمُ الأطروحات، وبات المهاجرون بموجبها أفضلَ مِن الأنصار لأنهم حازوا الحُسْنَيَيْن حين جمعوا بين الهِجرة والنُّصرة.

ومِن الوفاء لتلك الحادثة الجليلة، التي صارت إحدىٰ المحطّات الحاسمة في تاريخ الإسلام، بعد أنّ دشّنها المسلمون بداية[2] لتاريخهم

(1) ومعهم عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه، ودليلهما الحاذق عبد الله بن أريقط.

(2) تَروِي كتبُ السيرة أنه في العام السادس عشر للهجرة وبعد عاميْن مِن خلافة عمر -رضي الله عنه-، بعث أبو موسى الأشعري إلى خليفة المسلمين عمر يقول: "يأتينا منك كتب ليس لها تاريخ"، فتشاور المسلمون، واتفقوا على اختيار الهجرة مبتدأ لتاريخهم، لأنها فرَّقت بين الحقّ والباطل على حدّ تعبير الفاروق عمر.

وعنوانا لدواوينهم؛ أن لا نجعلها حديثا موسميّا نستدعِي فيها التاريخَ مُجرَّدًا مِن العبَر والعظات، بل وجَب أن يَتطامن أمامها الزمنُ وتُصبح حديث الساعة وكلّ ساعة؛ فتَستشْرف فيها النّفسُ شجاعة علي بن أبي طالب حين فدَىٰ الدعوة بحياته وموّه علىٰ المتآمرين برقوده في فراش نبيِّه وابن عمِّه، وتَستلهِم فيها الرّوحُ تضحية أبي سلَمة الذي قدّم الدِّين علىٰ الزوجة والولد حين منعه أهلُ زوجته مِن اصطحابهما معه في محاولة بائسة فاشلة لثنْيه عن الهجرة، وتستدعِي فيها الذاكرةُ بيْعًا رابحًا لصهيب الرُّومي حين ساومه كفّارُ مكّة فابْتاع الهجرةَ والدِّينَ وباع الدّيار والمال، ثمّ يَستحضِر فيها القلبُ ثَباتَ ذات النطاقيْن التي أبَتْ أن تُخبر أبا جهل عن مكان أبيها حين لطمها لطمة وقع منها قرطُها، ويفغر الأملُ فاه مِن الوعد النبويّ الجازم لسُراقة بن مالك الذي سال لعابه وتحلَّب ريقه للظفر بمائة ناقة رصدتها قريش لملاحقة النبيّ والعودة به، فوعده صلىٰ الله عليه وسلّم بسوارَيْ كِسرىٰ والذي تحقَّق كفلق الصبح في غضون ستة عشر عاما! كما أنها درسٌ فصيحٌ بليغ نتعلّم منه الأخذ بالأسباب والاستعانة علىٰ الأمور بالكتمان والإعداد علىٰ خير ما يُرام، ووقْفةٌ يَفقه فيها العقل أنَّ الهجرة لم تكن أبدا انسحابا وهروبا مِن الميدان، أو سلبيّة وانعزاليّة عن المواجهة؛ بل كانت ثباتا وإيجابيّة، وجهادا في أعلىٰ صوَره وأبهىٰ مقاماته.

وبهذا المنْحىٰ، تُعدّ الهجرة بمثابة الانعطافة الكبرىٰ والنقطة الحرجة، التي أوْقدَت شرارة ثورةٍ عبرت مِن مرحلة الدعوة إلىٰ مرحلة الدولة، ومِن الضِّيق إلىٰ السّعة، ومِن السّكون إلىٰ الحركة، ومِن العُقْم إلىٰ الخِصب، ومن المهادنة إلىٰ المجابهة، ومن التبعية والتقليد إلىٰ الابتكار والتجديد. فتمخّضت عنها وثيقة المدينة التي أسّسَت للتعايُش مع أهل الكتاب علىٰ قاعدة "لا ضَرر ولا ضِرار"، والسّوق الذي حرّم اقتصاد البغْي والاحتكار، والمسجد الذي أصبح مجلسا للشورىٰ ودارا للفتيا ومحكمة للتقاضِي وساحة لتجهيز الجيوش، والمؤاخاة التي لم يَشهد لها التاريخ مثالا؛ فكانت بذلك موكبَ نور أضاء المكانَ والزمانَ، وشمسَ هداية أضاءت التاريخَ والجغرافيا، وملحمة بطولية لا تنقضي دروسها مع كرّ الأيّام والأعوام.

ومع أنّ فعل الهجرةَ ظلّ قدَرا مكتوبا علىٰ الأنبياء والرّسُل مِن قبل، ونهجا للكثْرة الغالبة مِن المفكِّرين والمصلِحين مِن بعد؛ إلّا أنَّ هذه الهجرة المحمَّدية كانت ذات آثار جليلة خالدة لا تُدانيها هجرةٌ قبلها ولا بعدها، حتىٰ سمَّاها اللهُ في كتابه العزيز نصرا، فقال جلّ شأنه: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا

فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ﴿٤٠﴾[1]. وهي الآية التي ذكر فضيلة الإمام الشعراوي أن كلّ (إذ) هي نصر قائم بذاته؛ فالإخراج نصر، والاختفاء نصر، والثبات نصر.

وقد رسم أديبُ العربية (الرافعي) بقلمه السيّال صورة مركّزة للهجرة وأثرها فقال: "مع الهجرة وانتقال الرسول إلىٰ المدينة؛ بدأت الدنيا تتقلقل كأنّما مرّ بقدمه علىٰ مركزها فحرَّكها، وكانت خطواته في هجرته تحطّ في الأرض ومعانيها تخطّ في التاريخ، وكانت المسافة بين مكة والمدينة ومعناها بين المشرق والمغرب". بينما كتب الأديب عبد الرحمن شكري: "في الهجرة النبوية رمز ذو معنيين: معنىٰ فيما ينبغي أن نتجنّبه من مشابهة المشركين في اضطهاد الحقّ، ومعنىٰ فيما ينبغي أن نتخلّق به من الائتمام بالنبيّ صلىٰ الله عليه وسلّم في إبائه مزايلة الحق وصونه".بما يعني أنّ الهجرة في مفهومها الشامل، أوْسع مِن كونها ترحالا عبر مكان يَحدّه زمان؛ بل تَغيُّر مِن حال إلىٰ حال، وانتقال مِن مقام إلىٰ مقام..وكأنّ كلّ طلاق للباطل وعناق للحقّ هجرة، وكلّ ولاء لله وبراءة ممّا سواه هجرة، وكلّ هَجْر لما نهىٰ اللهُ عنه هجرة.

---

(1) التوبة 40.

والحقّ أنّ نظرةً إلىٰ واقعنا المرير، تُنبؤنا أنّ الهجرة بمعنىٰ الانخلاع مِن كلّ العادات والتصوّرات غيْر الإسلامية، هي واجب الوقت وطريق الخلاص..

فكم مِن حاكمٍ ظالم وجَب أن يهاجر؟
وكم مِن مسئولٍ فاسد حان أن يهاجر؟
وكم مِن عبدٍ آبق مارق آن أن يهاجر؟
وكم مِن أمّةٍ خيّم عليها الجهل والكسل حُقّ لها أن تهاجر؟

نعَم، في الهجرة المكانيّة فقدانٌ لمراتع الصِّبا وذكريات الطفولة، وفراقٌ للخلّان والأصدقاء، وبُعْدٌ عن المال والدّيار، واستبدالُ مجهولٍ بمعلوم وخوفٍ بأمْن واضطرابٍ بسكينة وتشرّدٍ باستقرار، وهو ما عبّر عنه جالينوس حين قال بأنَّ العليلَ يَتروّح بنسيم وطنه كما تتروّح الأرضُ الجدبة ببلل المطر، وطبَّقه البرامكةُ حدّ المغالاة حين دأبوا علىٰ حمل حفنة مِن تراب الوطن في جراب أسفارهم بغرض التداوي! ولكن حين يُصبح الخيار بين دينٍ ودنيا، فالأمْر محسومٌ والكسْب مضمون والهجرة واجب لا نفل فيه، وعلىٰ هذا كان حال الإمام البُخارِيّ حين أَخرجَه أميرُ

بُخَارَىٰ[1] منها قسْرا فقال: "لا أُبالِي إذا سَلِم ديني". بمعنىٰ أنّ الوطنَ غالٍ ولكنّ الدِّينَ أغلىٰ، والمكان الذي يقف حجر عثرة أمام تحقيق آمالنا وطموحاتنا لا يستحقّ أكثر من دمعة تُراق علىٰ فراقه، وهذا ما صاغه الإمام ابن عربي صياغة بديعة بقوله: "المكان الذي لا يُؤنَّث لا يُعوَّل عليه"، أي المكان الذي لا يضعك في المكانة اللائقة بك لا يُركَن له ولا يُنتَحب عليه..

فهذه الحدود الجغرافيّة المُصطَنعة التي لم يَعرفها العالَم القديم، وما ورَدَتْ في كتاب سماويّ ولا ضمن شريعة نبيّ؛ تَشكَّلتْ إثر حروب سعَّرها الاحتلال البغيض، فنهَش فيها القويُّ الضعيف، وأَعطىٰ بموجبها مَن لا يملِك لمَن لا يَستحقّ، لا لشيء إلّا لتَسجِننا وراء قضبان الوطن وأغلال القوميّة وأصفاد الجِنسيّة. وهي ما وصفها أحد طلائع النازيّة (راتزل)، بأنها أشبه بجلد الكائن العضوي والذي يجب أن يتمدّد باستمرار مع نموّه!

وفي خضمّ معاني الهجرة العديدة، تذوب تلك الحدود وتنصهر تلك القيود والأصفاد؛ فيَذهب الوطن إلىٰ أبْعد مِن محلّ المولْد والإقامة،

(1) عاصمة الدولة السامانية، ومسقط رأس البخارِي وابن سينا، والمعروفة اليوم بأوزبكستان.

وتتجاوز المشاعرُ الوطنيّة أولئك الذين يُساكنوننا الوطن، ويَتقدّم الدِّينُ علىٰ الهويّة والقوميّة والجِنسيَّة، ويُصبح الأهمّ كيْف تعيش لا أيْن تعيش؛ فما شفَع بيتُ النّبوة لابن نبيّ الله نوح، وما ساء نبيَّ الله موسىٰ عيْشُه في كنفِ فرعون..

وفي هذا يقول المصطفىٰ ﷺ: "البلادُ بلادُ الله، والعبادُ عباد الله، فحيثما أَصَبْتَ خيرًا فأَقِمْ"، ويُفسّره قولُ المفكِّر عبد الكريم بكار: "إنّ زمانَنا هو زمان الإنسان المرتحِل والقادر علىٰ تحمّل آلام مغادرة مسقط رأسه، لِيجول في أرض الله -عزّ وجلّ- باحثا عن المكان الأكثر ملاءمة لإنتاجه وعطائه". بينما يُؤكِّد عليه أبو نُواس فيقول:

إذا كنـــــتَ في أرضٍ عزيـــــزًا وإنْ نَـــــأَتْ
فـــلا تُكْثِـــرنَّ منهـــا تِراعًـــا إلـــىٰ الـــوطنْ
ومـــــا هـــــي إلّا بَلْـــــدةٌ مثـــــلُ بَلْـــــدةٍ
وخيْرُهُمـــا مـــا كـــان عوْنًـــا علـــىٰ الـــزّمَنْ

(6) الفضيلة الغائبة

يا طِيب عيْش مَن يُحِبّ، و يا أُنْس قلْب مَن يُحِبّ ويُحَبّ، ويا يُمْن سعْد مَن يَحلّ ضيفا علىٰ مائدة الحبّ الإلهي فيَضمن بها محبّة الخلْق أجمعين...تلك المائدة العظيمة، التي استضاف فيها القرآنُ الكريم أصنافا مِن المؤمنين نعموا بحُبّ الله لهم، فجلس في صدْرها المُقسِطون الذين عرّفهم الطبري في تفسيره بأنهم "العادلون في أحكامهم والقاضون بين الخلْق بالقِسط"، بينما احتلّ ميْمنتَها الصابرون والمتّقون والمتوكِّلون والمجاهدون، وجاء في ميْسرتها التوّابون والمُتطهِّرون، وكذلك المُطَّهِرون الذين يتطهَّرون بدنيا ونفسيا وماليا وأخلاقيا. ثمّ كان المحسنون درّة تاج المائدة، ولَبِنة زاويتها؛ حيث تَأكَّد حُبُّهم وتَكرَّر في غيْر موضِع قرآني "إنّ الله يحبّ المُحسنين"، وكانوا في معيّة الله "وإنَّ الله لَمَع المُحسنين"، وقريبِين مِن رحمته "إنَّ رحمت الله قريبٌ من المحسنين"، ومَوْعودِين ببركة منه وزيادة "وسنزيد المحسنين". ولهذا جاء الأمْر

بالإحسان جازما "وأَحْسِنوا"، وكان النُّصح به واجبا "وأَحْسِن كما أحسَن الله إليك".

وإذا ذُكِر لفظ الإحسان، ذُكِر سِبطا رسول الله وريْحانتاه (الحَسَن والحُسَيْن)[1]، وذُكِرت الحسَنةُ[2] نقيض السيِّئة وهما عُملتا التداول يوم الحشْر، وذُكِرت الحُسْنىٰ وهي العاقِبة الحسَنة أي الجنّة دار السّلام، وذُكِر الحُسْنيَان وهما النّصر والشَّهادة، كما ذُكر الحُسْن بمعنىٰ الجمال الذي هو عيْن ماء الحياة..

والإحسان في اللغة ضدّ[3]الإساءة، وهو مصدر خُماسي مِن الفعل أَحْسن، ويَعني الإجادة والإتقان والإخلاص، وتتّسع دائرتُه لتشمل الأعمال الدنيويّة والدينيّة؛ فتضمّ العقيدة، والأخلاق، والعبادات،

---

(1) حُسيْن تصغير حسَن، وبالفعل يَصغر سيدُنا الحسين أخاه الحسَن-رضي الله عنهما-بعام، حيث وُلد في العام الرابع الهجري بينما سبقه مولد الحسن في العام الثالث، أما السِّبط فهو ابن الابن أو الابنة.

(2) عن الحسَنة وأثرها يقول ابن عباس-رضي الله عنه-: "للحسنة ضياء في الوجه، ونور في القلب، وسعة في الرزق، وقوّة في البدن، ومحبّة في قلوب الخلْق".

(3) يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: للإحسان ضدّان؛ الإساءة وهي أعظم جرما، وترك الإحسان بدون إساءة وهذا محرَّم لكن لا يجب ان يُلحق بالأول.

والمعاملات. وهو في العبادات أَحسَن الدِّين "ومَن أحْسن دينا مِمَّن أَسلمَ وجهَه لله وهو مُحسِن"، وأعْلىٰ المراتب بعد الإسلامِ الذي يُجسِّد أعمالَ الجوارح الظاهِرة، وفوق الإيمانِ الذي يُمثِّل أعمالَ القلوب الباطنة، وسمّاه الوليّ (أبو العبّاس المرسي) بالتحقُّق؛ علىٰ اعتبار أنّ الإسلام في قاموسه العرفاني هو الشريعة، بينما الإيمان هو الحقيقة. وبهذا، فالمحسِن جدير بالانتماء إلىٰ فئة السابِقين المُقرَّبين؛ بعدما عشق الشرْع فجوَّد وأَتقن الإسلامَ والإيمانَ معا، وبعدما وُلَد من جديد فصنع لنفسه عالَما أرقىٰ وأنقىٰ، علىٰ اعتبار أنَّ ولادةً واحدةً لا تكفي العالِين من الناس.

وبالإحسان نعبد اللهَ كأننا نراه أو كأنّه-سبحانه- يرانا، وذلك حسبما ورد في حديث شريف صنّف الإحسانَ إلىٰ درجتيْن: الدرجة الأولىٰ وهي المُشاهَدة؛ وفيها تعبد الله كأنك تراه، وهي الأسمىٰ والأعلىٰ، وتكون الرؤية قلبيّة وذهنيّة لا عيْنيّة، وبها تصل إلىٰ مقام العارِفين. وفيها يَروِي الإمام ابن تيمية أنَّ عروة ابن الزبير طلب من سيدنا عبد الله بن عمر أن يزوّجه ابنتَه أثناء طوافهما بالكعبة، فلم يردّ عليه ابن عمر حتىٰ انتهيا من الطواف، ثمّ قال له معلِّلا عدم ردّه :"كنا نطوف ونحن نتخايل اللهَ بين أعيننا".

أمّا الدرجة الثانية فهي: درجة المُراقَبة؛ وفيها تعبد الله وأنت تعلم وتشعر بأنه يراك، وهي مقام المخلِصين، وبموجبها رفضت البنتُ[1] مطْلب أمّها بأن تغشّ اللبن بالماء، طالما أنّ أمير المؤمنين عمر لا يَراهما، فقالت: إذا كان عمر لا يرانا فربّ عمر يرانا. وكذلك كانت قصة الراعي الذي اختبَر سيدُنا عمر بن الخطاب أمانتَه وإخلاصه، وفاتحه في أن يبيع لهم إحدىٰ شياه يرعاها، مادام أنه في قلب الصحراء بعيد عن عين سيّده؛ فما كان مِن الراعي إلَّا أن أجاب مُستنكِرا ورافِضا: وأين الله!

وفي كِلْتا الدرجتيْن -أي المشاهدة والمراقبة- يتجلّىٰ الخشوع الذي يستدعي الظاهرَ والباطن معًا، ويُثمر تمامَ العبادة وكمالها، ويَستوي فيه السرُّ والجهر، وتتطابق الخلوةُ مع الجلوة، وتكون الاستقامة علىٰ أقوم نهْجٍ وأصْلح طريق. إلّا أنّ الوصول لتلك المرتبة يتطلّب جهدًا ومثابرة، ويستلزم استعانةً وتَوكُّلا، وعندها ثِقْ بأنّ مَن أدام الطرْق فُتح له الباب، ومَن جدّ في السعي وصل ولو بعد عناء، ومَن زرع الحَبّ لا شكّ يَجني البُرّ...فالكمالات كلّها -علىٰ حدّ تعبير ابن القيّم في كتابه (دار السعادة)- لا تُنال إلّا بحظٍّ مِن المشقَّة، ولا يُعبَر إليها إلّا علىٰ جسرٍ مِن التعب.

---

(1) هي (أم عمارة بنت سفيان)، والتي زوَّجها عمرُ بن الخطاب لابنه عاصم، فولدت له أمّ عاصم، التي تزوَّجها عبد العزيز بن مروان فأنجبَت الخليفة عمر بن عبد العزيز.

أمَّا في المعاملات؛ فيتعدّىٰ الإحسانُ الجُودَ بالدرهم علىٰ فقيرٍ جائع أو التصدُّق بالدينار علىٰ مسكينٍ بائس، كما هو شائع ومعروف بين الناس؛ ففي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر إحسان، وفي قضاء حوائج الناس وتفريج كُرَبهم إحسان، وفي تعليم العِلم النافع إحسان، وفي تشييع الجنائز وعيادة المرضىٰ إحسان، وفي إرشاد الضالّ والشفاعة بالجاه لِردّ الحقوق إحسان، وفي الكلمة الطيِّبة والبسمة الرقيقة إحسان، وفي حُسن تبعُّل المرأة لزوجها وتنشئة أطفالها إحسان، وقِس علىٰ ذلك كلّ كبيرة وصغيرة في جراب الحياة، واقرأ في ذلك ما ورد بحديث شريف رواه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي يَعلىٰ شداد بن أوس عن رسول الله ﷺ قال: "إنَّ الله كتب الإحسانَ علىٰ كلِّ شيء، فإذا قتلْتم فأحسِنوا القِتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبحة، ولْيُحِدّ أحدكم شفرَته، ولْيُرِحْ ذبيحتَه"، والقتل والذبح هنا ليسا سوىٰ مِثاليْن للتقريب والإفهام، وهما مِن قَبِيل الجُزء الذي يُراد به الكلّ.

ولأنّ أجملَ الإحسان ما حلَّ محلَّه وأصاب موضعَه؛ فقد لزم التنويه بأنَّ مجال الإحسان لا يَقتصر علىٰ مَن أَحسن إلينا صنْعا وأَسدىٰ إلينا معروفا، بل هو أجْمل في حقّ مَن أساء إلينا وأخطأ في حقِّنا؛ بناء علىٰ القاعدة القرآنية "ادْفع بالتي هي أحْسن". علاوة علىٰ أنّ الإحسان يكون

للقريب والبعيد؛ كما ورد في آية الحقوق العَشرة في سورة النّساء "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربىٰ واليتامىٰ والمساكين والجار ذي القربىٰ والجار الجنُب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم"، هذا دون هضم أنفسنا وذواتنا حقَّها الأصيل في الإحسان بدنيًّا ونفسيًّا وعقليًّا وروحيّا، لتكتمل بذلك أبعاد الإحسان الثلاثة: المركزيّة (مع النفس)، والعموديّة (مع الله)، والأفقيّة (مع سائر المخلوقات).

وبهذا نجد النّاسَ في تعاملاتهم أصنافًا ثلاثة؛ فمنهم مَن يأخذ حقَّه ويؤدّي واجبه دون زيادةٍ أو نقصان؛ وهذا هو المُقسِط العادِل. ومِنهم مَن يحرص علىٰ أن يأخذ أكثر مِن حقّه، بينما يسعىٰ جاهدًا للانتقاص مِن حقوق الآخَرين؛ وهؤلاء هم المُطفّفون. ومِنهم مَن يُؤدّي فوق ما عليه مِن واجب، بغْية الإحسان والإتقان، ويَقنع بأقلّ مِن حقّه راضيًا مُسامِحا؛ وهذا هو المُحسِن، الذي يُؤسِّس لِمجتمع الخيْر والرخاء، ويُقيم دولةَ البذل والعطاء، ويَشتري الحُبّ ويَخطب الودّ ويَستعبد القلوب علىٰ حدّ تعبير الشاعر أبو الفتح البُستي في قصيدته(عنوان الحِكم) بقوله:

أَحْسِن إلىٰ النّاسِ تستعبد قلوبَهمُ ... لطالما استعبدَ الإنسانَ إحسانُ

والحقيقة أنّ المدوّنة التاريخية لم تخْلُ يوما مِن محسنين أكابر تركوا بصمات مِن إحسانٍ في محيطهم الأسري والاجتماعي والدوليّ والإنساني؛ تارة بالعِلْم والمال، وتارة بالجدّ والجاه، وتارة بالأخلاق والسلوك، وتارة بالروح والدم. ويأتي علىٰ رأس تلك المدوّنة؛ زعيم المُحسنينﷺ الذي قَتل المشركون عمَّه ومثَّلوا به، ثمَّ كسروا أسنانَه وشجُّوا وجهَه الشريف، وإذْ به بعد ذلك كلّه؛ يرفع أكفّ الضراعة، ويَدعو بلسان الإحسان، فيقول "اللهمّ اغْفر لقومي فإنهم لا يعلمون"، فضلا عمَّا أُثر أنّهﷺ كان لا يردّ السائلَ صفر اليديْن، حتىٰ إنّه إذا لم يجد ما يُعطيه، قال له: "ابْتع عَلَيّ، أي اشْترِ حاجتَك وأنا كفيلٌ بالسداد عنك".

ثمّ يأتي سيدُنا يوسف -عليه السلام-؛ حين أنقذَ قوما اسْترَقُّوه وظلموه وسجنوه، وأَحسَن إلىٰ إخوةٍ ساؤوه في بدنه ونفسه وأهله، وعبَّر للسجينيْن رؤياهما إحسانًا منه وتفضُّلا. وسيدُنا أبو بكر الصدّيق-رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-؛ وقتما وضع حياتَه رهينةً في كفّ الصُّحبة النبويّة، واختزن ما يملكه وديعةً في يَمين الإسلام. وسيدُنا الحَسَن بن علي-رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ-؛ عندما حقن الدماء، وأَصلح بين المتخاصِمين، وتَنازل عن حقّه في خلافة المسلِمين. والإمام البخاري -رحمه الله-؛ الذي أخذ علىٰ عاتقه حفظ السنَّة، وتمحيص الحديث، ونخْل الصحيح مِن الضعيف. وكذلك الإمام

عبد الله بن المبارك، الذي ما صحبه أحدٌ من إخوانه في الحجّ، إلّا وتكفّل بالنفقة عليه ذهابًا من مرْو بفارس وإيابًا مِن البلد الحرام، وذلك حسبما ذكر الخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد).

وكذلك كان القائد سيف الدين قطز؛ حين دحَر التتار، وحَمىٰ بيضةَ الإسلام، وأحسن إلىٰ أهل مصر أيَّما إحسان. والخليفة المهدي؛ ابن المنصور، وأبو الرشيد، وثالث خلفاء الدولة العباسية؛ والذي خلَّف أبوه في الخزائن مائة ألف ألف وستين ألف ألف درهم؛ ففرَّقَها في الناس، وكان أكرم الكرماء. وسعيد بن سَلْم؛ الذي كان إذا حان موعدُ مولده كلّ عام، احتفىٰ به علىٰ طريقة المُحسنين الكبار، فأَعتق نسَمة، وتَصدَّق بعشرة آلاف درهم، وكأنَّه يَشكر مولاه علىٰ عَطيَّة عامٍ فائت أو يَشتري نفسَه مِن ربِّه لعامٍ قادِم.

وأخيرا وليس آخِرا؛ يأتي صعصعة بن ناجية، جدّ الفرزدق، والمُلَقَّب بمُحيي الموءودات، إذْ أخذ علىٰ عاتقه العهد، ألّا يَسمع بمَوْءُودة إلّا فداها بحُرِّ ماله، حتىٰ عُدَّ له فداءَ ثلاثمائة أو أربعمائة، وذلك قبل أن تُشرق شمسُ الإسلام ويَفِد علىٰ رسول الله ويُسلِم بين يديه. وكذلك طلحة بن عبيد الله؛ الذي أَثخنتْه الجراحُ يوم أُحُد، وما تركَت موضعًا من

جسده إلّا نالَت منه، ومع هذا يدعو قائلًا: اللهمّ خذ من دمي اليوم حتىٰ ترضىٰ!

ومِن المدوّنة التاريخية إلىٰ موقع التغريد الشهير(تويتر)؛ أَنقل بعض ما سطَّره المُغرِّدون تحت عنوان (محسنون عرفْتهم)، مِن مواقف إحسانيّةٍ راقية، لأُناسٍ عايَشوهم وجها لوجه وشهدوا لهم بفضيلة الإحسان؛ فهذا تاجرٌ مَكِيّ كان دائم الإحسان إلىٰ عُمَّاله، ولمَّا تُوفِّي شيَّعوه ببالغ الأسىٰ والأسف، ثمّ تَوجَّه خمسةٌ وعشرون منهم إلىٰ الحَرَم، واعتمروا تطوُّعا عنه، ليلْقىٰ جزاء إحسانه إحسانات تؤنِس وحشتَه في أوّل ليلة له في قبره! وهذه زوجةٌ؛ علّقَها زوجُها إحدىٰ وعشرين عاما، قبل أن يطلِّقها بمقابل، ولكنّها عند وفاته، حضرَت للتعزية، وأشهدَت الجميعَ أنها قد سامحتْه وعفَت عنه! أمّا مجلة العربي؛ فقد نشرت في العام قبل الفائت، أنه في أواخر القرن التاسع عشر؛ ذهب شاب وعروسُه إلىٰ مطعمٍ صغير في باريس، وبعد تناولهما العشاء اكتشف العريس أنّ حافظة نقوده قد سُرقت، فظنّه النادل محتالًا وأبىٰ إلّا أن يسوقه إلىٰ مدير المطعم، والذي علىٰ خلاف النادل؛ صدّق العريس وأحسن إليه بل وعرض عليه مالًا ليسافر به مع عروسه في طريق العودة، ومرّت الأيام، وإذا بالشاب (فرانز ليهار) يصبح فنانا نمساويا مشهورا، ويؤلّف رواية (الأرملة المرحة)

ويضمّنها أغنية شهيرة عَنْونها باسم المطعم، عساه يردّ الجميل ويقابل الإحسان بإحسان، فذاع صيتُ المطعم واشتهر، ليس في باريس وحدها، بل صار معروفًا عالميا وهو مقهىٰ مكسيم.

والحقّ أنّ صلاحَ البلادِ والعبادِ مُرتبِطٌ بتلك الفضيلة الغائبة (الإحسان)، ومُعلَّقٌ برقابِ أولئك المُحسنين، وبوسْع كلٍّ مِنّا، بل ومِن واجبنا جميعا، أن نتلمّس طريقَنا لنلحق بركب تلك القافلة المبارَكة؛ خِدمةً لأنفسنا وأوطاننا ودِيننا، وطاعةً لله - ذي الفضل والإحسان- الذي خلَقنا في أحْسن تقويم، وصوّرنا أحْسن تصوير... وفي ذلك فلْيتنافس المُتنافِسون.

7- لو سترتَه بثوبِك!

يُعدّ الإمام (المُحَاسَبيّ) المُتوفَّىٰ في القرن الثالث الهجري أحد أكابر الصوفيّة وأعلامها، ونظرةٌ في كتابه (التوهّم) تُغني عن الوصف وتَنوب عن الإسهاب؛ حيث يَتفقَّد فيه الإمام الدّارَ الآخرة مِن البرزخ إلىٰ الصّراط، ومن الجنّة إلىٰ النّار، في رحلة تَخيُّليّة تُزلزِل البدنَ وترقِّق القلبَ وتحرّر النفسَ، فتُشوِّقها للفردوس وتروِّعها مِن الجحيم، وذلك علىٰ أمل التمسّك بأهداب استقامة ألّف فيها ابن تيمية كتابا، وأفْرد لها النوويّ في رياض الصالحين بابا، وعلَّق الشرعُ الحنيف في رقابها النجاةَ والفلاحَ فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾[1].

والتوهُّم هنا لا يَعني الانفصال عن الحقيقة أو الغطّ في غيبوبة، ولا يَدعو إلىٰ الرسمَ علىٰ الماء ومصافحَة الهواء؛ بل هو تقريبٌ للمعنىٰ وتدعيم

(1) فصلت 30.

للفهم وتأكيد للحقيقة، بعدما يُصبح الغيبُ حاضرا والمستور منظورا والمعنوي محسوسا.

وعلىٰ طريقة الإمام في التوهّم، دعونا نتساءل..

ماذا لو صارت سريرتُنا علانيتَنا، وبات ما تَختزنه النفسُ مِن وساوس وما يَعتلج في العقل مِن مكْر وتدبير مَرْأىٰ العين وفي حضرة الحواسّ، حتىٰ لَيصبح للغِلِّ رائحة تُشَمّ، وللشهوة لون يُنْظر، وللنفاق صوت يُسمع، وللكِبْر بوق يُنفخ، وللرِّياء جرَس يُقرع؟!

وماذا لو بِتْنا كجوْرب مقلوب، أو بيت مِن زجاج يُرىٰ باطنُه مِن ظاهرِه؟!

وماذا لو هُدِمت الأسوار وهُتِكت الأسرار ومُزِّقت الستائر؟!

ما لون الحياة إذنْ؟!

وكيف تكون العلاقات بين البشَر؟!

بالتأكيد سيتصافح البشرُ بالسيوف، ويتعانقون بالخناجر، ويتضايفون بأقداح الدّماء. ولا شكّ أنّ الحياةَ عندها، ستفقد معنىٰ الصداقة والثقة والاحترام والحياء والقُدوة، وستؤول الدنيا إلىٰ فضيحة علىٰ رؤوس الأشهاد، ولربَّما ذهبْنا إلىٰ غابة ومَقْتلة؛ الكلّ فيها فاضِح ومفضوح، وقاتِل ومقتول، وقانِص ومقنوص، وساعتها سندرك جيّدا معنىٰ قول أبي العتاهية:

وفي تصنيف غير مخلّ ولا بعيد عن الحقيقة؛ يمكننا وبحسْب صلاح السريرة والعلانية، تصنيف البشَرُ إلىٰ أصناف ثلاثة: فمنهم المُحسِن الذي صلَحت سريرتُه وعلانيتُه، ولكنَّ صلاح السرِّ لديه يفوق صلاح العلَن، بما يعني أنَّ له عبادات سِرّيّة[1] يُواريها عن أعين البشر ويَصونها مِن داء الرياء الفتّاك. ومنهم المُسيء الذي تَوجَّه بقلبه إلىٰ البشَر لا إلىٰ ربّ البشر، فحرص علىٰ زينة علانيته غير مبالٍ بقبح سريرتِه. ومِنهم المُقسِط الذي تحلّىٰ بالصدق، فاستوىٰ ظاهرُه وباطنُه، وتَماثلَت سريرتُه وعلانيتُه، ومدَحه الشاعرُ فقال:

إذا الـــسرُّ والإعـــلانُ في المـــؤمنِ اســـتوىٰ
فقـــد عـــزَّ في الـــدارَيْن واســـتوْجب الثّنـــا
فـــإنْ خـــالفَ الإعـــلانُ سِـــرّا لـــه
فمـــا لـــه علـــىٰ ســـعْيه ســـوىٰ الكـــدّ والعَنـــا

(1) يقول الشيخ عبد العزيز الطريفي: "أعظم أسباب الثبات عبادة السرّ، وأعظم أسباب الانتكاسة ذنوب الخلوات".

وهنا يجدر القول بأنّ البشرُ لو حرصوا علىٰ نقاء السريرة وجمال الباطن وصِدق الطوِيّة؛ لذابت الشرورُ كما يذوب الثلجُ في الهجير، ولَذاقت البشريةُ رغد العيش الوفير، ونعمتْ بأمانٍ مِن الغدر والخداع والزيف والنفاق. ولو بلغ حرصنا علىٰ نظافة أفكارنا مبلغ حرصنا علىٰ نظافة ملابسنا، لَزغرد العالَمُ مِن حولنا، ورقَصت الأجِنَّةُ في أرحام أمّهاتها.

وقد روَت بطونُ الكتُب أنّ كليمَ الله (سيدنا موسىٰ) عليه السلام استسقىٰ ربَّه، فقال له الله: يا موسىٰ إنّ فيكم عاصيا يَمنع نزول القطْر، فنادىٰ موسىٰ فيهم: مَن كان عاصيا فليغادرنا، فتاب الرجلُ لحظتها ولم يغادرْ خوفا مِن افتضاح أمره، وبعد حين نزل المطرُ كأفواه القِرَب، فقال موسىٰ: يا ربّ، مَن هذا الذىٰ كان يعصيك، فقال: عجبتُ لك يا موسىٰ، أسترهُ عاصيا وأفضحهُ تائبا؟! كما رُوِيَ أنَّ الإمام أحمد بن حنبل نزل إلىٰ سوق بغداد، فاشترىٰ حزمةً مِن الحطب وحمَلها علىٰ كتفه، ولما عرفه الناس، أقبل أصحابُ المتاجر والدكاكين والمارّة يُسلِّمون ويُلحُّون في حمْل الحطب عنه، فهزّ يده رافضا واحمرّ وجهه ودمعت عيناه وقال: نحن قوم مساكين ولولا ستر الله لافْتضحْنا.

بالطبع ليس الإمامُ مسكينا كما ذَكر، بل هذا مِن تواضعِه وانكساره لله، ومِن عرفانه بالنعمة حقّ معرفتها، أمّا المسكين الحقيقي فهو ذلك

المنكوب الذي أفسد سريرتَه وجمَّل علانيتَه، ثمّ عاش متمتْرسا بستر الله عليه علىٰ أملٍ واهمٍ في خداع كلّ البشر كلّ الوقت، وذلك في مشهد أشبه باللصوصية خوفا مِن أن يفلتَ لسانُه أو تفضحه عيونُه أو تخونه قسَماتُ وجهه، ناسيا أنَّ للجدران آذان وللملائكة أقلام وعيْن الله لا تغفل ولا تنام، وغافلا عن أنَّ الظُّلمةَ عند الله ضوء والسرَّ عنده علَن وعِلمه سبحانه يَصل إلىٰ السرّ و إلىٰ ما دون السرّ "يَعلَم السرَّ وأخْفىٰ"، ومخطئاحين ظنَّ أنَّ السترَ يَعني الغفران؛ فالسَّتر كما ذكر أبو البقاء الكفوي في كتابه (الكليّات):"السّتر أخصّ مِن الغفران، إذْ يجوز أن يَستر اللهُ ولا يَغفر".

ومعلومٌ أنَّ سَترَ الله مؤقَّتٌ بحدود تلك الحياة الفانية، أمَلا في الأوْبة والتوبة لمَن لانَ له قلبٌ أو ألقىٰ السمعَ وهو شهيد. وبعد انتهاء المُهلة ونصْب الموازين واصطفاف الأنبياء واجتماع الخلائق، يُكشَف الستار ويُنشَر الكتاب.. وساعتها لا مَصير إلّا الجنّة أو النار، ولله درّ ابن القيّم القائل في نونيته الشهيرة:

هـــو الحيِـــيُّ فلـــيس يَفـــضح عبـــدَه
عنـــد التّجـــاهُرِ منـــه بالعـــصيانِ
لـــكنّه يُلـــقِي عليـــه سِـــترَه
فهـــو الـــسِتّير وصـــاحبُ الغفْـــرانِ

وبالعودة إلىٰ العنوان؛ يَجدر القولُ بأنَّ العِلمَ بالله -سبحانه- رأسُ العلوم، ومعرفةَ أسمائِه وصفاتِه مِن لزومِ العبادة وتمامِها، والعيشَ في كنف أسماء الله الحسنىٰ عيْشٌ إيماني هانئ، نلِج مِن خلاله عالَما قدسيا عُلويًّا شفّافا؛ فتسجد النفسُ في محرابه مهابة وتعظيما، وتتبتّل الروحُ في جنَباته خشوعا وحُبّا وانقيادا، مع الأخْذ في الحسبان أنّ إثباتَ أسماءِ الله -سبحانه وتعالىٰ- أمرٌ توقيفي لا اجتهاد فيه؛ فلا يُسمَّىٰ اللهُ إلَّا بما سَمّىٰ به نفسَه أو سَمّاه به نبيُّ الهدىٰ عليه الصلاة والسلام. وفي هذا نفَىٰ العلماءُ وجود دليل علىٰ أنّ الساتر والستّار هما مِن أسماء الله تعالىٰ، بينما أَثبتوا اسمَ الله السّتِّير، ودلَّلوا علىٰ ذلك بالحديث الشريف: "إنّ اللهَ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يحب الحياء والسّتر".

والستر خُلُق جميل وسلوك حميد؛ يُورث المحبّة بين الأفراد فيثمر حُسْن الظنّ ويطفئ نار الفساد، كما يَحفظ للأمّة بنيانَها ويُبقِي لها كيانَها. ولهذا كان حُلّةً للأنبياء وجُبّةً للصالحين، وذلك بعد أن أقرّه الدينُ الحنيف وحضّ عليه وكافأ به، فشرع لأجْله حدّ القذف صونا للأعراض، واشترط الشهودَ في إثبات الزنا حماية للمحارم، وتَوعَّد أهلَ السوء المتاجرين بإشاعة الفاحشة، ونهىٰ عن التجسّس والتنقيب في المعائب والزلّات. وفي هذا السياق، ورد التوجيه النبوي لهزّال الأسلمي الذي

أشار علىٰ ماعز بن مالك بالاعتراف علىٰ نفسِه وطلَبِ إقامة حدّ الزنا عليه، قائلا: "يا هزّال، لو سترتَه بثوبك، كان خيرا لك ممّا صنعْت".

وكما أَنعم اللهُ علينا بالسّتر وحجَبنا بحجاب الإمهال، وحفظ ماء وجوهنا فصانها عن الإراقة بيْن الخلْق؛ وجَب علينا أن نقاوم طبائعَنا التي تُحبّ التحدّث بما تسمع، وتَستمتع بالحكْي عمّا ترَىٰ، وتلذّ بالكشف عمّا خفي، ونخصّ بالذكر (ن) النسوة، لِما عُرِف عنهنّ مِن إذاعةِ السرّ وبغْبغةِ اللسان. كما وجَب علينا أنْ نتعبَّد إلىٰ اللهِ بسترنا علىٰ غيرِنا، وكأنّنا بذلك نؤدِّي زكاةَ ستْر الله علينا؛ فلا نتتبّع عوراتِهم، ولا نهتك أسرارَهم، ولا نذيع هفواتِهم، ولا نشيع زلّاتِهم؛ فكما لنا عينان للناس أعين، واكتشافنا لأخطاء غيرنا المستورة لا يَعني أننا لا نُخفي مثلها أو أكبر منها، علاوة علىٰ أنّ الاشتغال بسرائرِ النّاس يُشغل البال ويُشعل فتيلَ سوء الظن ويَفتح البابَ لظُلم الخلْق، وما تَفرَّغ أحدٌ لعيب[1] الناس إلّا مِن غفلةٍ غفلها عن نفسه. وفي ذلك قال (ابن القيم) رحمه الله: "مِن الناس مَن طبعه طبع خنزير؛ يمرّ بالطيّبات فلا يقف عليها، ويسمع مِن المحاسن أضعاف المساوي فلا يحفظها ولا ينقلها، أمّا إن رأىٰ سقطة أو كلمة عوراء، وجدها بُغيته وجعلها فاكهته ونقَلها".

---

(1) قال أحد السلف: "أدركتُ أقواما لم يكن لهم عيوب، فذكَروا عيوبَ الناس، فذكَر الناسُ لهم عيوبا، وأدركتُ أقواما كانت لهم عيوب، فكفّوا عن عيوبِ الناس، فنُسيت عيوبُهم"

ويُستثنَىٰ مِن ذلك؛ كلُّ مَن اشتُهِر بالمعاصي، فخلع برقع الحياء، وجاهَر بما اجْترح، وأعْلن عمّا اقْترف، بل وتَباهىٰ بما ارْتكَب؛ فهو في ذلك-كما قال العلماء- فاجِرٌ لا غيْبة له، ومُجاهِرٌ لا حُرمة لعِرضه، وفاسقٌ لا سَتر عليه؛ إذْ تَعدّىٰ ضررُه إلىٰ الغيْر وصار إبليسا يَمشي علىٰ الأرض. وفيه قال التابعي الفقيه (إبراهيم النخعي): "أعظم الذنب عند الله عزّ وجلّ أن يُحدِّث العبدُ بما ستر اللهُ عليه"، وشَبَّهه الشيخ مصطفىٰ السباعي بالحيوان الذي لا يُبالي بالافتضاح، فقال:

"إذا همّت نفسُك بمعصية فذكِّرها بالله، فإذا لم ترجع فذكِّرها بأخلاق الرجال، فإذا لم ترتدع فذكِّرها بالفضيحة إذا علم بها الناس، فإذا لم ترجع فاعلم أنك في تلك الساعة قد انقلبتَ إلى حيوان".

علىٰ أنَّ الستر علىٰ النّاس بتغطية عيوبهم وإخفاء هنّاتهم، لا يَعني عدم إنكارها أو التهوين منها وموت القلب تجاهها، ولا يُسوّغ ترْك النصيحة وعدم إسداء التوجيه؛ فصلاح بنيان المجتمع معلّق بالتناصح، وخيريّة الأمّة مركوزة في قيامها بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،

والغلَط -كما قيل- إذا تُدورِك تَبدَّد وإذا تُرك تَعدّد. ولكنْ فارقٌ بين النصيحة التي تَتدثّر بالستر وتَتزيّن بالمحبّة والشفقة، وبين الفضيحة التي تَكشف ما سُتِر وتَهتك ما حُجِب وتتوق للتعْيير لا للتغْيير، وقد ورَد في الأثر: "مَن نصح أخاه في سرّ فقد زانه، ومَن نصحه في علانية فقد شانه"، وهو ذات المعنىٰ الذي نظمه الإمام الشافعي شِعرا فقال:

تَغمّـــدْني بنـــصحك في انفـــراد ... وجنِّبنـي النـصيحةَ في الجماعـة

فـإنَّ النـصحَ بـين النـاس نـوع ... مِـن التـوبيخ لا أرضَـىٰ سـماعَه

وإنْ خـالفتَني وعـصيتَ قـولي ... فـلا تجـزع إذا لـم تُعـطَ طاعـة

ومن جميل ما رُوي في خُلُق الستْر علىٰ النّاس، ما حكاه الشيخ راتب النابلسي مِن أنَّ قاضيا دمشقيا جاءته امرأتان، إحداهما ذات وزن ثقيل ومكانة رفيعة في المجتمع، وقبل أن تَمثُل بين يديه مباشرة، إذْ بصوت قبيح يَصدر من مؤخّرتها لا شعوريا، حتىٰ طأطأت رأسَها أسفا وذابَت نفسُها خجلا، ولمّا كلَّمها قال: ما اسمك يا أختي؟ فذكرَت له اسمَها، قال: لم أسمع، ارفعي صوتك، فرفعَت، ولكنه قال: لم أسمع ارفعيه أكثر، فقالت المرأة الوجيهة هذه لأختها: الحمد لله لم يسمعنا...ولله درّه مِن قاضٍ؛ تَظاهر بالصمَم حتىٰ يُذهِب خجلَ المرأة ويَرفع عنها الحرجَ!

8- نعمة الأمل

قِيل إنَّ اللهَ تعالىٰ لَمَّا خلق أبا البشر (آدم) عليه السلام، وتَناسَل بَنُوه مِن بعدِه، وتكاثروا حتىٰ تضاعفَتْ أعدادُهم، قالت الملائكة: لن تسعهم الأرض، فقال اللهُ تعالىٰ: إنّي جاعلٌ موتا، فقالت الملائكة: إذنْ لا يَهنئون عيْشا، فقال اللهُ سبحانه: إنّي جاعلٌ أمَلا. أمّا الشاعر الإيطالي دانتي فيقول: الجملة المنقوشة علىٰ بوابة جهنم (اهجر كلّ أمل أنت أيها الداخل)..وكأنّ فقدان الأمل هو عين الجحيم.

ويُحكَىٰ أنّ زهرةً جميلةً كانت تنام كلَّ ليلةٍ، وتحلم بالأملِ في أن يزورها النّحلُ عند الصباح؛ فتصحو باكرة، وتسبق رفيقاتها في فتْح أوراقها الزاهية ونشْر عبيرها الفوّاح، وبرغم أنها لم تَحظَ بأيّة نحلة تحطّ علىٰ وريْقاتها البديعة، فقد واصلَت عادتَها بلا انقطاع. وفي ليلةٍ مُقمِرة؛ رأف بها القمَر، ورقَّ لِحالها، فخاطبَها قائلا: ألَم تَتعبي مِن انتظار نحلٍ لا يأتي

وأملٍ لا يتحقّق، فقالت: إذا لم أفتح أوراقي وأنشر عبيري كلّ صباح فسيذوِي جمالي وتنهار روحي.

والأمَل هو الرجاء، وعكْسه اليأْس، ويُجمَع في اللغة علىٰ آمال، وفيه يُتوقَّع حدوثُ شيء طيِّب في المستقبل، وعلىٰ أثره تَزكو الملَكاتُ وتَنمو القدرات وتنتعش الإرادات؛ فنُقبِل علىٰ العمل في سرور وحبور، ونشقّ طريقَ الإتقان، ونسلك درْب الإحسان، كما تنشرح به النفسُ ونَعبر إلىٰ غدٍ مشرِق بسّام. وهو طاقة نورانيّة تنبلِج في العقل وتشرق في الفؤاد؛ فتنداح أمامها الأمنياتُ والأمجاد، وننشط بها بعد عقال، ونسير بعد قعود، وننهض بعد خمول؛ فتُشرَع النوافذُ وتُفتَّح الأبواب؛ حتىٰ لَيبدو الخريفُ ربيعا، والبعيدُ قريبا، والعُسْرُ يُسْرا[1]، ويصبح ما لا يُتوقَّع في متناول اليد وطوْع البنان. وقد عدَّه أحمد حسن الزيات أحد نعمتيْن عظيمتيْن امتنَّ الله بهما علىٰ العباد فقال: "للهِ علىٰ الناسِ نعمتان لا يَطيب بدونهما العيْش، ولا يَبلغ إلّا عليهما العُمر: النسيان والأمل"، وذكر الكاتب الروسي فارلام شالاموف أنّ الإنسان من الناحية الفيزيائية أكثر الحيوانات احتمالا لأنّ الحيوان لا يعرف الأمل بينما الإنسان يعرفه، وفيه

(1) مِن جميل ما قِيل في العسْر واليسْر؛ أنّ الله تعالى لم يجعل اليُسر يعقب العُسر كما يظنّ أكثر الناس، وإنّما هو معه، ولا يحجبه عن المُبتلَى إلّا حجاب المعاصَرة.

قال الطغرائي ضمن لاميّتِهِ الشهيرة التي تُسمَّىٰ لاميّة العجَم تمييزا لها عن لاميّة العَرب للشنفري:

أُعلِّـــــل الـــــنفسَ بالآمـــــال أَرْقبهـــــا

مـــا أضْـــيق العـــيشَ لـــولا فـــسْحة الأمـــل

وهو ترياق لداء اليأس العضال، ذلك الداء الذي يُصيب الأفرادَ والجماعات؛ فيجذّ حبلَ الأمل ويُرخي العنانَ للقنوط؛ لِيُنقِّب عن الحزن، ويَستدرّ الدمْع، ويَغرس الكآبة، ويَنكأ الجراح، ويُجدّد الآه، ويَغِلّ الحواسّ، ويُشِلّ الأركان، ويُحطِّم النفوس. ذلك اليأس الذي يَحرم صاحبَه مِن الاستبصار بعفْو الله وغفرانه، والتفيُّؤ بظلّ رحمتِه وكريم عطائِه، والاستشْفاء بنسيم التوبة البارد ومائِها العذْب السّلْسبيل. وقد حذَّر منه القرآنُ الحكيم، ونهَىٰ عن الانجرار وراءه، أو الالتحاق بركابِه؛ فقال: ﴿ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [1]؛ وما ذلك إلّا لأنَّ اليائسَ قد طوَّح عصا التِّسيار وعلَّق فشلَه علىٰ شمَّاعة الأقدار، بينما هو في الحقيقة عاطِلٌ عن الأمل، وعطالة الأمل أسْوأ أنواع العطالات وأشدّها فتْكا وتدْميرا لبنيان الإنسان، إذْ لا يَبقىٰ منه -والحال كذلك- إلّا لسانا يَنشد في الحِلّ والترحال:

---

(1) 87 يوسف.

ثـوبِي مِثـل شَـعري مِثـل حظّـي ســـــوادٌ في ســـــوادٍ في ســـــواد

وفي هذا كان تحذيرُ خبراء البرمجة اللغوية العصبية مِن تكرار كلمات "لو-لولا-ليت" التي تشيع في النفس جوّا مِن اليأس وعاصفة من القنوط، بينما كان الحثّ علىٰ استخدام كلمات "لعلّ-عسىٰ" التي تبعث في النفس نسيم التفاؤلَ وأريج الأمل. وبهذا كانت أجمل هندسة في العالَم؛ تشييد جسر مِن الأمل علىٰ ضَفّتَي نهرٍ مِن اليأس، وكان أروع معمار؛ بناء عُشّ من التفاؤل في عُقر دار المتشائم.

وفي الأمل حربٌ علىٰ العجْز الذي يَصنع مِن الحَبّة قُبّة ومِن الذَرّة مجرّة؛ فيكِلّ القلبُ وتأِنّ الروحُ ويَسقم الجسَد، حتىٰ لَيجلس العاجِزُ منزويا في ركن الحياة ومجهره أمام عينيْه؛ ليرىٰ التلَّ أضخم مِن الطَّوْد، ويرىٰ الدجاجةَ أخت النّعامة، دون أن يَجرؤ علىٰ الاقتراب ليُدرك أبعادَ الأشياء علىٰ حقيقتِها، ودون أن يُجرِّب النظرَ مِن خلال مرآةٍ حياديّةٍ مُتعقِّلة تَضَع الأحداثَ في نصابها، ودون أن يخطر بباله يوما ابتلاع كبسولة أمل تَتضاءل أمامها الأخطارُ وتَتقزّم قبالتها الأهوالُ والأرْزاء. ولهذا جاء التوجيهُ النبويّ: "استعِنْ بالله ولا تَعجَز"، وكان دعاء الفاروق عمر بن الخطاب الذي دأب علىٰ ترديده: "اللهم إني أعوذ بك مِن جلَد الفاجر وعجْز الثقة".

وفيه كذلك حُسْن ظنٍّ بالله الذي تَكفَّل بالرزق حين خلَق، ووعَد بالمغفرةِ عند التوبة، وكتَب التوفيقَ عند السعْي، حتىٰ كان الأمر النبوي: "لا يَموتنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحسن الظنّ بالله". علاوة علىٰ أنه -أي الأمل- يُكسبنا الثقةَ في النفس، فيُصيِّرها نفسا آمِلةً متفائِلةً مُستبشِرة؛ تقودنا إلىٰ مقعدِ صدقٍ عند مليكٍ مقتدِر، وتأخذ بيدِنا إلىٰ روضةٍ تَبسم فيها زهورُ السعادة، وإلىٰ بستانٍ تَنضج علىٰ أغصانه ثمارُ النجاح. ويعيد إلينا الثقة في النّاس الذين أَوْجدهم اللهُ من العدم، وفرَّقهم شعوبا وقبائل، لتتعارَف وتتشارَك، ويكونوا يدا واحدة علىٰ عوادِي الزمن. كما يزيد مِن ثقتنا في الحياة التي سُخِّرت لتُطيع ولا تَأبَىٰ، وتُلبِّي ولا تَعصَىٰ، وذلك حسبما سَنَّه الله مِن قوانين تُسيِّر عجلةَ الكون، فيأخذها بحقِّها كلُّ راغبٍ وساعٍ سار علىٰ درْب الشاعر الذي **قال:**

مـــا ضـــلّ ذو أمـــلٍ ســـعَىٰ يومًـــا وحِكمتـــه الـــدليل

فضلا عن أنّ الأملَ شحْنٌ لطاقة الجسد التي تنفد وتحتاج إلىٰ تجديد بانتظام، وبواسطته يَستعيد الجهازُ العصبي توازنَه الذي يختلّ تحت وقْع رزايا لا تَخلو منها الأيام. وهو كالرفيق المُؤنس؛ إذا لم يُبلّغكَ مرادَك أَمتعَكَ بصحبتِه ورفقتِه، بمعنىٰ أنَّ في الأملِ شفاءٌ للأمراض وتسكينٌ للآلام وبُرءٌ للجراح الجسديّة منها والنفسيّة، وذلك علىٰ وجه الحقيقة لا

علىٰ سبيل المجاز؛ فبه تَنشط الكراتُ الدموية البيضاء، ويعمل جهازُ المناعة بكامل فوْرته وأتمّ قوّته. وما جلسات التحليل النفسي، أو ما يُعرَف بالعلاج المَعرفي؛ إلّا ريًّا لشجرة الأمل التي ذبلت في نفوس المكتئِبين والقلِقين، ودعْما لحائط الأمل الذي تصدَّع علىٰ وقْع معاول الأسقام المُزمِنة وفؤوس الأوجاع المُبرحة؛ ويكأنّ الأمل لِعافيةِ الإنسان كالزيت لتحريك الآلات وسلامتها، وكالوقود لتحليق الطائرات والوصول بها إلىٰ وطَرها ومأْربها، وفي ذلك قِيل: "إذا فقدْتَ مالَك فقد ضاع منك شيء له قيمة، وإذا فقدْتَ شرفَك فقد ضاع منك شيء لا يُقدَّر بقيمة، وإذا فقدتَ الأملَ فقد ضاع منك كلُّ شيء"، وقِيل أيضا الأملُ يبدأ بـ(الأم) و(الأُمّ) تمنح أكثر ممّا نَتمنّىٰ وتهَب أحلىٰ ممّا نَشتهِي.

وقد دخل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك رحمه الله المسجدَ يوما؛ فرأىٰ شيخا أَحْنىٰ الكِبَرُ ظهرَه وهدَّ الهِرَم بنيانَه، فاقترب منه وداعبه بقوله: ألَا تُؤثر الموتَ يا شيخ؟ فأجاب الرجل بلسان الأمل قائلا: لا يا أمير المؤمنين، لقد ذهب الشبابُ وشرُّه، وأَتىٰ الكِبَرُ وخيرُه، وأنا إذا قمتُ الآن حمدتُ الله وإذا قعدت ذكرْته، وأُحبّ أن تدوم لي هاتان الخلّتان.

ولو فتشْتَ في طول الحياة وعرضها، وقلَّبتَ صفحاتِ المبدعين وتراجِمَ العظماء، لوجدتَ الأملَ قائدا قادهم إلىٰ المجْد، ومصعدا صعد

بهم إلىٰ النجاح، ونورا هداهم إلىٰ الإنجاز؛ فها هو شكسبير الذي تَفخر بها إنجلترا، وتحسبه أيقونة الأدب الإنجليزي، ويَحجّ الملايين مِن السياح إلىٰ بيته في مدينة سترانفورد كلّ عام؛ يُلخّص تجربتَه في الحياة فـيقول: "أوصيكم بثلاث التفاؤل والتفاؤل والتفاؤل". وها هو أحمد زكي باشا المُلقَّب بشيخ العروبة، يَصف نفسَه قائلا: "علَّمتني الحياةُ أن أتفاءل وإنّي لمُتفائِلٌ دائما بفضل إيماني". وها هو المؤرِّخ المصري محمد شفيق غربال الذي تَتلْمذ علىٰ يد المؤرِّخ العالمي أرنولد توينبي، يُترجم لسيرتِه الذاتيّة فيقول: "بفضل التفاؤل المستمرّ الحلقات كانت حياتي جديرة بأن أحياها". وها هو أيضا روبرت اولمان؛ الذي كُفَّ بصرُه في الطفولة إثر إصابة في رأسه، ولكنّه تخرَّج في الجامعة، وبرز في ميدان الرياضة والقانون، يَبوح بسِرِّ نجاحِه فيقول: "بفضل الوحي الذي خلقه التفاؤلُ في وجداني صُنْتُ حياتي وحافظْتُ علىٰ تماسكها"... لِيبرهنَ بذلك علىٰ أنَّ العيشَ ممكنٌ بدون بصر، ولكنّه يَستحيل في غياب الأمل.

أمّا جرعة الأمل الكبرىٰ؛ فكانت في شخص المفكِّر والشّاعر والخطيب (محمد فريد عبد الخالق)، الذي دخل موسوعة جينيس للأرقام القياسية، بحصوله علىٰ درجة الدكتوراه في سنّ الرابعة والتسعين، وذلك من قسم الشريعة بكلية الحقوق جامعة القاهرة في العام 2009م،

مُعلِّقا علىٰ ذلك بقوله: "أشدّ ما يُؤلمني أن أرىٰ شبابا دون الثلاثين فاقدا الأمل والطموح".

وقد مُثِّل للأمل واليأس وللتفاؤل والتشاؤم، ببئر رُكِّب عليه دلوان، ينزل أحدُهما فارغا ويَصعد الآخَرُ ملآنا؛ فلمَّا تقابلا في منتصف البئر، سَأل الفارغُ الملآنَ: مِمّ تبكي؟ فقال: ومالي لا أبكي؟ أخذ الرجلُ مائي وسيأخذه ويعيدني إلىٰ قاع البئر المظلم!، وأنت مِمَّ تضحك وترقص؟ فقال الفارغُ: ومالي لا أضحك؟ سأَنزل البئرَ وأمتلئ ماء صافيا وأطلع بعدُ إلىٰ النور والضياء..وفي هذا درس بليغ بأن ننحاز دوما إلىٰ خيار الأمل حتىٰ لو رافقَه العجْز، ولا ننحاز إلىٰ خيار اليأس حتىٰ لو صاحبتْه القدرة؛ لأنّ الأملَ يهزم العجزَ ويُحوّله إلىٰ قدرة، ولكنّ القدرةَ يهزمها اليأسُ ويُحوِّلها إلىٰ عجز، ولأنَّ الأملَ يُطيل الأيْدي ويُقوِّي الأرجل، ويُضيف للعينيْن عيْنا وللأُذنيْن أُذنا وللحواس الخمْس خمْسين أخرىٰ!

وهنا يمكننا التدليل علىٰ ما يَفعله الأملُ في بناء الدول وتقدّم المجتمعات؛ باليابان التي دكَّتْها القنابلُ النووية في الحرب العالمية الثانية، ولكنّها بالأمل المَقرون بالعمل أصبحَت في أقلّ من نصف قرن أقوىٰ ثاني الاقتصادات العالمية. وكذلك ألمانيا التي حمَلت عبء الهزيمة في الحرب العالمية الثانية، فتمَّ شطرها إلىٰ نصفيْن غربي وشرقي ودُمِّرت

بنيتُها التحتيّة بالكامل، ولكنّها بالأمل الذي ركِب الماكينةَ الألمانية وأَنشد "ألمانيا فوق الجميع"، تَوحَّدَت مِن جديد وصارَت قائدة أوروبا صناعيا واقتصاديا، متقدِّمة بذلك علىٰ بريطانيا التي انتصرت عليها في الحرب العالمية الثانية.

علىٰ أنَّ الأمَلَ سلاحٌ ذو حدَّيْن وسيْفٌ ذو نصليْن، مَن أَسْرف فيه؛ فتقاعس عن السعي والجدّ والعمل[1]، وفاتتْه الفرصةُ تلو الفرصة، وانزلقت قدمُه إلىٰ عتبة الأماني، وولج بابَ الوهْم واللهْو، وغرَّه بالله الغَرور، وألقىٰ حبلَه علىٰ غارب التكهّنات والتّخرّصات، وكان ممَّن عناهم الحقُّ بقوله: "دعْهم يَأكلوا ويَتمتَّعوا ويُلهِهم الأملُ فسوف يعلمون"؛ لن يجد في نهاية الشوط إلىٰ جدارا يَصطدم به رأسُه وفراغا يَلفّه مِن حوله وحصادا ليس فيه إلّا الغثاء والهشيم، وساعتها لا طريقَ للعودة ولا حنجرة للصياح ولا هواءَ ينفث فيه آهات الندم ويَستودعه زفرات الحسرة، فساعات العُمر معدودة ومحدودة، والأعمار أعْقم مِن البغال، وبَعد الامتحان تُرفَع الأقلام، ولله أعمالٌ بالليل لا يَقبلها بالنهار وأعمالٌ بالنهار لا يقبلها بالليل، وطوبَىٰ في ذلك لمَن بادر وشمّر واقْتحم العقبة تلو

(1) في ذلك غرَّدَ الكاتب عبد الله المغلوث قائلا: "أملٌ بلا عمل ككفّ بلا أصابع، يَصل إلى القمّةَ لكن لا يصافحها".

العقبة، وفَقِه أنَّ الآمالَ كالأطفال تتطلّب رعاية وعناية، وتستلزِم تهذيبا وتدريبا، ولا تَنضج وتَستوي إلّا علىٰ نارِ الذّهن وحطبِ السواعد وشُعلةِ الإيمان وجذوةِ التوكّل علىٰ الله. وللهِ دَرّ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين حذّر مِن الشّطط في الأمل والوقوع في جانبه السلْبي فقال: "أخْوف ما أخاف عليكم اثنان: اتّباع الهوىٰ وطول الأمل؛ فأمّا اتّباع الهوىٰ فيصدّ عن الحقّ، وأمّا طول الأمل فيُنسِي الآخرة"..

سلامٌ على مَن يتسلّح بالأمل، فيستعين به على وعثاء سفره القصير المُسمَّى دنيا. وألف سلام على مَن يكون للناس الأمل، فيبشّرهم إذا قنطوا ويحفّزهم إذا كَلّوا. وألف ألف سلام على مَن يحقّق للناس الأمل، فيكون يد الجود على الوجود؛ يُطعم الجوعان ويروي الظمآن ويكسو العريان ويغيث اللهفان.

9- فلْيفرحُوا

بين ثقافةِ الفرَح وثقافة الحُزن؛ رُوِي أنَّ (يوحنّا) و(شمعون) كانا مِن حواريِّي سيدنا عيسىٰ عليه السلام، وبينما كان يُوحنّا لا يجلِس مجلسا إلّا ضحِك وأَضحَك مَن حوله، فقد كان شَمعون لا يَجلس مجلسا إلّا بَكىٰ وأَبكَىٰ مَن حوله، فقال شمعون ليوحنّا: ما أكثر ضحكك، كأنّك قد فرغْتَ مِن عملك! وردّ يوحنّا: وما أكثر بكاءك، كأنّك قد يئِستَ من ربّك، فأَوْحىٰ الله إلىٰ سيدنا عيسىٰ عليه السلام: إنَّ أَحبَّ السِيرَتيْن إليّ سيرة يوحنّا.

كما ذُكر أنَّ العربَ إذا مدحوا أحدا قالوا عنه: "هو ضَحوكُ السنِّ بَسّامُ الثَّنيّاتِ[1] هشٌّ إلىٰ الضيف"، وإذا ذمّوا آخَر ورموه بنقيصة قالوا عنه: "هو عَبوس الوجه، جَهم المُحيّا، كريه المنظر، حامض الوجْنة؛ كأنّما نضّح وجهَه بالخلّ، أو أَسعط خيشومَه بالخردل".

(1) مفردها الثّنيّة، وهي إحدى الأسنان الأربع في مقدم الفم، اثنتان من فوق واثنتان من أسفل.

وبرغم ما للوجدان من لغة يعجز اللسانُ أحيانا عن الإحاطة بل والبوْح بها؛ فإنَّ الواقعَ يشهد بأنَّ الفرحَ لغةٌ يلهج بها الكونُ بأسْره، وتَرطن بها الكائناتُ علىٰ اختلاف طبيعتها، وكأن الفرح لغة الكون الرسميّة؛ فالعصافيرُ تفرح فتغرّد، والأزهارُ تَفرح فتتفتّح، والأشجارُ تَفرح فتُثمِر، والسماءُ تَفرح فتُمطِر، والأرضُ تَفرح فتُنبِت، والبحرُ يَفرح فيَموج، بل إنَّ الجدرانَ تَفرح فتضحك عبر نوافذها المُشرَعة وأبوابها المُفَتَّحة. أمَّا في البشر؛ فالفرح فطرة مَركوزة في الذات الإنسانيّة، ضمن حزمة كبيرة من المشاعر القلبية: كالحُبّ، والكُره، والغضب، والغِيرة، والخوف، والطمع، وغيرها. ويَعدّه عِلمُ النفس أحدَ الانفعالاتِ الإنسانيّة الرئيسة التي يَنتفي العيشُ بدونها، ثمّ يُصنِّفه إلىٰ فرحٍ جسماني ناتج عن مُؤثِّر خارجي حِسّي أو معنوي، وفرحٍ عقلاني ينبعث مِن الداخل والباطن. وهو نقيض الحزن، ويُعرَف بأنّه انبساطُ النفس ولذّة القلب عند نيْل المرء ما يَشتهِي، وبه يُدلِّل المرءُ علىٰ سخاءِ قلبه وكرمِ نفسه وسلامةِ صدْره وصفاءِ روحه. وفي الوقت الذي تتفاوت فيه البواعثُ والآثارُ مِن شخص إلىٰ آخَر، فإن الهيئات المعبّرة عن اللذّة والبهجة والسعادة تتشابه ولا تتفاوت.

والحقيقة أنَّ الفرحَ قد ظُلِم كثيرا باسم الدِّين والتّديّن؛ مع أنَّ الدِّينَ كلّه جمالٌ وفرح، والتديّنَ أصله حبورٌ وسرور؛ فالصائمُ يَفرح بفطره وعِيده، والمجاهد يَفرح بنصر الله له ولدينه، والشهيد يَفرح بفوزه وقدومه علىٰ مولاه، والمؤمن يَفرح بفضل الله وهو الإيمان، وبرحمته التي هي القرآن ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ (1). وعلىٰ أرضية هذا الفهم ومتن هذا الفرح، اتّسم خُلُق النبي ﷺ مع ما كان يَحمله مِن همّ الدِّين ومشاغل الدعوة ومسئولية الأُمّة، فوصفتْه أمُّ المؤمنين عائشة بأنّه كان ضاحِكا بَسّاما، وأُثِر عنه المزاحُ الصادق مع الصغيرِ والكبير. فقد طلَب منه رجلٌ أن يحمله علىٰ دابّة، فمازحَه النبيُّ قائلا: "إنِّي حاملك علىٰ ولد الناقة"، فقال الرجلُ: وما أصنع بولد الناقة؟ فقال له النبي: "وهل تلد الإبلُ إلّا النّوق؟"، كما مازحَ غلاما صغيرا حزن لموت طائرِه الصغير، فقال: "يا أبا عُمَيْر! ما فعل النُّغَيْر؟". وعلىٰ ذات النهج سار ركْب صحابة أجلّاء سُئل عنهم ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: "هل كان أصحاب رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم يضحكون؟ قال: نعم، والإيمان في قلوبهم مثل الجبال"،

(1) يونس 58، وقد قال فيها صاحب الظلال: "هذا هو الفرح العلوي الذي يُطلق النفسَ من المطامعِ الأرضية والأعراضِ الزائلة، فيجعل هذه الأعراض خادمةً لا مخدومة، ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها، لا عبدا خاضعا لها".

وفي ذلك ترجمة عملية علىٰ أنَّ الإسلامَ ينظر إلىٰ الانفعالات والعواطف نظرة اعتراف وتهذيب لا نظرة إنكار واستئصال، وذلك في سياق عام يَبتغي دفْع الضرر وجلْب النّفع، وهو سياق معتبَر تُدندن حوله بقيّة المقاصدُ الشرعيّة.

ولم يكن ذلك كذلك؛ إلّا لأنَّ الفرحَ تشتاقه النفوس، وترتاح له القلوب، ويتجدّد به النشاط، وتعلو به الهمّة، ولأنَّ الفرحَ وليد الرضا وفي الرضا طمأنينة وسكون وانشراح، علاوة علىٰ أنّ المزاح المُباح -وهو أحد أدوات الفرح- ترياقٌ للكآبة، وعلاجٌ للهموم، وبلْسمٌ للجروح، وضِمادةٌ للكروب. كما أنه يَرفع الكلفةَ ويَهدم الحواجزَ ويدفع التدابُرَ والتنافُرَ ويُوطّد العلاقاتِ الإنسانيّة كافة، حتىٰ لَيعمل عملَ المفتاح الرئيس (الماستر) الذي يَفتح كلَّ الأبواب المُوصَدة؛ فيُصبح الغريبُ صديقا والغَضوبُ حليما والشّرِسُ أليفا والغليظ رقيقا. فضلا عن أنَّ الفرحَ عدْوىٰ طيِّبة تُصيب الآخَرين فتُسرِّي عنهم؛ ومعلومٌ ما في إدخال السرور علي الغيْر مِن طاعة هي أحبّ الطاعات إلىٰ اللهِ بعد الفرائض.

ولهذا كان كتمانُ الفرح، والذي يُمارسه البعضُ خوفا مِن الحسد؛ جحودا للنعمة، وإحجاما عن الجُود بالموجود. وكان تأجيلُ الفرح دلالة علىٰ الحُمْق العَقلي، وبابا من أبواب الحِرمان والتعذيب النفسي. وكان

التطيُّر مِن الفرح وتَرقُّب المصيبة بعده؛ فسادَ عقيدة، وسفاهةَ فِكر، وقلّة إيمان. وكان إظهارُ الحزن وقت الفرح؛ اعتراضا علىٰ الأقدار، وردّا لهدايا السماء؛ فالمُؤمِن الحقّ يَفرح إنْ أسعدتْه الأقدار لأنَّ ردّ التحية واجب، ويَفرح إن أخطأتْه وأسعدَت غيرَه لأنّ غيرَه بعضُه وغدًا دوره...ويكأنّ الأقدار ساقيةٌ تدور علىٰ العباد، ورحاةٌ لا تَثبت يوما علىٰ حال.

أمّا الطامّة الكبرىٰ، فهي تأويل بعضهم آية (القَصص) التي ورَدَت في سياق قصّة قارون: "ولا تفرح إنّ الله لا يحبّ الفرحين"؛ ليتّخذ منها مُسوِّغا للعبوس والتجهّم، ومبرّرا لتطليق الفرح والتعوّذ منه، وبابا للاستثمار في النكد والإمساك بتلابيبه، مع أنَّ النهي هنا يَختصّ بالفرح الذي جاوز الحدّ فأَطْغىٰ، ويَنحصر في السّرَف المَنهيّ عنه مِن كلِّ وجه، ولا يتعدَّىٰ البطَر الذي ينشغل صاحبُه بالنعمة[1] ويَنسىٰ المُنعِم، وهو ما شرحه العلامة ابن عاشور في تفسيره المعروف (التحرير والتنوير) فقال: "الفرح المَنهيّ عنه هو المُفرَط فيه؛ لأنّ الانكبابَ علىٰ ذلك يُميت النفس من الاهتمام بالأعمال الصالحة والمنافَسة لاكتسابها، فينحدر به التوغّل في الإقبال علىٰ اللذات إلىٰ حضيض الإعراض عن الكمال الإنساني

(1) في هذا يقول العارفون: مَن فرح بنعمة الله من حيث إنها مِن الله، كان فرحه بالله لا بالنعمة، وذلك هو غاية الكمال ونهاية السعادة.

والاهتمام بالآداب الدينية"، وإليه أشار الشيخُ محمد الغزالي قائلا: "مِن أهلِ الدِّينِ مَن ظلم حقيقةَ الإيمان بالله، فظنّ أنّ هذا الإيمان يَعترض الحياةَ الصحيحةَ كما يَعترض ظلُّ الأرض ضوءَ القمر ليلة الخسوف".

أَضِف إلىٰ ذلك أنّ الحُزنَ لم يتناوله القرآنُ إلّا مسبوقا بالنّهي أو النّفي: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ ٤٠﴾[1]، ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ ١٣٩﴾[2]، ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ١٢٧﴾[3]، ويكفيه ذمّا وقدحا أنّه ورقةٌ رابحةٌ في يمين الشيطان وغايةٌ من غاياته الكبرىٰ: ﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ١٠﴾[4]، وأنَّ النبي صلىٰ الله عليه وسلم دأب علىٰ التعوّذ منه قائلا: "اللهم إني أعوذ بك مِن الهمّ والحزن"...وذلك لأنَّ الحُزنَ يُضعف القلب، ويُوهن النفس، فيَفْتُر العزمُ ويَتأخّر المَسِير، بما يعني أنّه لا فائدة تُرجَىٰ مِن ورائه، وحاشا للهِ العليم الحكيم أن يأمر بما لا فائدة فيه، وفي هذا بيانٌ لِخطَلِ هؤلاء الذين يَدّعون التعبُّد إلىٰ اللهِ بالحُزن واللطيم علىٰ إيقاعٍ جنائزيٍّ حافل بضرْب الصدور وجلْد الظهور وخمش الوجوه، وفيه كذلك تفنيد لزعْم أولئك الذين يَرون

---

(1) التوبة 40.

(2) آل عمران 139.

(3) آل عمران 127.

(4) المجادلة10.

الفرحَ عورة لا تليق بوقورٍ جادٍّ يحمل رسالةً ويَتصدَّىٰ لمسئولية ويروِّجون لثقافة اليبوسة والكنودة.

والواقع أنَّ الدعوةَ إلىٰ الفرح هي دعوةٌ مُلِحّة؛ بعدما ضمرت منابعُه وشحّت مواردُه، وسْط تلك الحروب والكوارث والاضطرابات التي تجتاح العالَمَ حولنا، ووسط طوفان الأمراض النفسية التي أَمسكَ فيها الاكتئابُ بخناق 20٪ مِن النساء و 10٪ من الرجال، ووسط أتون مستعِر سجَّل فيه القلقُ حضورَه الطاغي لدىٰ مئات الملايين في ربوع العالَم وتَضخّمت فيه معدّلاتُ الانتحار[1]، ولا أقلّ هنا مِن الالتفات إلىٰ حديثِ الفرح الذي ساقه النبي صلىٰ الله عليه وسلم فقال: "ما أصاب عبدا همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللهمّ إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك عدلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سَمَّيتَ به نفسَك أو أنزلتَه في كتابك أو علّمتَه أحدا مِن خلقك أو استأثرتَ به في عِلم الغيب عندك، أن تجعل القرآنَ ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذَهاب

(1) تُثبت خارطةُ الانتحار العالمية أنه لا علاقة بين تدنّي مستوى الدخل الاقتصادي ومعدلات الانتحار، ففي الوقت الذي تغيب فيه أفقرُ الدول كالنيجر وسيراليون عن قائمة الانتحار، نجد أن الدول الغنية كسويسرا وأمريكا والنرويج ولوكسمبورج تحتل مكانة بارزة في رأس القائمة.

همّي، إلّا أَذهبَ اللهُ همّه وأبدله مكان حزنه فرحا" فقِيل: يارسول الله، أفلا نتعلّمها؟ قال: "بلىٰ، ينبغي لمَن سمعهنّ أن يتعلمهنّ"، وكذلك الوقوف عند ما قاله ابن عطاء: "ما سمع سورةَ يوسف محزونٌ إلَّا استرْوح إليها وتَسرَّىٰ بما فيها".

ومع أنّ الفرح يُسدي إلينا خدمات جليلة على المستويَيْن المادي والمعنوي، إلّا أننا أحيانا نُجازِي الحسنةَ بالسيئة، فنُسيء إليه أبلغ إساءة حين نبتذله فنبالغ فيه أو نضعه في غير موضعه، فالحمْل الكاذب لا يُنجب ولدا، والشُّوفِينيّة لا تصنع وطنا، والمغالطات المنطقية لا تنطلي على عاقل. فما أجمل الفرح حين ينساب فينا وبيننا، سماحة لا تكلّفا وخُلُقا لا تخلّقا وطبْعا لا صناعة؛ تماما كانسياب الجداول بيْن الحقول، والماء في العُود، واللبن في الضّروع، فنلْتقيه عذبًا فراته سائغًا شرابه هنيئةً آثاره.

10- وللموتِ وجهٌ آخَر

يَتّفق الكثيرون علىٰ أنَّ الموتَ مصيبةٌ، يَلكُم فيها ملَكُ الموت قلبَ الإنسان ودماغَه لكْمةً هائلة؛ فيَخرّ مِن وقْعها الجسدُ صريعا، وتَفرّ الروحُ إلىٰ بارئِها متبوعةً بصرخات الأهل وآهات المُحبِّين. ويُجمع العديدون علىٰ أنّه فاجعةٌ تترمّل علىٰ أثرها النّساء ويَتيتّم الأطفال وتَنتحر الأحلام ويَضيق الفضاء، كما يُخيِّم شبحُ الحزن الذي يَنفطر منه القلبُ أسىٰ وتَنهمر له الدموع أسفا. وربّما يَجنح بعضُهم ويشتطّ؛ فيرىٰ رأيَ الفيلسوف الوجودي العبثي (ألبير كامي) الذي قال: "الموتُ رياضيات دامية، وما مِن شيء مُبرَّر إزاء واقعة الموت، وما مِن معنىٰ للحياة والموتُ واقفٌ لنا بالمرصاد"..وفي كلِّ هؤلاء يتجلَّىٰ القلقُ من الموت ويُرفرف الرّهابُ من الرَّدىٰ، ولكن بدرجات متفاوتة، ولأسباب شتّىٰ؛ فمنهم مَن يخشىٰ علىٰ نفسه من متلازمة الألم والمرض والموت التي لا تنفكّ إلّا فيما ندر، ومنهم مَن يهاب ما بعد الحِمام مِن عقابٍ وجزاء، ومِنهم مَن يَخشىٰ علىٰ ذويه مِن بعده ويَعزّ عليه فراق الدنيا ومباهجها..

والحقيقة التي قد تَعزُب عن كلِّ هؤلاء وأولئك؛ أنَّ الأصل في الإنسان الحياة لا الموت، والأبد لا الفناء، بينما الموت ضيفٌ عابر يتولَّىٰ نقلنا من الحياة الدنيا إلىٰ حياة البرزخ. بل إنّ كلَّ شيء -كما قال جبران خليل جبران- يموت ليحيا؛ فالصخرة تموت لتلد حجارة بناء، والشمعة تموت لتتحوّل نورا، والخشبة تموت ليظهر ما فيها من نار، والثمرة تموت لتنبت الشجرة، والشجرة تموت لتعطي الثمرة. بما يعني أنَّ للموت زوايا أخرىٰ عديدة يُمكِننا الإطلالة عليه منها، وساعتها سندرك أنّ له وجْها آخَر يُغاير وجها مالِحا كالِحا انطبع في مخيّلتنا وسيْطر علىٰ أذهاننا، وهو الوجه الذي تَولّد عن قلّة الوعي بالموت، مع أنّ الوعي بالموت لا يناقض الحياة، بل يصبّ في مصلحتها معنىٰ ومبنىٰ.

فحين نعلم أنّ في كلَّ دقيقة يَصرخ ما يَزيد علىٰ 250 مولودا جديدا مسجِّلِين حضورَهم في دفتر العالم السكّاني، ونرىٰ أعداد البشر تتضاعف كلّ أربعين عاما؛ سندرك بجلاء أنَّ الموتَ ميزانٌ سكاني يُجسِّد هندسةَ الله في الكون؛ إذْ لولا هذا القدَر الرحيم الذي يَخطف آلاف النفوس يوميا؛ لَغصّت الأرضُ بمَن عليها مِن البشر، ولَما بقي موضعُ قدم لِأحدِهم في غضون ألف عام فقط، بما يعني عندها موتُ الحياة خنْقا لا قيامة، وإزهاق الأرواح قهْرا لا قبْضا، وبهذا فإنَّ في الموتِ مُتنفَّسٌ للحياة، وفي رحيل

البعض بقاءٌ للبعض الآخَر[1]. ومِن أجل ذلك كان الموتُ قرينا للحياة، بل سابقا عليها: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾[2]؛ ليُفسح الطريقَ للقادمين الجدد، ويُسلِّم الرايةَ للمترجِّلين مِن قطار الأرحام إلىٰ قطار الدنيا. ولا ننسىٰ أنّ في موت طفولتنا ميلادٌ لشبابنا، وفي موت شبابنا ميلادٌ لكهولتنا، وفي موت كهولتنا ميلادٌ لشيخوختنا؛ بما يعني أنّ في كلّ موت حياة، ولا عدميّة في الوجود.

وفي إطلالة علىٰ العجَزة مِن ذوي العاهات، وعلىٰ المسنّين الذين نهشهم الهِرَم فطرحهم الفراش، وعلىٰ المرضىٰ أصحاب العِلل المزمِنة التي لا برْء منها ولا دواء لها؛ سنجد أنّ الموتَ شفاءٌ لأسقامهم ورحمةٌ بمعاناتهم ونهايةٌ لمآسيهم، وفيه حفظ لكرامتهم وصونٌ لماء وجوههم، وسنجده كذلك راحةً لذويهم الذين أُنهِكوا في الإنفاق عليهم والعناية بهم والقيام علىٰ شئونهم، حتىٰ إنَّ بعضَهم يُصاب بالأرق والاكتئاب وارتفاع

---

(1) في كتابه (الله جل جلاله) كتب الأستاذ سعيد حوّى قائلا: " لولا الموت ما ذا حدث؟ قالوا: لو أن ذبابتين توالدتا هما وأولادهما دون موت، فإنه بعد خمس سنوات تتشكّل طبقة من الذباب حول الكرة الأرضية ارتفاعها 5 سم، وهذا جنس واحد من المخلوقات، فكيف إذا كانت المخلوقات كلها تتوالد ولا تموت".

(2) الملك 2.

ضغط الدم والسكري، جرّاء الإجهاد البدني والكرْب النفسي والضغط العصبي، وفي هذا المعنىٰ يقول العقّاد: "إذا فاجأني الموت في وقت من الأوقات، فإنني أصافحه ولا أخافه بقدر ما أخاف المرض، فالمرض ألم مذِلٌّ لا يُحتمل، لكن الموت يُنهِي كلَّ شيء".

وإذا اعتبرْنا الدنيا سباق -وهي كذلك- فإنَّ الموتَ ليس سوىٰ خطّ نهاية يُلوِّح بيديه للمتسابِقين ويَستدعيهم إليه، فيُحفِّزهم علىٰ المضيّ قُدما لتحصيل أكبر قدر من نقاطٍ تُؤهِّلهم إلىٰ مرتبة متقدّمة. ولك أن تتخيّل ثمّة سباق بدون خط نهاية، وما يترتّب عليه مِن غياب الحرارة والإثارة والحيويّة، وما يَنتاب المتسابقين مِن ملل وسأم وفتور بعد بضعة أمتار مِن بدْء الانطلاق، بل إنَّ في فجائيّة النهاية -التي يمثِّلها الموت- وتَغييب موعدها ضمن غيْبيات خمس اختصّ الله سبحانه بها نفسَه﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ ٣٤ ﴾[1] دافعٌ أقوىٰ لِبذْل أقصىٰ جهد ممكِن، وحافزٌ أكبر لاستدعاء مخزون الطاقة الكامنة، وذلك دون تسويف أو تأجيل؛ إذْ لا تأمَن أن تباغتك صافرةُ النهاية عند تلك الخطوة أو التي

(1) لقمان 34.

تليها. وقد سُئل المدير التنفيذي لشركة آبل (ستيف جوبز) عن سرّ تميّزه ونجاحاته الفائقة، فقال بأنّه كان يتمثّل الموتَ أمام ناظريه ويمضي في الحياة جادّا طَموحًا مغامِرا، كأنّه يعيش آخر أيّامه وكأنّ الغد لن يأتي، ثمّ أَردَف قائلا: ربّما يكون الموت أفضل ما ابتكرتْه الحياة.

وبالنظر إلىٰ صفحات التاريخ التي لم تخْلُ يومًا مِن ظلَمَة يَجلدون ظهر هذا، وطواغيت يَسفكون دم ذاك، وطغاة يَستبيحون عِرض ذلك، غير آبهين لأرتالٍ معَذَّبة مُضطَهدة تئن تحت أقدامِهم وسياطِهم وسيوفِهم، إضافة إلىٰ جموع أخرىٰ مطارَدَة ترتعد فرائصُهم من الرعب وتتجافىٰ جنوبُهم عن المضاجع ويَحسبون كلَّ صيحة عليهم...إذا نظرْتَ في ذلك وتَأمّلْتَه؛ ستجد أنّ الموتَ في حقِّ هؤلاء الظالمين ليس إلّا يدا للعدالة تسوقهم إلىٰ قاضي القضاة -سبحانه-؛ ليدسّ أنوفَهم في حرّ نار جهنم بعد أن أَمهلَهم فظنّوه أَهملَهم، بينما يكون للمظلومين ردًّا لحقٍّ مدهوس، ورفعا لرأسٍ منكَّس، وبلسما لجراحٍ أَنهكها النزيف. بما يعني أنَّ الموت بوابة العدالة المطلقة، ومصير مبرَّر ومنطقي ومرسوم، بل هو ضروري كضرورة الحياة نفسها، وحتمي كحتمية الكهولة والشيخوخة، وهو علىٰ حدّ تعبير المؤرِّخ عماد الدين خليل "رياضيات عادلة، محسوبة بمنطق صارم، لا يُخطئ ولا يَضلّ".

أَضِف إلىٰ ذلك أنَّ لسانَ الموت أَنطقُ مِن كلِّ مُتكلِّم وأَبْلغُ مِن كلِّ واعظ، فيكون منبّهَ يقظةٍ ولحظةَ إفاقة وساعةَ تَغيُّر حقيقي. ولعلّنا جميعا سمعْنا أو عايشْنا نفرا مِن الناس كان سادرًا في غيّه مُعوجّا في سَيْره، وإذْ بأحدِ معارفه تدهمه سيارةٌ أو تلمّ به أزمةٌ قلبيّة يُفارق الحياةَ علىٰ أثرها، فينقلب حالُه من ضلال إلىٰ هُدىٰ ومِن زيغ إلىٰ استقامة ومِن غفلة إلىٰ انتباهة. ولعلّنا أيضا قرأنا في سيرة صاحب الظلال (سيد قطب) الذاتية، أنّ موت الأستاذ حسن البنا كان لحظة تغيّر حقيقي في توجّهه وانتمائه الدعوي، فبعدما رأىٰ ابتهاجَ الأمريكيين وفرحهم بموت الرجُل، قرّر التعرّف عن قرب علىٰ تلك الحركة الإسلامية التي أسّسها الفقيد وكانت شوكة في حلوق هؤلاء الشامِتين المغتبطين في الغرب، وهو ما كان لدىٰ عودته إلىٰ مصر في عام 1952م، ثمّ انضمامه إليها، ورئاسته للقسم الدعوي فيها. وهو الحدَث ذاته الذي كان وراء الانخراط التنظيمي للدكتور نجيب الكيلاني ضمن صفوف الحركة والجماعة نفسها. بما يعني أنّ مَن تدبَّر الموت وجده لحظة من لحظات الصدق الخالص، ورآه مَشرِقا تُشرق منه شمس الحقيقة،.. فالمخطئ يتراجع ويعتذر، والمذنب يقرّ ويتوب، والقويّ يعود إلىٰ ضعفه فيبكي، والمتكبّر ينخلع قلبه فيتواضع، والقاطع يستوْحش فيصِل.

كما يلفت الموتُ أنظارَنا إلىٰ حقيقة غاية في الأهميّة؛ وهي أنَّ اللهَ سبحانه وتعالىٰ هو المالِك علىٰ وجه الحقيقة، وما نحن سوىٰ وكلاء وأوصياء فيما تحت أيدينا، فما ندّعي امتلاكه مِن مال ساكن أو متحرِّك، وصامت أو ناطق؛ سنموت ونُخلِّفه وراءنا، ثمّ يموت مَن وراءنا ويُورِّثه لمَن يَخلفه، وهكذا دواليك إلىٰ أن تفنىٰ الحياةُ ومعها البشر، فيرث اللهُ الأرضَ ومَن عليها، ولهذا كان مِن فقه الصحابة وورعهم؛ الاستحياء مِن قول: هذا ملْكي. ويقولون: هذا للهِ عندي.

فضلًا عن أنَّ الموتَ في نظر الصالحين مِن عباده، لحظة فرحٍ بلقاء الأحبّة وقنطرة عبورٍ إلىٰ حياة أخرىٰ أنْعم وأخْلد؛ فحينما خُيِّر الرسولُ ﷺ بين لقاء ربّه والبقاء في الدنيا اختار الموت والرفيق الأعلىٰ، وروَت كتبُ السيرة أنه ﷺ إبّان مرضه الأخير، أَسَرَّ إلىٰ ابنته الأثيرة إلىٰ قلبه أنّها ستكون أوّل أهله لحوقا به، فسُرَّت بعد غمّ وضحكت بعد بكاء. وعندما أُصيب علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بطعنة عبد الرحمن ابن ملجم قال: فزتُ وربّ الكعبة، وكذلك رُوي أنّ بلالَ بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا حضرتْه الوفاةُ وبكت زوجته قائلة: واحزناه، قال: بل واطرَباه، غدا نلقَىٰ الأحبة محمّدا وحزبه. أمّا إمام العلماء (معاذ ابن جبل) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال وهو يعالج سكرات الموت: مرحبا بالموت، حبيبٌ جاء علىٰ فاقة. ولعلّ

بعضنا قرأ عن المفكّر والفيلسوف محمد إقبال، حين فاضت روحه في داره بمدينة لاهور ورأسه في حِجر خادمه، بينما لسانه يقول: "إني لا أرهب الموت، أنا مسلم أستقبل المنيّة راضيا مسرورا"، وقبلها بعدّة أشهر نظم قائلا:

آيــةُ المــؤمن أنْ يَلقــى الــرّدَى باسِــم الثغــرِ سرورًا ورضــا

وقد قِيل لأعرابي اشتدّ مرضُه: إنك ستموت، فقال: وإلىٰ أين يُذهَب بي بعد الموت، قالوا: إلىٰ الله، فقال: ويْحكم، وكيف أخاف الذَّهاب إلىٰ مَن لا أرىٰ الخيرَ إلّا مِن عنده؟..وهي الروح نفسها التي بثّها جلال الدين الرومي في ثنايا حرفه الصوفي حين قال: "إنَّ الله-وهو الجواد الكريم- لا يَسلب نعمة أنعم بها إلّا وهو يُعطِي نعمةً أكبر منها، فلا يَسلب هذه الحياةَ الضعيفةَ القِيمة التي لا تستحقّ أن تُسمَّىٰ الحياة الباقية، إلّا ويُعطِي حياة أوسع وأبقىٰ وأجمل وأفضل".

ولعلّي لا أجاوز الحقيقةَ بقولي إنَّ الموتَ امتدادٌ لتكريم الله للإنسان ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ٧٠﴾[1]، وذلك حين أَوْجب دفنَه في جوف أمّه الأُولىٰ الأرض، حتىٰ لا يَتفسّخ بدنُه وتتحلّل أعضاؤه وتتعفّن، ثمّ تفوح

(1) الإسراء 70

رائحتُه وينهشه الدود عيانا بيانا أمام أنظار مَعارِفه ومُحبِّيه، والذي -إن حدث- لربّما أغمضوا عيونَهم وسَدّوا أنوفَهم وأشاحوا بوجوهِهم وأهملوه مِن فورِهم، ولكان ذلك كفيلًا بمحْو كلِّ ذكرىٰ طيِّبة جمعتْهم وبالانتقاص مِن قيمتِه ومكانتِه التي خطّها في سطور مخيّلتهم. وكذلك حين يتمّ تغسيله وتطْييبه ثمّ ستْره بكفن[1] أبيض وحمْله علىٰ الأعناق وكأنّه ذاهِب إلىٰ عُرس أو قادِم إلىٰ منصة تتويج، ثمّ اجتماع الغريب والقريب لتوديعه والصلاة عليه؛ حتىٰ لَيبدو المشهدُ وكأنّه احتفال واحتفاء بما أنجز في دنياه، وتهنئة وغِبطة لِما هو مُقدِمٌ عليه مِن خيرٍ في جوار ربٍّ كريم رحيم.

ويبقىٰ الموت -كما قال الرافعي- أصدق وأتمّ ما يُعرِّف الناس بالناس؛ فالكلمة عن الميت خالصة مصفّاة، لا يشوبها كذب الدنيا علىٰ إنسانها، ولا كذب الإنسان علىٰ دنياه؛ إذْ يقول الناس أقوال ضمائرهم لا أقوال ألسنتهم، بعدما انقطعت العداوة بذهاب مَن كان عدوّا، وخلصت معاني الصداقة بفقد الصديق، وارتفع الحسد بموت المحسود، وبطلت المجاملة باختفاء المجامَل. بينما بقيت الأعمال تنبّه إلىٰ قيمة عاملها، وفرغ المكان فدلّ علىٰ قدر مَن كان فيه.

---

(1) في كتابه (المُغني) يقول الفقيه الحنبلي ابن قدامة المقدسي: "ويجب كفْن الميت، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر به، ولأن سترته واجبة في الحياة وكذلك بعد الموت".

وإذا كان البعض يأكلون أرزاقهم مِن وراء الموت ويقولون هل مِن مزيد، أمثال بائعي الأكفان وحفّاري القبور ومقرئي الجنائز وعمّال الخيام وهلّم جرّا، فإنّ شاعر العربية الفذّ جرير بن عطية مَدين للموت بالكثير؛ إذْ رُوىٰ أنّ جريرا والفرزدق والأخطل اجتمعوا في مجلس الخليفة عبد الملك بن مروان، فوضع بين أيديهم كيسا به خمسمئة دينار، وقال: ليقل كلّ منكم بيتا في مدح نفسه، وأيّكم غلب فله الكيس. وهو ما اقتنصه جرير بعدما أُعجب الخليفة بقوله:

أنـا المـوت الـذي أتـىٰ علـيكم فلــيس لهــاربٍ منّــي نجــاة

وقياسا علىٰ مقولة الكاتب الفرنسي مارسيل بروست: "لا تتألّف رحلةُ الاكتشاف الحقيقية من السعي وراء استكشاف أماكن جديدة، بل مِن النظر إلىٰ الأماكن نفسها بعيون جديدة"، يمكننا القول أن الرؤيةُ تتّسع بتغيُّر زاوية النظر، والأوجه والمفاهيم تتعدد بتقليب الأمور تحت ضوء القلب ونور العقل وهداية الشرْع، وهو ما اتّضح لنا مِن كون الموت بداية لا نهاية وميلادا لا فناء[1]، ويقظة تَدفع وتُحفِّز لا مأساة تُحبِط وتُثبِّط،

(1) في هذا المعنى يقول الشاعر:

"وما الموت إلّا رحلة غير أنها مِن المنزل الفاني إلى المنزل الباقي"

ونورا يضيء الطريق ويَكشف الحقائق، وكونه حلقة في سلسلة طويلة عنوانها تكريم الله للإنسان، وعدالة السماء التي تقتصّ مِن الظالِم وتنصف المظلوم، والجسر الذي نعبر عليه إلىٰ أحِبّة ينتظروننا علىٰ باب دار الخلد ولِلُقْيا ربٍّ كريم غفور رحيم، وهو ما قاله يحيىٰ بن معاذ: "لا يَكره الموتَ إلّا مُريب، فهو الذي يُقرِّب الحبيبَ مِن الحبيب".

وبتلك الرؤية الجديدة للموت؛ نُقبل علىٰ الحياةِ جادّين راغِبين، وعلىٰ الموتِ غير هيّابِين ولا وجِلِين. فإن كان خوفُ الموت غريزةً لا لوم فيها، فإنّ اللومَ يحدث إذا غلَب هذا الخوفُ حبَّ الحياة وبدّد الشغفَ بها، ولعلّ ما قاله سيد قطب في رسالتِه مِن داخل محبسه، يُجسِّد هذه الرؤية ويُجلِّيها: "لم أعُد أفزع مِن الموت حتىٰ لو جاء اللحظة! لقد أَعطيتُ في هذه الحياة كثيرا، وعَملتُ بقدر ما كنتُ مستطيعا أن أعمل، وحاولتُ أن أكون خيِّرا بقدر ما أستطيع، أمّا أخطائي وغلطاتي؛ فأنا نادم عليها، وأَكِل أمرَها إلىٰ الله، وأرجو رحمتَه وعفوَه".

وإنِّي إذْ أبشِّرك -رعاك الله- بهذه الرؤية الجديدة، فإنِّني أَصدقك القول أنّ هذه الرؤية لن يصل إليها ويتبنّاها إلّا مَن يقف علىٰ أرضية إيمانيّة صلبة متّزنة، يَدبّ فوقها صاحبُها بقدم من خوف وقدم من رجاء، خوف لا يُنجب الحزن أو اليأس، ورجاء لا يَلد الغفلة أو الوهم؛ وعندها

سيكون الموت انسياب الروح في مملكة السلام وانطلاق الشوق إلىٰ الربِّ السلام ومتعة الوصول إلىٰ دار السلام، وذلك علىٰ حدّ تعبير الفريد (فريد الأنصاري) الذي تحدَّث عن جمالية الموت في ظلّ الإسلام قائلا: "ما كان للموت في عقيدة الإسلام أن يكون فوبيا تدمِّر الأعصاب وتحطِّم شخصية الإنسان! وإنّما هو لحظة من الجمال الروحي، تَدخل بالسرور علىٰ أهل الشوق والمَحبّة من الصدِّيقين والشهداء والصالحين! فأَبشِر أيّها المؤمن الطيّب...إنّ الموتَ بُشرىٰ"

ولعلّ أجمل وصف لرحلة الإنسان، هو ما صاغه أحد العارفين بقوله: "التصقَت جوهرة الروح بصدَفة البدن فكان الإنسان الذي صاغه الله من ماء الحياة، وبعد أن تكاملَت جوهرةُ الوجود، طارت مخلِّفة الصدَفة، لتقتعد مكانها في درّة تاج المُلك".

الخاتِمة

الخاتِمة

لكلِّ سباقٍ خطٌّ نهاية، ولكلِّ رحلةٍ محطّةُ وصول، وها نحن بحمد الله وتوفيقه نطأ عتبةَ النهاية المَحوطة بالغُنم والسلامة، ونحطّ الرحال في محطةَ وصول تتألّق في سمائها نجوم الارتقاء الإيماني. والحقيقة أنّ هذا الوصولَ هو مستهلّ السيْر الحقيقي وليس ختامه ومنتهاه، وهو وإن كان بحدّ ذاته إنجازًا كبيرا؛ فإنّ الإنجازَ الأكبر أن نستمرّ بهذه الروح الإيمانية المتوهِّجة، ونحافظ علىٰ ذلك القلْب اليقِظ، ونصون تلك الطمأنينة التي قال عنها صاحبُ الظلال (سيد قطب): "إنَّ طمأنينةَ الإيمانِ تُضاعِف الحياةَ طولًا وعرضا وعُمقًا وسعة، والحرمان منها شقوةٌ لا تعدلها شقوةُ الفقر والحرمان".

ولن يكون ذلك إلّا بلزوم غرْز التوحيد، والتمسّك بأهداب ينابيع الإيمان الثلاثة؛ الفطرة، وكتاب الموجودات، وهداية السماء؛ إذْ مِن ثلاثتِها نهل الأوّلون فسادُوا وقادُوا، وبها يَعلو الآخِرون إنْ جَدُّوا

وأخلَصوا... فمَن جَدَّ وجَد، ومَن سار علىٰ الدَّرب وصل، ومَن تَقرّب إلىٰ الله باعا تَقرّب إليه ذراعا، والقول ما قاله الشاعر:

شريعـــــــةُ اللهِ للإصـــــــلاحِ عنـــــــوانُ
وكـــــلّ شيء ســـــوى الإســـــلام خـــــسرانُ
لَمّـــا تركْنـــا الهـــدى حلَّـــت بنـــا مِحـــنٌ
وهـــــاجَ للظُّلـــــمِ والإفـــــسادِ طوفـــــانُ

اللهمّ اكتب لنا في كلّ خطْوةٍ حظْوة، واجعل عملَنا هذا خالصًا لا شائبة فيه ولا شُبهة، واختم لنا بالباقيات الصالحات... وآخِر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّد الأوّلين وإمام الآخِرين.

المؤلِّف

المؤلِّف في سطور

- **د. منير لطفي محمّد علي**
- مواليد ريف الدقهلية 1965م
- تَخرّج في كلية طب المنصورة 1989م (جيد جدا مع مرتبة الشرف)
- استكمل الدراسات العليا في الأمراض الباطنية جامعة الزقازيق 1996م (جيد جدا)
- تَخرّج في الأكاديمية الإسلامية المفتوحة بالمملكة العربية السعودية (امتياز)
- عضو نقابة أطباء مصر، استشاري الأمراض الباطنية
- له العديد من المقالات المنشورة بالجرائد والمجلات والمواقع الإلكترونية

صدَر له:

1- أطباء فوق العادة، دار عالم الثقافة، 2016م

2- طريقك إلىٰ التميّز، دار عالم الثقافة، 2017م

3- رحلتي مع مرض السكري، دار اليقين، 2018م

4- مفاتيح القراءة، دار اليقين، 2018م

5- بستان العافية، دار اليقين، 2018م

6- حياتنا بعد الستين، دار مدارك، 2019م

7- مقامات أبقراط، دار البشير،2020م

8- معا نرتقي، دار ألوان، 2020م

9- علىٰ خطىٰ لقمان، دار ألوان، 2020م

10- علاوة علىٰ كتب أخرىٰ مخطوطة تحت الإعداد والتهذيب.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨ ﴾ [هود: 88].

أُثِر عن الإمام الشافعي قوله: **"أَبىٰ الله أن يكون كتابا صحيحا غير كتابه"**، فرحِم الله قارئا فَطِنا؛ عايَن زلَلًا، أو لامَس عيبًا، أو وقع علىٰ خطأٍ...فأهداه إليّ.

للتواصل:

Dr36444@yahoo.com

الفهرس

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	4
المقدّمة	5
الفصل الأول: ومَضاتٌ للعقْل	
(1) حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم	12
(2) عِلمُ السُّنَن	24
(3) فوق بعضٍ درجات	33
(4) أَوْفوا الكيْل	40
(5) لا يَسْتَوون	49

الموضوع الصفحة

(6) ولا تُسرِفوا 60

(7) أمّةً وسَطا 70

(8) هذا خلْق الله! 78

(9) جِرْمٌ صغير وخطَر عظيم! 89

(10) الدّاءُ العُضال 100

الفصل الثاني : نَبَضاتٌ للقلب

(1) عبوديّة القلب 112

(2) الدَّيْنُ الذي لا يَنقضِي 122

(3) الشّاعرُ المُؤمِن 136

(4) صنائعُ المعروف 146

(5) الغايةُ الكبرى 154

الموضوع الصفحة

(6) التمحيص..بُدٌّ لا بُدّ منه 163

(7) العبادةُ المَنْسيّة..... 171

(8) البطاقة الذكيّة..... 179

(9) إنْ شاء الله 189

(10) الحياةُ الطيِّبة 197

الفصل الثالث: نفَحاتٌ للروح

(1) غذاء الرّوح..... 208

(2) الجَمال الحقيقي 218

(3) بيوت الله 229

(4) حُلم الخلود 240

(5) موْكِبُ النّور 248

الموضوع	الصفحة

(6) الفضيلة الغائبة 257

(7) لو سترتَه بثوبِك! 267

(8) نعمة الأمل 276

(9) فلْيفرحُوا 286

(10) وللموتِ وجهٌ آخَر 294

الخاتِمة 307

المؤلِّف في سطور 310

الفهرس..... 314